مجلة جامعة الطائف

الآداب والتربية

مجلة علمية محكَّمة

المجلد الأول - العدد الثاني

ذو الحجة ١٤٣٠ هـ - ديسمبر ٢٠٠٩ م

19-11-2009.indd 1 فى اطلا فغ مح اج 1/4/2010 7:37:44 PM

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٤٧٤٣
ردمد: ١٦٥٨-٤٧٦٧

الآراء الواردة في المجلة لا تمثل بالضرورة وجهة نظر الجامعة
ولا أسرة تحرير المجلة، بل تمثل وجهة نظر الباحثين.

الطباعة:
مطابع السروات بجدة

التصميم
الأعمال الثقافية
jedoffice@gmail.com

فى اطل اقع م اح 19-11-2009.indd 2 1/4/2010 7:38:17 PM

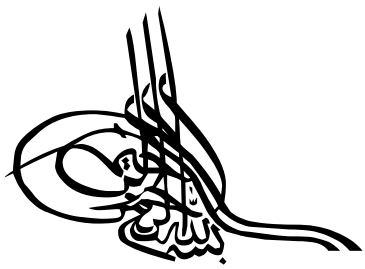

جامع الطائي 19-11-2009.indd 3 1/4/2010 7:38:17 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 4 1/4/2010 7:38:17 PM

مجلة جامعة الطائف

المجلد الأول - العدد الثاني ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

هيئة التحرير

رئيس هيئة التحرير

أ. د. عالي سرحان القرشي

أمين التحرير

أ. د. سعود عبد الله الروقي

أعضاء هيئة التحرير

أ. د. مصطفى يس السعدني أ. د. حسن البنا محمود

د. جابر محمد عبد الله

الإعداد الفني

عادل سعود الروقي سلمان علي السليماني

فى اطل اغ م اج 19-11-2009.indd 5 1/4/2010 7:38:17 PM

محتويات العدد

قواعد النشر باللغة العربية ٥

الأبحاث

● علوم الشريعة

الذين تكلموا في المهد رواية ودراية ..... د. يحيى بن عبد الله الثمالي ١٢

تصرفات الأب في مال الابن في فقه المذاهب الأربعة ..... د. عبد الله عيضه المالكي ٥٥

أحكام العوض في الشفعة ..... د. جميل بن حبيب اللويحق ٩١

● اللغة العربية وآدابها

سورة القمر - دراسة أسلوبية ..... د. عبد الحميد أحمد هنداوي ١٣١

الخلاف في جواز تقديم جواب الشرط على الفعل والأداة - عرض ودراسة ..... د. علي بن الحسن بن هاشم السرحاني ١٧١

قناع عنترة في الشعر السعودي المعاصر ..... د. محمد مشعل الطويرقي ١٩٣

الجناس والتجليات الأسلوبية في شعر أمل دنقل ..... د. محمد عبد الرحمن عطا الله ٢٢٥

● القسم الإنجليزي

قراءة بعدياستعمارية لأعمال سليكو الرئيسية د. يحيى كامل السيد ٧

فى اطلاع مع اح 19-11-2009.indd 7 1/4/2010 7:38:17 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 8 1/4/2010 7:38:17 PM

١

علوم الشريعة

19-11-2009.indd 9 فى الطراغ مع اح 1/4/2010 7:38:17 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 10 1/4/2010 7:38:17 PM

الذين تكلموا في المهد

رواية ودراية

د. يحيى بن عبد الله الثمالي

الأستاذ المشارك بجامعة الطائف

كلية المعلمين - قسم الدراسات الإسلامية

فى اطفال قع مح 19-11-2009.indd 11 1/4/2010 7:38:17 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 12 1/4/2010 7:38:18 PM

الملخص

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد: فإن هذا البحث (الذين تكلموا في المهد رواية ودراية) يعالج قضية يكثر الكلام عنها على ألسنة الناس، وترد في الحديث الشريف والآثار، وكلام أهل العلم، وهي تلك الروايات الواردة في عدد الذين تكلموا في المهد، وأسماءهم، وأزمانهم، ومدى ثبوت ذلك من عدمه.

وهذا البحث يورد تلك الأسماء التي تكلم أصحابها وهم في المهد، ويراعي البحث الدراسة النقدية لتلك المرويات، ويبين الصحيح من غيره، مع اتفاق الجميع على أن عيسى عليه السلام واحد منهم، وقد شهد القرآن له بذلك فلا مجال للدراسة والنقد، كذلك ما ورد في الصحيحين البخاري ومسلم، من أخبار أولئك الذين تكلموا في المهد، وهم: غلام جريج، وغلام أصحاب الأخدود، وابن المرأة التي قالت: اللهم اجعل ابني مثل هذا، ثم بقية من وردت عنهم الأحاديث والأخبار بذلك، كابن ماشطة ابنة فرعون، وغيرهم، مما سيرد في البحث، مع التنبيه على الثابت من عدمه، مع بيان أن عدد من ورد أنهم تكلموا في المهد قد بلغ (١٢) نفساً.

كذلك اهتم البحث بإبراز بعض الدروس والفوائد، والأحكام المستنبطة من قصص هؤلاء المتكلمين في المهد، نسال الله التوفيق والتسديد.

19-11-2009.indd 13 فىراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:18 PM

المقدمة

الحمد لله وحده لا شريك الله، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإن هذا القرآن العظيم الذي خَصّ الله به هذه الأمة المرحومة، قد اشتمل على كل ما تحتاجه البشرية أجمع في أمور دينها ودنياها، فهو كتاب هداية وإرشاد إلى طريق الحق والسداد، كما وصفه من تكلم به حين قال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[١] وأخبر أنه ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾[٢] وأودع فيه البيان الشافي لأسباب الهداية والتوفيق، وطُرق الغواية والضلال والعياذ بالله، وجعله مشتملاً على الأوامر والنواهي، والأحكام والآداب، والقصص والأخبار، وبين فيه ما يترتب على كل ما سبق من الثواب والعقاب.

وإن مما جاء في القرآن، بل وكثر: القَصَص والأخبار، وما دار بين الأنبياء وأقوامهم، ونهاية كل فريق، وهو ما عُرف بعدُ عند أهل العلم بـ(القصص القرآني) وكل ذلك عن الأقوام السابقين، وكذا الشأن في سنة النبي ﷺ المكملة للقرآن، ففيها ما في الكتاب، مما سبق ذكره، حتى القصص عن الأقوام السابقين، وما سيقع في آخر الزمان، ونهاية الأيام.

والقِّصَّة كما هو معلوم = أسلوب تربوي مهم أولاه القرآن الكريم عناية خاصة، فحفلت الكثير من سوره بعدد من القصص كما تقدم، بل سُمّيت سورة من سوره بسورة القَصَص، وإن أول ما يندرج في القَصَص: القِصَصُ فهي من جملة القَصَص[٣]، ومن أول ما يتبادر عند إطلاقها للمشابهة في المبنى، بل أخبر سبحانه بأنه إنما يقص علينا أحسن القصص، كما في أول سورة يوسف ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾[٤].

وكما اهتم القرآن الكريم بالقصص، كذلك اهتمت به السنة، ففي السنة عشرات القصص التي كان النبي ﷺ يُعالج بها الكثير من المواقف، وأذكر لذلك مثالاً واحدا، يقول خباب بن الأرتّ: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار فيُوضع على رأسه، فيُشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[٥] إلى غير ذلك من القصص الكثيرة في السنة المطهرة[٦]، بل جاء أن النبي ﷺ قال معلقاً على قصة

19-11-2009.indd 15 فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:18 PM

موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما»[٧] وما ذاك إلا لما لها من وقع عجيب على النفوس.

لذا أقول: لا يظن ظانّ أن هذا القصص الذي اشتمل عليه كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله ﷺ أنه مسوق لمجرد التسلية والتشهي بذكر ما كان وما يكون، تعالى الله أن يكون في كلامه ووحيه شيء لا فائدة منه، بل إن هذا القصص له فوائد وحكم بالغة، تُدرك عند التأمل، ويحصل بها عند التدبر تذكر واعتبار، وقد قال سبحانه وتعالى في خاتمة سورة يوسف وهي السورة الوحيدة من سور القرآن المشتملة على قصة واحدة بهذا الطول، وبهذا السياق والبيان والسرد العجيب ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾[٨] لكن من الذي يستفيد من تلك القصص ويحصل له بها الادّكار؟ إنهم طلاب الحق أولوا الألباب، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم، وقد كان بعض من سلف يقول (القصص جند من جنود الله).

وقد جاءت إشارة في القرآن الكريم يتبين من خلالها شيء من فائدة القصص حين قال ربنا سبحانه ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٩] وهذا وإن كان الخطاب للنبي صلوات الله وسلامه عليه، إلا أنه شامل لأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، فتأمل هذه الآية تدرك سراً عجيباً من وراء القصص القرآني، وأعظم ما فيها قضية الثبات إلى الممات وهو أعظم شيء يحتاج إليه كل مسلم في هذه الحياة إلى أن يلقى الله تعالى، ولا شك أن من يقف على أخبار السالفين من المؤمنين وما جرى لهم وعاقبة أمرهم يحصل له شيء من التسلي والترويح عن النفوس، والصبر ومُصابرة النفوس، وقد قالت الخنساء رضي الله عنها:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وفائدة أخرى، وهي: التأسي بأهل الخير والصلاح ممن درج على الخير في حياته مما قص الله علينا خبره، وتأمل قول الله تعالى بعد أن ذكر الأنبياء وشيئاً من محاجة إبراهيم لقومه ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾[١٠] وفي أية أخرى يقول سبحانه ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾[١١].

وأقول أخيراً: إنه ليس من شك في أن التربية بالقصة الحقيقية الهادفة له أعظم الأثر على السامع المتلقي، إذا أحسن فهم ما دلت عليه من دروس وعبر[١٢].

وإن بحثنا هذا الذي نُورد فيه (**الذين تكلموا في المهد**) عبارة عن قصص حقيقية وقعت، عن أقوام سابقين، ليست من نسج الخيال، ولا من أساطير الأولين، التي توارثوها كابراً عن كابر،

16 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:18 PM

تحمل في طياتها حكماً وأسراراً، ودروساً وعبراً، لمن أحسن توظيفها لهذا المقصد، مع ما فيها من الاطلاع على بعض أحوال من سبق في غابر الأزمان، وبعض هذه القصص جاء بها القرآن، وبعضٌ آخر جاء ذكرها في سنة النبي ﷺ كما سيأتي بيانه مفصلاً.

وقبل الشروع في ذكر أخبار هؤلاء الذين تكلموا في المهد وهم صغار، أود أن أشير إلى أن الله تبارك وتعالى له الحكمة البالغة في كل ما خلق، وذرأ، وبرأ، له سنن يجريها في خليقته لا تتغير ولا تتبدل، إلا ما كان له من وراء تغيير تلك السنن من حِكَم وغايات وأسرار، ربما فقهها بعض العباد، وربما جهلوها أو جهلوا بعضها.

وإنّ من سُنَنه في خلقه سبحانه وتعالى: أن المخلوق من بني آدم لا يتكلم عند ولادته، ولا بعدها إلا بعد حين، وإنما يَصرخ ويبكي، إعلاماً لمن حوله بحاجته الضرورية المتمثلة في جلب نفع إليه، أو دفع ضر عنه.

وذلك من أعظم الأدلة على حاجة هذا الضعيف المسكين لغيره من بني جنسه، ولخالقه ومولاه قبل كل أحد، وصدق الله سبحانه حينما صور هذه المرحلة الصعبة من حياة الإنسان بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[١٢].

ورحم الله هذا المخلوق الضعيف بأن يسّر له جميع الأسباب والوسائل، التي تُعينه في هذه المرحلة، فالأم تربي وترعى، والأب يكدح من أجله وينصب، والكل بذلك في غاية الفرح والسرور، حتى يُصبح هذا المخلوق بشراً سوياً مختاراً مريداً قادراً فاعلاً، فيبدأ مرحلة أخرى في هذه الحياة، ويخلف أباه وأمه في تلك الوظيفة، وهذه سنة الله في خلقه.

وعوداً على بدء، وأمام مُعجزة عجيبة تحولت بها السنن، وانخرقت لها العادة، ألا وهي نُطق المولود في مهده قبل حين الكلام ووقته المعتاد، والله على كل شيء قدير= نجد أن هذه السنة قد تغيرت لحكمة إلهية لعدد من المخلوقين من بني آدم، منهم النبي، ومنهم غير النبي، وترتّب على التحول في هذه السنة تحول في الأفكار والمفاهيم والتصرفات والأفعال، وكلها في حقيقة الأمر خادمة للقضية الكبرى التي من أجلها خُلقت الخليقة، الا وهي (توحيد الله جل وعلا).

- فعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام تكلم في المهد، وقال: إني عبد الله...، مع ما حصل من كلامه من رفع تُهمة اتُّهمت بها أُمُّه الطاهرة المطهرة كما هو معلوم، وتلك ضرورة لا بد من دفعها عمّن رُمي بها بغير حق، وحفظ الدين والعرض من الضرورات التي حفظتها الشرائع بأجمعها كما هو معلوم.

19-11-2009.indd 17 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:18 PM

- والغلام الصغير الذي تكلم في المهد، المذكور في قصة الغلام والساحر، الذي أمر أُمّه أن تُلقي بنفسها في النار وأخبرها أنها على الحق، مما يؤكد هذه القضية (قضية التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى) فإنه بهذا الكلام ثبّت أُمّه وطمأنها، ومعجزة أخرى لغير أمه تجلّت في بيان الحق وإظهاره لمن شهد هذه الواقعة العجيبة، على لسان هذا الصغير، الذي لا يُحسن الكلام، ولا يرتاب أحد شهد هذا المشهد أن هذا من لطف الله بالمؤمنين الصادقين، مع ما في قصة الغلام حين قتله الملك من بيان لهذه الحقيقة الكبرى، فلما تجلت وظهرت أسلم الناس، ووحدوا الله جل وعلا، فعند ذاك خُدّت الأخاديد، وأُوقدت فيها النيران، وقُذف فيها الموحدون ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[١٤] وقد ذكر الله سبحانه تفاصيل هذه الحادثة الأليمة في سورة البروج، كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

- وغلام جريج الراهب الذي أنطقه الذي أنطق كل شيء، وشهد على برآءة هذا العابد مما رُمي به، بعد أن شهد الناس عليه بالباطل، وطافوا به في المدينة، وشاع واشتهر عند العامة والخاصة: أن هذا الراهب يختلي الدنيا بالدين، ويخادع العالمين، مما يجعل الناس لا يثقون به ولا بما يحمله من مبادئ وقيم.

- وشاهد نبي الله يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام، على القول بأنه كان في المهد صغيراً، فيه ما في الذي قبله تماماً، مع الفارق الكبير بين حال الراهب وحال يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ولا شك أن هذا الحفظ الإلهي لهذا النبي، من قبل أن يوحى إليه، وعصمته من هذه الكبيرة مما يجعل الناس بعد ذلك له معظمين، ولما يقوله سامعين، ولما يدعوهم إليه قابلين، وقد حصل هذا والحمد لله رب العالمين، والعالم كله في ذلك الزمان شهد هذه الواقعة وانتشر فيه خبرها، ولو قيل: إن هذه القصة لم يكن لها أي انتشار عالمي، فلا أقل من أن يكون من سيبعث إليهم هذا النبي فيما بعد ويدعوهم إلى التوحيد والإسلام، لا شك أنهم تسامعوا بخبرها وخبر براءة يوسف مما رُمي به، فكشف الله الهم وجلا الغُمّة.

فانظر إلى ما ذكرته هنا يتبين لك ما ذُكر من قبل من كون الحكمة ظاهرة جلية من نطق هؤلاء في المهد وحال الصغر، والحمد لله على ما أرشد ووفق.

وليعلم القارئ الكريم أن العلماء ذكروا عددا ممن تكلم في المهد، حتى قال العلامة محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت ٩٤٢): تكلم في المهد جماعة، نظم شيخنا -يعني السيوطي- رحمه الله تعالى أسماءهم في كتابه قلائد الفوائد، فقال:

19-11-2009.indd 18 فىراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:18 PM

تَكلّم في المَهدِ النّبيُّ محمـــدٌ وموسى وعيسى والخليل ومَريـم
ومُبرئ جُريج ثم شـاهد يوسف وطِفل لدى الأُخدود يَرويه مُسلم
وطِفـل عليه مُـــرّ بالأمَة التـي يُقـال لهـا تَزنـــي ولا تَتَكلّـــم
وماشطة في عَهد فرعون طفلها وفي زمن الهـادي المُبـارك يُختم [١٥]

وقال المناوي (ت ١٠٣١): تكلم في المهد نحو عشرة[١٦].

وعند النظر والتحقيق: نجد أنّ بعض هؤلاء الذين تكلموا في المهد قد صحت الأخبار بأنهم تكلموا في المهد، لا ريب عندنا في ذلك، وهم:

١-عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وخبره بذلك في القرآن.

٢-غلام جريج الراهب، وخبره في الصحيحين.

٣-ابن المرأة الذي قالت اللهم اجعل ابني مثله، وخبره في الصحيحين.

٤-غلام أصحاب الأخدود، وخبره في صحيح مسلم.

وأما:

٥-ابن ماشطة ابنة فرعون، فخبره في ابن ماجة، وأحمد، وغيرهما، وصححه الحاكم، وابن حبان، وقال ابن كثير: لا بأس به.

وأما:

٦-إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وخبره بذلك في بعض كتب التفسير، ولا يثبت مثله، كما سيأتي.

٧-شاهد يوسف، وخبره محل خلاف بين أهل العلم كما سيأتي بيانه.

٨-موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ذكره بعضهم، ولم أجد لذلك مستنداً.

٩-يحيى بن زكريا، خبره بذلك في بعض كتب التفسير، كما سيأتي، وتوقف ابن حجر في ثبوته.

١٠-مريم ذكرها بعضهم، ولم أجد لذلك مستنداً، كما سيأتي.

١١-نبينا محمد ﷺ روي في ذلك خبر لا يثبت مثله.

١٢-مبارك اليمامة، في زمن نبينا محمد ﷺ وخبره لا يصح.

لذا رأيت أن يكون إيراد هؤلاء الذين تكلموا في المهد في هذا البحث على الترتيب السابق ذكره، من حيث ثبوت أخبارهم وعدمها.

وغرضي من كتابة هذا البحث، وجمع هذه المرويات، التنبيه على ما صح وثبت، مما لم يثبت ولم يصح، خاصة وأن الناس دائماً يتناقلون مثل هذه الأخبار منسوبة إلى النبي ﷺ ولا شك

19-11-2009.indd 19 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:18 PM

عندي أن مثل هذا العمل فيه دفاع عن حديث النبي ﷺ وإسهاماً في بيان ضرورة التثبت في نقل الأخبار، ونسبة القول إلى النبي ﷺ.

وعن الدراسات في هذا الموضوع فإنني لم أر كتابات تشفي غليلاً، وإنما رأيت كتيبات في ذكر بعض من ورد أنهم تكلموا في المهد، وهي على ما فيها من فائدة إلا أنني أرى أنها لا تفي بالمقصود، كما تقدم، وهذه الكتيبات هي:

- السبعة الذين تكلموا في المهد. د. مصطفى مراد، دار الفجر الحديث، القاهرة.
- هؤلاء تكلموا في المهد، أبو أسامة محي الدين، ط الأولى، ١٤١٥، مكتبة الخدمات الحديثة، جدة.
- الثلاثة الذين تكلموا في المهد، عادل عبد المنعم أبو العباس، مكتبة الساعي الرياض.
- ثلاثة تكلموا في المهد، محمد موفق سليم، دار الهدى، الرياض.

يسر الله وأعان على إتمام المقصود، وبيان الحق، والله هو الموفق وحده، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الطائف ١٠/٥/١٤٢٩هـ

20 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:18 PM

تمهيد:

قبل الشروع في المقصود أودّ أن أذكر بإيجاز ما قالوه في المراد بالمهد، فأقول:

قال ابن فارس: الميم، والهاء، والدال، كلمة تدل على توطئة وتسهيل للشيء، ومنه المهد، ومهدت الأمر: وطأته، والمهاد: الوطاء من كل شيء[١٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المهد: مضجع الصبي في رضاعه[١٨] وكذا قال الطبري[١٩].

والأصل أن الفعل (مَهَدَ) بمعنى التسوية، ومنه طريق ممهدة، أي لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، صالحة للسير عليها، وفي التنزيل ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أي صالحة للعيش والسكنى عليها والانتقال في نواحيها، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾[٢٠].

ومنه أيضاً مَهدت الفراش مهداً: أي بسطته، ووطأته[٢١].

وقال الطبري في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ بعد أن أورد القراءتين في مهداً، ومهاداً، قال: وزعم بعض من اختار قراءة ذلك كذلك، أنه إنما اختاره من أجل أن المهاد اسم الموضع، وأن المهد الفعل، قال: وهو مثل الفرش والفراش[٢٢].

قال ابن منظور: ومَهدُ الصبي موضعه الذي يُهيأ له، ويُوطأ لينام فيه[٢٣].

وبهذا يتبين لنا: أن المهد موضع الصبي الرضيع الذي ينام فيه، وهو مخصوص بالرضيع لملازمته له، وعدم تحوله عنه، فإذا ما أُطلق المهد اُستفيد منه معرفة سن صاحبه، وأنه صغير لا يستطيع الانتقال، ولا يُحسن الكلام. وإلى سياق البحث:

١- عيسى ابن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام

ممّا لا خلاف فيه: أن نبي الله عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام تكلم في المهد صغيراً، وهو الوحيد من بني آدم الذي صرح القرآن الكريم بأنه تكلم في المهد، وهذه المعجزة له معدودة من أعظم الخوارق والآيات، ولكونه قد حملته أمه بلا أب -على غير معهود سابق، كما قال الله عنهم ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾[٢٤]- أجرى الله على يديه معجزات هي دلائل على أنه ﴿ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾[٢٥] مخلوق بأمر الله تعالى، وقدرته، جعله الله وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ومن تلك المعجزات: كلامه في المهد صغيراً، وفي هذه المعجزة برهان على صدق أُمّه أنها حملته بكلمة من الله، ولذا لما تكلم حينما أشارت إليه انقطعوا بعد ذلك عن تهمتها بما يسوء، وإشارة أيضاً إلى صدقه فيما سيخبر به بعد ذلك من أمر النبوة والرسالة.

21 .indd 19-11-2009 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:18 PM

وقد جاء في ذكر هذه المعجزة وبيانها آيات عدة في كتاب الله تعالى، أولها قوله تعالى ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٢٦] وغيرها من الآيات بهذا المعنى[٢٧].

وأما الأحاديث التي دلت على كلامه عليه الصلاة والسلام في المهد فهي كثيرة، أورد منها حديث الشفاعة المشهور، وأما الأحاديث الأخرى التي ذكر فيها هذا النبي الكريم ﷺ وغيره ممن تكلم في المهد، فسترد في أخبارهم كما سيأتي بيانه، وحديث الشفاعة هو الآتي:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة العظمى، وفيه «فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبياً اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد»[٢٨].

معجزات نبي الله عيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

-ذكر الله تبارك وتعالى معجزات هذا النبي المبارك بقوله ﴿ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾[٢٩].

الكلام الذي تكلم به في المهد:

ذكر القرآن الكريم الكلام الذي تكلم به عيسى بن مريم عليه السلام، وهو على النحو التالي:

١-﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ فخاطبهم بوصف العبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلها، أو ابناً للإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى المدعين اتّباعه.

٢-﴿ ءَاتَىَنِىَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: قضى أن يؤتيني الكتاب، وهو الإنجيل، وهو مع ذلك مصدقاً لما بين يديه من التوراة، وكأن الإنجيل مكمل للتوراة، وناسخ لبعض ما فيها ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾[٣٠] فكلاهما كتابان لعيسى وقومه، حتى قيل: إن التوراة كتاب الأحكام والعبادات، والإنجيل كتاب المواعظ والنصائح والعبر.

٣- ﴿ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ وهذا مما لا إشكال فيه، فهو من أولي العزم من الرسل، وهذه الثلاث فيها تكميل لنفسه، فهو عبد نبي مرسل، وما بعدها فيها تكميل لغيره من بني الإنسان.

٤-﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ أي: في أي مكان، وأي زمان، فالبركة جعلها الله في تعليمه الخير، والدعوة إليه، والنهي عن الشر، فكل من جالسه أو اجتمع به نالته بركته، وسَعُد بمصاحبته.

19-11-2009.indd 22 فيراطلا قعم اح 1/4/2010 7:38:18 PM

٥- ﴿ وَأَوْصَنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ وهذه فيها القيام بحقوق الله التي الصلاة أعظمها بعد توحيد الله جل وعلا، والقيام بحقوق العباد التي من أجلّها الزكاة، وهذه التكاليف لا تنقطع مادام العبد حياً.

٦- ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي ﴾ وهذا حق خاص لأقرب الناس إليه، بعد الحق العام، والبر اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه.

٧- ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي: ومع كل ما سبق لست متكبراً على الله، ولا مترفعاً على عباده، ومن حصل له ما سبق لم يكن شقياً بوجه من الوجوه.

٨- ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ فلما تم له الكمال، ومحامد الخصال، قال هذا القول الذي فيه السلامة يوم الولادة، فإن الشيطان لم يقربه حين وُلد، والسلامة في الحياة وعند الموت فلن يتخبطه الشيطان، والسلامة عند البعث فلا تناله أهوال البعث والحشر، ولا شدائده، صلوات الله وسلامه عليه[٣١].

قال ابن كثير: وهذه الأوقات الثلاثة أشد ما يكون على الإنسان، فإنه ينتقل في كل منها من عَالَم إلى عالم آخر، فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه، ويصير إلى الأخر، ولا يدري ما بين يديه، ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء، وفارق لينها وضمها، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمومها، وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار، وصار بعد الدور والقصور إلى عَرصة الأموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرور محبور، ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير، وفريق في الجنة وفريق في السعير[٣٢]. ولهذا ناسب ذكر السلامة والدعاء بها في هذه المواطن الثلاثة، نسأل الله الكريم من فضله.

فوائد، ولطائف:

-روى المنذري عن أحمد بن يحيى، أنه قال: ذكر الله عز وجل لعيسى آيتين: تكليمه الناس في المهد، فهذه معجزة، والأخرى نزوله إلى الأرض عند اقتراب الساعة كهلاً ابن ثلاث وثلاثين سنة، يُكلم أُمّةَ محمد، فهذه الآية الثانية[٣٣] وستأتي في الفائدة الآتية.

-صرح القرآن الكريم، وثبت في السنة المطهرة: بأن عيسى لم يمت الموتة التي كُتبت على بني آدم، بل رفعه الله من الأرض إليه حياً، قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[٣٤] وسينزل في آخر الزمان

19-11-2009.indd 23 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:19 PM

ببلاد الشام، حكماً عدلاً مقسطاً، يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويقتل المسيح الدجال، ولا يقبل من الناس غير الإيمان والانقياد لشريعة الإسلام الخاتمة التي جاء بها محمد ﷺ ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[٣٥] ويمكث في الأرض ما شاء الله تعالى، ثم يموت هو ومن معه من المؤمنين، ولا يبقى في الأرض من يقول الله الله، وإنما يبقى شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة.

-أورد الآمدي: أن النصارى مع كثرتهم، كثرة تخرج عن الحصر، لم ينقلوا كلام المسيح في المهد، مع أنه أعجب حادث حدث في الأرض، ومن أعظم ما تتوفر الدواعي على نقله وإشاعته، ونقلوا ما دون ذلك من معجزاته[٣٦].

-حُكي عن مجاهد، قال: قالت مريم: كنت إذا خلوت أنا وعيسى، حدثني وحدّثته، فإذا شغلني عنه إنسان سبح في بطني وأنا أسمع[٣٧].

قال العيني: واختلفوا هل كان نبياً في وقت كلامه؟ فقيل: نعم، لظهور المعجزة، وقيل: لا، وإنما جعل ذلك تأسيساً لنبوته[٣٨].

-هناك قضايا ذكرها أهل العلم فيما يتعلق بزمن حمل مريم عليها السلام لعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وسِنّه حين رُفع من الأرض، وسِنّه حين نُزوله إلى الأرض، وغير ذلك من الأخبار التي لا يُثبت النقاد مثلها، تُروى وتطوى، ولا يترتب عليها كبير فائدة، أعرضت عن تفصيلاتها لعدم الفائدة من ذلك.

٢-غلام جريج الراهب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يُقال له جريج، كان يصَلِّي جاءته أمّه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي، فقالت: اللهم لا تُمته حتى تُريه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة وكلمته، فأبى، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها، فولدت غلاماً، فقالت: من جريج، فأتوه فكسروا صومعته، وأنزلوه، وسبّوه، فتوضأ، وصلى، ثم أتى الغلام، فقال: من أبوك يا غلام؟ فقال: الراعي. قالوا: نبني لك صومعتك من ذهب؟ قال: لا، إلا من طين. وكانت امرأة تُرضع ابناً لها من بني إسرائيل، فمر بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه، قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص أصبعه، ثم مُرّ بأمه فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها، فقال: اللهم اجعلني مثلها. فقالت أمه: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون: سَرقتِ، زنيت، ولم تفعل»[٣٩].

19-11-2009.indd 24 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:19 PM

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ «ما تكلم مولود في صغره، إلا عيسى، وصاحب جريج»[٤٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لم يتكلم في المهد إلا عيسى بن مريم، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة بنت فرعون»[٤١].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: تكلم أربعة صغار: عيسى بن مريم عليه السلام، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة ابنة فرعون[٤٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: عيسى، وصاحب يوسف، وصاحب جريج، يعني تكلموا في المهد[٤٣].

وعن سعيد بن جبير، قال: تكلم في المهد أربعة: عيسى، وصاحب يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة ابنة فرعون[٤٤].

روايات قصة جريج:

الحديث الأول الطويل في قصة جريج العابد، رواية الصحيح كما تقدم تخريجه، وبعد اطلاعي على روايات أخر لهذا الحديث؛ رأيت أن أسوق هذا الحديث بمجموع رواياته، على أن تكون الرواية الزائدة فيها زيادة معنى، جاعلاً كل رواية بين قوسين، معزوّة إلى من أوردها، وليس بلازم أن تكون جميع تلك الروايات ثابتة، لكنني أحببت أن يقف القارئ على كل ما ورد بشأن هذه القصة العجيبة، وذلك على النحو الآتي:

«كان رجل في بني إسرائيل تاجراً، وكان ينقص مرة، ويزيد أخرى، قال: ما في هذه التجارة خير، ألتمس تجارة هي خير من هذه، فبنى صومعة، وترهب فيها، وكان يُقال له: جريج»[٤٥] «فأتته أمه فقالت»[٤٦] «أي بني أشرف علي أكلمك أنا أمك، أشرف علي»[٤٧] «فيشرف عليها، فيكلمها»[٤٨] «تأتيه كل يوم بعشائه»[٤٩] «فأتته أمه وهو يصلي، فقالت: ياجريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يارب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يارب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته»[٥٠] قال: اللهم أمي وصلاتي، قالت: يا جريج، قال: اللهم أمي وصلاتي، قالت: يا جريج، قال: اللهم أمي وصلاتي «فغضبت»[٥١] «فقالت: أبيتَ أن تُطلع إلي وجهك»[٥٢] «اللهم إن هذا جريج، وأنه ابني، وإني كلمته فأبى أن يكلمني، اللهم فلا تُمته حتى تريه المومسات»[٥٣] وفي رواية «حتى ينظر في أعين المومسات»[٥٤] وفي رواية «لا أماتني الله حتى أراك مع المومسات»[٥٥] «ولو دعت عليه أن يُفتن لفُتن»[٥٦] «والذي نفسي بيده لو دعت الله أن يخزيه لأخزاه، ولكنها دعت أن ينظر فنظر»[٥٧] و«لو كان جريج الراهب فقيهاً عالماً لعلم أن إجابة أمه أفضل من عبادة ربه»[٥٨] «فتذاكر بنوا إسرائيل جريجاً وعبادته،

19-11-2009.indd 25 فيراطلا قعم اح 1/4/2010 7:38:19 PM

وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتنّنه لكم، قال: فتعرضت له، فلم يلتفت إليها»[٥٩] وفي رواية أنها «بنت ملك القرية»[٦٠] «وكان راع يرعى بقراً، وكانت امرأة ترعى غنماً، فأجنهما الليل عند صومعة جريج، فقال الراعي: يا جريج تُدخلنا هذه الصومعة هذه الليلة، فقال: نعم، فواقع الرجل المرأة فحملت، وكانت امرأة لا زوج لها»[٦١] فولدت، فقيل لها: ممّن هذا الولد؟ قالت: من جريج «وكان أهل القرية يعظمون الزنى إعظاماً شديداً»[٦٢] «وكان من زنى منهم قُتل»[٦٣] «فبعث الملك أعوانه إليه»[٦٤] «فجاؤوا بفئوسهم، ومساحيهم، فنادوه، فصادفوه يصلي، فلم يكلمهم»[٦٥] «فجعل يقول: يا رب قومي وصلاتي»[٦٦] «فأشعلوا النار في صومعته في جوانبها الأربع»[٦٧] و«أخذوا يهدمون دَيره»[٦٨] «فجعل يسألهم: ويلكم، مالكم، فلم يُجيبوه، فلما رأى ذلك أخذ الحبل فتدلى، فجعلوا يجئون أنفه، ويضربونه، ويقولون: مرائي مخادع الناس»[٦٩] قالوا: «زنيت بهذه البغي»[٧٠] «فتبسم»[٧١] «فجعلوا في عنقه وعنقها حبلاً، وجعلوا يطوفون بهما في الناس»[٧٢] «فلما مروا به نحو بيت الزواني خرجن ينظرن، فتبسم، فقالوا: لَمْ يضحك حتى مر بالزواني»[٧٣] «وهن ينظرن إليه»[٧٤] «فجاءوا به، فقال: دعوني حتى أصلي، فصلى»[٧٥] «فقال له الملك: ويحك يا جريج، كنا نراك خير الناس، فأحبلت هذه، اذهبوا به فاصلبوه»[٧٦] وفي رواية «فقال له الملك: إنك قد جعلت نفسك عابداً، ثم تهتك حرم الناس، وتتعاطى مالا يحل لك؟ قال: أي شيئ فعلت؟ قال: إنك قد زنيت بامرأة كذا، فقال: لم أفعل. فلم يصدقوه، وحلف على ذلك، فلم يصدقوه، فقال: ردوني إلى أمي، فردوه إلى أمه، فقال لها: يا أماه إنك قد دعوتي الله علي، فاستجاب الله دعاءك، فادعي الله أن يكشف عني بدعائك، فقالت أمه: اللهم إن كان جريج إنما آخذته بدعوتي فاكشف عنه»[٧٧] و«سالهم أن يُنظروه، فأنظروه، فرأى في المنام من أمره أن يطعن في بطن المرأة فيقول: أيتها السخلة من أبوك؟»[٧٨] «فرجع جريج إلى الملك، فقال: أين هذه المرأة؟ وأين الصبي؟ فجاؤا بالمرأة والصبي، فسألوهما فقالت: بلى هذا الذي فعل بي فوضع جريج يديه على رأس الصبي»[٧٩] «ثم مسح رأس الصبي»[٨٠] وفي رواية «أتى الصبي فطعن في بطنه»[٨١] «وقال: يا بابوس، من أبوك؟ قال: راعي الغنم»[٨٢] «الراعي الذي كان يأوي معها إلى ديرك»[٨٣] «صهيب الراعي»[٨٤] «راعي البقر»[٨٥] وفي رواية «فأُتي بالمرأة والصبي، وفمه في ثديها، فقال له جريج: يا غلام من أبوك؟ فنزع الغلام فاه من الثدي، وقال: أبي راعي الضأن»[٨٦] وفي رواية «ثم مشى إلى شجرة فأخذ منها غصناً، ثم أتى الغلام وهو في مهده، فضربه بذلك الغصن، وقال: يا طاغية من أبوك»[٨٧] وفي رواية «أن المرأة كانت حاملاً، لم تضع حملها بعد، فقال لها أين أصابك؟ قالت: تحت شجرتك، وكانت الشجرة تحت صومعته، قال جريج: اخرجوني إلى تلك الشجرة، ثم قال: يا شجرة أسألك بالذي خلقك أن تخبريني من زنى بهذه المرأة، فقال كل غصن منها:

فى اطل اقع مراجع 19-11-2009.indd 26 1/4/2010 7:38:19 PM

راعي الظأن، ثم طعن بأصبعه في بطنها، وقال: يا غلام من أبوك؟ فنادى من بطنها: أبي راعي الظأن، فاعتذر الملك إلى جريج الراهب، وقال له: ائذن لي أن أبني صومعتك بالذهب؟ قال: لا، قال: فبالفضة؟ قال: لا، ولكن بالطين كما كان، فبنوها بالطين كما كانت»[٨٨] «فلما سمعت المرأة ذلك اعترفت، وقالت: قد صدقتَ، وكنتُ كاذبة، وإنما فعل بي فلان الراعي»[٨٩] «فسبح الناس، وعجبوا»[٩٠] «فأعظموا الراهب بعد ذلك وأَجلُّوه»[٩١] «فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به»[٩٢] «فأبرأ الله جريجاً، وأعظم الناس أمر جريج»[٩٣] «فقالوا له: بالله ممّ ضحكت؟ فقال: ما ضحكت إلا من دعوة دعتها علي أمي»[٩٤] وفي رواية «فما الذي تبسمتَ، قال: أمراً عرفته، أدركتني دعوة أمي، ثم أخبرهم»[٩٥].

تأريخ هذه القصة:

- يرى ابن حجر أن جريجاً هذا كان بعد عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وأنه من أتباعه، لأنهم هم الذين ابتدعوا الترهب، وحبس النفس في الصوامع[٩٦].

غريب الروايات:

- الصّومَعة هي: البناء المرتفع المحدد أعلاه، ووزنها فوعلة، من صُمعت إذا دُقّقت؛ لأنها دقيقة الرأس[٩٧].
- والمومسات، والمواميس، والمياميس: جمع مُومسة، وهي الزانية، المجاهرة بالزنا[٩٨].
- وقوله «يا بابوس» قال القزاز: هو الصغير، وقال ابن بطال: الرضيع، واختلف هل هو عربي، أو معرّب. قال الشاعر:

حنّت قلوصي إلى بابوسها جزعاً[٩٩].

مختلف الروايات:

-قوله «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة» مع أنه جاء في روايات ثابتة أن غير هؤلاء الثلاثة تكلموا في المهد وهم صغار إشكال، وقد أجاب عن هذا الإشكال جماعة من أهل العلم.

قال النووي: قوله ﷺ «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة» فذكرهم، وليس فيهم الصبي الذي كان مع المرأة، في حديث الساحر والراهب... وجوابه: أن ذلك الصبي لم يكن في المهد، بل كان أكبر من صاحب المهد، وإن كان صغيراً[١٠٠].

وقال ابن حجر: قال القرطبي: في هذا الحصر نظر، إلا أن يُحمل على أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم الزيادة على ذلك، وفيه بُعد، ويحتمل أن يكون كلام الثلاثة المذكورين مقيداً بالمهد، وكلام غيرهم من الأطفال بغير مهد، لكنه يعكّر عليه أن في رواية ابن قتيبة أن الصبي الذي

19-11-2009.indd 27 فيراطلا قعماج 1/4/2010 7:38:19 PM

طرحته أمه في الأخدود كان ابن سبعة أشهر، وصرّح بالمهد في حديث أبي هريرة، وفيه تعقب على النووي في قول: إن صاحب الأخدود لم يكن في المهد[١٠١].

-من تأمل الروايات السابقة وجد فيها نوعاً من الاختلاف، فقد جاء أنه مسح رأس الصبي، وجاء أنه وضع أصبعه على بطن أمه، ونحو ذلك مما رُوي، وعن ذلك يقول ابن حجر: ويُجمع بين هذا الاختلاف، بوقوع جميع ما ذُكر، بأنه مسح رأس الصبي، ووضع أصبعه على بطن أمه، وطعنه بأصبعه، وضربه بطرف العصا التي كانت معه[١٠٢].

فقه الروايات:

مسألة:

أورد البخاري هذا الحديث (أي الحديث الأول حديث أبي هريرة) في صحيحه، في كتاب العمل في الصلاة، وبوب عليه بقوله: باب إذا دَعت الأم ولدَها في الصلاة.

والمعنى: هل يجب إجابتها أم لا، وإذا وجبت هل تبطل الصلاة أو لا، في المسألتين خلاف، ولذلك لم يذكر البخاري جواب الشرط، كذا قال ابن حجر[١٠٣].

قال النووي: قال العلماء: هذا دليل على أنه كان الصواب في حقه إجابتها، لأنه كان في صلاة نفل، والاستمرار فيها تطوع لا واجب، وإجابة أمه وبرها واجب، وعقوقها حرام[١٠٤].

وقال ابن حجر: في الحديث إيثار إجابة الأم على صلاة التطوع، لأن الاستمرار فيها نافلة، وإجابة الأم وبرها واجب[١٠٥].

وقال أيضاً: وهذا إذا حمل على إطلاقه استفيد منه جواز قطع الصلاة مطلقاً لإجابة نداء الأم نفلاً كانت أو فرضاً، وهو وجه في مذهب الشافعي، حكاه الروياني، وقال النووي تبعاً لغيره: هذا محمول على أنه كان مباحاً في شرعهم، وفيه نظر... والأصح عند الشافعية أن الصلاة إن كانت نفلاً وعلم تأذي الوالد بالترك وجبت الإجابة، وإلا فلا، وإن كانت فرضاً وضاق الوقت لم تجب الإجابة، وإن لم يضق وجب عند إمام الحرمين، وخالفه غيره لأنها تلزم بالشروع، وعند المالكية: أن إجابة الوالد في النفل أفضل من التمادي فيها، وحكى القاضي أبو الوليد أن ذلك يختص بالأم دون الأب، وعن ابن أبي شيبة من مرسل محمد بن المنكدر ما يشهد له، وبه قال مكحول، وقيل: إنه لم يقل به من السلف غيره[١٠٦].

وعن يزيد بن حوشب الفهري، عن أبيه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول «لو كان جريج الراهب فقيهاً عالماً لعلم أن إجابة أمه أفضل من عبادة ربه»[١٠٧].

19-11-2009.indd 28 فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:19 PM

مسألة:

قال ابن حجر: والذي يظهر من ترديده في قوله (أُمِّي، وصلاتي) أن الكلام عنده يقطع الصلاة فلذلك لم يجبها[١٠٨].

مسألة:

قال ابن بطال: سبب دعاء أم جريج على ولدها: أن الكلام في الصلاة كان في شرعهم مباحاً، فلما آثر استمراره في صلاته ومناجاته، على إجابتها دعت عليه لتأخير حقها[١٠٩].

مسألة:

قال النووي قال العلماء: كان يمكنه أن يُخفف الصلاة ويجيبها، ثم يعود إلى صلاته، فلعله خشي أنها تدعوه إلى مفارقة صومعته، والعود إلى الدنيا، ومتعلقاتها[١١٠].

وتعقب ابن حجر هذا القول، بقوله: فيه نظر، لما تقدم من أنها تأتيه فيكلمها، والظاهر أنها كانت تشتاق إليه وتزوره، وتقتنع برؤيته وتكليمه، وكأنه إنما لم يُخفف ثم يُجيبها لأنه خشي أن ينقطع خشوعه[١١١].

آداب الروايات.

في هذه الروايات لهذا الحديث مع ما سبق في فقهه، جملة من الآداب، وهي:

-إشارة إلى عظيم حق الوالدين، وخاصة الأم، وشؤم العقوق[١١٢].

-أن دعاء الوالدين لولدهما وعليه مستجاب، وقد جاء في ذلك أحاديث ثابتات، فهل من مُدّكر[١١٣].

-شناعة الزنا وشؤمه على صاحبه، كيف لا وقد قرنه الله في كتابه بقتل النفس بغير حق، وقد قال العيني: وأصل هذه المطالبة (أي مطالبة الملك لجريج) أن أهل تلك البلدة كانوا يعظمون أمر الزنا (كما تقدم في رواية) فظهر أمر تلك المرأة في البلد، فلما وضعت حملها أُخبر الملك أن امرأة قد ولدت من الزنا فدعاها، فقال لها: من أين لك هذا الولد؟ قالت: من جريج الراهب[١١٤].

-إن الله يدافع عن الذين آمنوا، فقد أنطق الله هذا الغلام في مهده معلناً براءة هذا العابد على رؤوس الأشهاد.

-إذا أراد الأعداء تدمير أُمّة مُسلمة، ضربوها في صميمها = في علمائها وعبادها ودعاتها، وصورهم بصورة تنافي الأخلاق والآداب والقيم، وحينئذ لا تسل عن (فقد الثقة) واتساع الهوة بين الناس وعلمائهم، فانتصر الله للحق ودافع عن المؤمنين، فبرأ الله هذا المتهم البريء (جريج العابد) مما أُلصق به، وأطمأن الناس إليه، وإلى ما يحمله من تدين في أصله، وإن

19-11-2009.indd 29 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:19 PM

كان الترهب ليس من الدين في شيئ كما قال الله تعالى عن أهل الكتاب ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾[١١٥] وليس القصد هنا دعوة الناس إلى أن يسلكوا هذا السلوك المخالف لسنة الأنبياء (أعني الترهب) نعوذ بالله من البدع وأهلها، وإنما الغرض هنا الإشارة إلى مدافعة الله عن المظلومين، وخاصة إذا كانوا من أهل الإيمان والتقوى.

٣-الطفل الذي كانت ترضعه أمه، فقالت: اللهم اجعل ابني مثل فلان، فقال: اللهم لا تجعلني مثله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «بينما امرأة تُرضع ابنها إذ مَرّ بها راكب وهي تُرضعه، فقالت: اللهم لا تُمت ابني حتى يكون مثل هذا، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم رجع في الثدي، ثم مُرّ بامرأة تُجرّر، ويُلعب بها، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقال: اللهم اجعلني مثلها. فقال: أما الراكب فإنه كافر، وأما المرأة، فإنهم يقولون: تزني، وتقول: حسبي الله، ويقولون: تسرق، وتقول: حسبي الله»[١١٦].

روايات أخرى لهذه القصة.

وقد جاء في رواية أن هذه المرأة «من بني إسرائيل»[١١٧] وأن هذا الراكب الذي مرّ بها كان راكباً «على دابة فارهة، وشارة حسنة»[١١٨] وأن هذا «الراكب جبارٌ من الجبابرة»[١١٩] وفي رواية أنه كان «كافراً»[١٢٠] «وأما الجارية السوداء فهي مؤمنة»[١٢١] وفي رواية «مَرُّوا بجيفة حبشية، أو زنجية تُجر»[١٢٢] وفي رواية قال أبو هريرة (فكأني انظر إلى رسول الله ﷺ يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة)[١٢٣] وفي رواية «اللهم أمتني ميتة هذه الحبشية»[١٢٤].

فوائد وعبر.

في هذا الحديث:

-كراهية أن يتمنى المسلم الهيئة والمكانة الدنيوية لمن لم يعلم حاله الدينية، وخاصة إذا كان الباعث على هذا التمني = الدنيا وزخرفها وزينتها وجمالها فحسب، دون نظر إلى أمور صالحة يمكن أن تتحقق على يد من أعطي من الدنيا ما يستطيع به أن يخدم دينه، وفي الحديث «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء»[١٢٥] فانظر كيف أن التمني هنا بالنية الصالحة كان سبباً في

19-11-2009.indd 30 فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:19 PM

أجر عظيم بغير عمل، وكيف أن التمني لمجرد الدنيا فحسب قد ألحق بصاحبه بلاء عظيماً.

-قال الإمام النووي على قوله «اللهم اجعلني مثلها»: أي اللهم اجعلني سالماً من المعاصي، كما هي سالمة، وليس المراد مثلها في النسبة إلى باطل تكون منه بريئاً[١٢٦].

-في هذه القصة العجيبة إشارة إلى أن البريء قد يُتهم بما هو منه بريء، ويعاقب بهذه التهمة وربما كانت العقوبة الموت، فيعذّب أو يُقتل مظلوماً، ولله في ذلك حكم بالغه، فقد يكون هذا البلاء الذي تَعرّض له المخلوق تطهيراً له مما اقترف، وتكفيراً له عن سيئاته، وربما كان ذلك رفعة لدرجاته في الآخرة، وكم من مظلوم بريء حل به مثل ما حل بهذه المرأة المسكينة، وقد جاء في الحديث «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[١٢٧] وفي حديث آخر «يَودُّ أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهل البلاء الثواب، لو أن جلودهم كانت قُرضت في الدنيا بالمقاريض»[١٢٨].

-في هذا الحديث أن البشر طُبعوا على إيثار الأولاد على الأنفس بالخير، وذلك أن هذه المرأة طلبت الخير لابنها، ودفع الشر عنه، ولم تذكر نفسها[١٢٩].

-وفي هذا الحديث أيضاً أن هذه الكلمة العظيمة (حسبي الله) كانت معروفة في الأمم السابقة، وقد قال ابن عباس: كان آخر قول إبراهيم حين القي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل[١٣٠] وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يقول هذه الكلمة إن تولى قومه عنه، ولم يستجيبوا له، فقال له ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾[١٣١] وفي الحديث «من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات، كفاه الله ما أهمه صادقاً بها أو كاذباً»[١٣٢] وفي الأثر «فإذا غلب عليك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل»[١٣٣].

٤- غلام أصحاب الأخدود.

عن صُهيب بن سِنان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «كان مَلِك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كَبُر قال للملك: إني قد كَبرتُ، فابعث إلي غلاماً اعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يُعلّمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مَرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضَربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك قل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم

19-11-2009.indd 31 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:19 PM

أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تَدلّ علي، وكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك؟ فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك؟ فقال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيئ بالغلام، فقال له الملك: أي بُني قد بلغ من سحرك ما تُبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟ فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دَلّ على الراهب، فجيئ بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعى بالمئشار، فوضع المئشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيئ بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المئشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيئ بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك، قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرقور، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فقال للمك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأُتي الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حِذرُك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخُدّت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمّه اصبري فإنك على الحق»[١٣٤].

32 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:19 PM

غريب الرواية:

- الأكمه: الذي خُلق أعمى.
- والمئشار مهموز في رواية الأكثرين، ويجوز تخفيف الهمزة بقلبها ياء، ورُوي المنشار بالنون، وهما لغتان صحيحتان.
- وذُروة الجبل: أعلاه.
- والقُرقور: السفينة الصغيرة، وقيل: الكبيرة.
- وكبد القوس: مقبضها عند الرمي.
- ونزل بك حذرك: أي ما كنت تخاف وتحذر.
- والأخدود: الشق العظيم في الأرض.
- وتقاعست: توقفت، ولزمت موضعها، وكرهت الدخول في النار[١٣٥].

روايات أخرى للحديث:

عند الترمذي: قال معمر: أحسب أن أصحاب الصوامع كانوا يومئذ مسلمين، وعنده أيضاً: فقال بعضهم: إن تلك الدابة أسداً، وعنده كذلك: فأما الغلام فإنه دُفن، فيُذكر أنه أُخرج في زمن عمر بن الخطاب، وأصبعه على صُدغه كما وضعها حين قُتل[١٣٦].

وفي رواية الضحاك عن ابن عباس: فإذا حية عظيمة قطعت على الناس طريقهم، وأن اسم الغلام: عبد الله بن ثامر، وأن الصبي قال لأمه: يا أمي أثبتي على ما أنتي عليه، فإنما هي غُميضَة[١٣٧] وفي رواية: امضي ولا تنافقي[١٣٨].

أصحاب الأخدود، مكانهم، وزمانهم.

- عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم ناس بمذارع اليمن[١٣٩].
- وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم ناس من بني إسرائيل، وكذا قال الضحاك[١٤٠].
- وعن مجاهد: أنهم بنجران[١٤١].
- ويذكر القرطبي: أن هؤلاء القوم كانوا بنجران، في الفترة بين عيسى ونبينا محمد عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه[١٤٢] وفي رواية الضحاك عن ابن عباس، قال: كان ملك بنجران[١٤٣].

ونقل بعضهم عن الضحاك: أنهم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مبعث النبي ﷺ بأربعين سنة، أخذهم يوسف بن شُراحيل بن تبع الحميري، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً[١٤٤].

وحُكي عن مقاتل: أن أصحاب الأخدود ثلاثة: واحد بنجران، والثاني بالشام، والثالث بفارس، أما الذي بالشام فأنطنيانوس الرومي، والذي بفارس بختنصر، والذي بأرض العرب يوسف بن ذي نواس، فلم ينزل الله في الذي بفارس والشام قرآناً، وأنزل قرآنا في الذي بنجران[١٤٥].

19-11-2009.indd 33 فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:20 PM

وحكى القرطبي: إنه قتل منهم عشرين ألفاً، وعن وهب بن منبه: اثني عشر ألفاً، وقال الكلبي: كان أصحاب الأخدود سبعين ألفاً[١٤٦].

دروس وعبر:

في هذا الحديث:

- إثبات كرامات الأولياء الذين آمنوا وكانوا يتقون، ومن ذلك إجابة الدعاء، ومداواة الأكمه والأبرص وسائر المرضى، وكل ذلك وقع للغلام[١٤٧].
- وجواز الكذب إذا كان سبباً للانتصار والرفعة، كما في الحروب وغيرها، أو كان به دفع شر وضرر محقق عن النفس أو الغير[١٤٨].
- وفيه: فضل البحث عن الحق، والسعي في تحصيله، وأن من اجتهد طالباً للصواب سدده الله وأيده، وقد قال الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[١٤٩] فهذا الغلام اجتهد في تحري الحق، فهداه الله تعالى له، وكان صدقه مع ربه سبباً لحسن خاتمته.
- وفيه: فضل التوحيد واليقين بأن مسبب الأسباب هو الله تعالى، وهذا ظاهر في كلام الغلام حين قال: (إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله) فنسب الشفاء لله، وأعلمهم أن ما فعله إنما هو سبب، وقد يتحقق أثره وقد يتخلف، وكل ذلك بأمره تعالى.
- وقال القرطبي: قال علماؤنا: أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة ما كان يلقاه من وحّد قبلهم من الشدائد، يؤنسهم بذلك، وذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها؛ ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظيم صبره، وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نُشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى، ورسخ الإيمان في قلوبهم صبروا على الطرح في النار، ولم يرجعوا عن دينهم[١٥٠].
- وهنا مسألة، وهي: هل يجب عل الإنسان أن يصبر، ولا يرجع عن الحق ولو قُتل؟ أم أنه عند الإكراه يجوز له أن يكفر بلسانه، وقلبه مطمئن بالإيمان على معنى قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ وكيف نفهم ما وقع للغلام وغيره من المقتولين في هذا الحديث.

وللجواب عن ذلك نقول: أجمع أهل العلم على أن من أُكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن نطق بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان[١٥١].

34 19-11-2009.indd فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:20 PM

وأما ما ورد في هذا الحديث فإنه شرع لمن قبلنا، وهل كانت لهم رخصة النطق بكلمة الكفر عند الإكراه، أم أن الرخصة خاصة بهذه الأمة، فتكون من الآصار والأغلال التي كانت على من كان قبلنا، هذا الأخير هو الظاهر.

وقد قال ابن العربي المالكي بعد أن أورد هذا الحديث: والذي يختص به من الأحكام هاهنا: أن المرأة والغلام صبرا على العذاب من القتل والصلب، وإلقاء النفس في النار دون الإيمان، وهذا منسوخ عندنا[١٥٢].

قال القرطبي المالكي: قلت: ليس بمنسوخ عندنا، وأن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه، وصلُب دينه أولى، قال الله تعالى مخبراً عن لقمان ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[١٥٣] وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عن سلطان جائر» خرجه الترمذي، وقال حديث حسن[١٥٤]، وروى ابن سنجر محمد بن سنجر، عن أمية مولاة النبي ﷺ قالت: كنت أوضئ النبي ﷺ فأتاه رجل فقال: أوصني، قال «لا تُشرك بالله شيئاً وإن قُطّعت أو حُرّقت بالنار» الحديث[١٥٥]. قال علماؤنا: ولقد امتحن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصلب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك، ويكفيك قصة عاصم وخُبيب[١٥٦]، وأصحابهما وما لقوا من الحروب والمحن والقتل والأسر والحرق، وغير ذلك[١٥٧].

قلت: عنى ابن العربي أن وجوب ذلك وتحتمه وعدم الرخصة هو المنسوخ، أما كون ذلك لمن استطاعه هو الأفضل فهذا لا ريب فيه، وقد قال ابن العربي رحمه الله تعالى:

إن الكفر وإن كان بالإكراه جائزاً عند العلماء فإن من صبر على البلاء ولم يُفتتن حتى قُتل فإنه شهيد، ولا خلاف في ذلك، وعليه تدل آثار الشريعة التي يطول سردها، وإنما وقع الإذن رخصة من الله رفقاً بالخلق، وإبقاء عليهم، ولما في هذه الشريعة من السماحة ونفي الحرج ووضع الإصر[١٥٨].

وقد نقل القرطبي إجماع العلماء على أن من أُكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة[١٥٩].

- ومسألة أخرى: وهي: هل للإنسان أن يتسبب في قَتل نفسه كما فعل الغلام حين أَعلَم الملك بالكيفية التي يستطيع بها قتله، بعد أن عجز الملك عن قتله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ذكر هذه القصة: وفيها أن الغلام أمر بقتل نفسه لأجل

35 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:20 PM

مصلحة ظهور الدين، ولهذا جوز الأئمة الأربعة: أن ينغمس المسلم في صف الكفار، وإن غلب على ظنه أنهم يقتلونه، إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين[١٦٠].

وقال ابن القيم: وهذا يُحمد -يعني الانغماس في العدو، وأن يُستشهد في سبيل الله تعالى- إذا تضمن مصلحة للجيش والإسلام، كحال الغلام الذي أمر الملك بقتله ليتوصل بذلك إلى إسلام الناس[١٦١].

-وفي هذه القصة العظيمة: حسن حيلة هذا الغلام، حين أمر الملك بجمع الناس في صعيد واحد، وهو يهدف من وراء هذا الجمع إلى أمر عظيم خفي على الملك، وهو مشاهد الجميع وسماعهم لأمر التوحيد ظاهراً (بسم الله رب الغلام) فكانت النتيجة أن (قال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام) وهذه من السياسات المستحسنة.

- وخاتمة عبر هذه القصة: أن الكفر والظلم سبب لطمس البصيرة، وذهاب الفكر وقلة الوعي، فانظر إلى الملك حين اتهم الغلام حينما رآه يداوي أصحاب الأمراض المستعصية بأنه ساحر، وقد بلغ من قوة سحره أن يفعل هذه الخوارق، ولم يلتفت إلى شيء آخر، بل لم يُفكر فيه، وكذلك لم يَدرِ لماذا أمره الغلام بأن يجمع الناس في مكان واحد عند قتله، ولا شك أن هذا كله تغييب للعقل، وتعطيل للفكر، مما ينشأ عنه = عدم إدراك للحقائق على ما هي عليه، وجريان وراء الظواهر والرسوم المعتادة، وذلك يسبب لصاحبه: التخبط في الحياة على غير هدى وبصيرة ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[١٦٢] ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾[١٦٣].

٥- ابن ماشطة بنت فرعون.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لما كانت الليلة التي أسري بي فيها، أتت علي رائحة طيبة، فقلت: ياجبريل ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون، وأولادها، قال: قلت: وما شأنها؟ قال: بينا هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم إذ سقطت المدرَي من يديها، فقالت: بسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا، ولكن ربي ورب أبيك الله، قالت: أُخبره بذلك؟ قالت: نعم، فأخبرته، فدعاها فقال: يافلانة، وإن لك رب غيري؟ قالت: نعم. ربي وربك الله، فأمر ببقرة من نُحاس فأُحميت، ثم أمر بها أن تُلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إن لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قالت: أُحبُّ أن تجمع عظامي، وعظام ولدي في ثوب واحد، وتدفننا، قال: ذلك لك علينا من الحق، قال: فأمر بأولادها فأُلقوا بين يديها واحداً واحداً، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مُرضع، وكأنها تقاعست من أجله، قال: يا أمّه اقتحمي فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت»[١٦٤].

19-11-2009.indd 36 فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:20 PM

رواية أخرى لهذه القصة.

عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ أنه ليلة أسري به وجد ريحاً طيبة، فقال «يا جبريل ما هذه الريح الطيبة؟» قال: هذه ريح قبر الماشطة وابنيها وزوجها، قال: وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بني إسرائيل، وكان مَمَرُّه براهب في صومعته، فيطلع عليه الراهب، فيعلّمه الإسلام، فلما بلغ الخضر زوّجه أبوه امرأة، فعلّمها الخضر، وأخذ عليها ألا تُعَلِمه أحداً، وكان لا يقرب النساء، فطلّقها، ثم زوّجه أبوه أخرى، فعلّمها، وأخذ عليها ألا تُعَلِمه أحداً، فكتمت إحداهما، وأفشت عليه الأخرى، فانطلق هارباً حتى أتى جَزيرة في البحر، فأقبل رجلان يحتطبان فرأياه، فكتم أحدهما وأفشى الآخر، وقال: قد رأيت الخضر، فقال: ومن رآه معك؟ قال: فلان، فسئل فكتم، وكان في دينهم أن من كَذَب قُتل، قال: فتزوج المرأة الكاتمة، فبينما هي تمشط ابنة فرعون إذ سقط المشط، فقالت: تعس فرعون، فأخبرت أباها، وكان للمرأة ابنان وزوج، فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما، فأبيا، فقال: إني قاتلكما، فقالا: إحساناً منك إلينا إن قتلتنا أن تجعلنا في بيت، ففعل، فلما أسري بالنبي ﷺ وجد ريحاً طيبة، فسأل جبريل فأخبره[١٦٥].

وفي رواية «يا أمتاه اثبتي فإنك على الحق»[١٦٦] وفي رواية «اصبري يا أماه فإنك على الحق، ثم ألقيت مع ولدها»[١٦٧] وعند ابن عساكر «فدعا ببقرة من نحاس، وأخذ بعض ولدها فرمى به في البقرة وهي تغلي، ثم قال: ترجعين؟ قالت: لا، فأخذ الولد الآخر، حتى ألقى أولادها أجمعين، ثم قال لها: ترجعين؟ قالت:لا، فأمر بها، قالت: إن لي حاجة؟ فقال: وما هي؟ قالت: إذا ألقيتني في البقرة فأمر بالبقرة أن تُحمل ثم تُكفأ في بيتي الذي على باب المدينة، وتُنحي البقرة، وتهدم البيت علينا حتى يكون قبورنا، فقال: نعم إن لك علينا حقاً، قال: ففعل بها ذلك»[١٦٨].

غريب الروايات:

-الماشطة: هي التي تمشط الشعر.

-المدرى: هو المشط.

-بَقَرة من نُحاس: أي قِدراً كبيرة واسعة، سماها بقرة مأخوذاً من التبقر وهو: التوسع، أو كان شيئاً يسع بقرة تامة بتوابلها، وفي رواية ابن حبان، والبيهقي في الشعب (نقرة من نحاس): والنقرة: القطعة المذابة[١٦٩].

19-11-2009.indd 37 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:20 PM

٦-نبي الله وكليمه إبراهيم الخليل، على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

قال ابن حجر: ذكر البغوي في تفسيره أن إبراهيم الخليل تكلم في المهد[١٧٠].

وقال العلامة محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت ٩٤٢): تكلم في المهد جماعة، نظم شيخنا -يعني السيوطي- رحمه الله تعالى أسماءهم في كتابه قلائد الفوائد، فقال:

تَكلّم في المَهدِ النّبيُّ محمدٌ وموسى وعيسى والخليلُ ومَريم[١٧١]

وقال المناوي (ت ١٠٣١) وهو يعدد بعض من تكلم في المهد: منهم: إبراهيم الخليل[١٧٢].

قلت: لم أجد في تفسير البغوي تصريحاً منه بأن الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام تكلم في المهد، لكنني وجدت خبراً أورده البغوي في قصة إبراهيم ومحاجته لقومه في آيات سورة الأنعام، عن محمد بن إسحاق مفاده أن إبراهيم الخليل تكلم بعد خمسة عشر شهراً من ولادته، وذلك أن أمه أودعته مغارة قريباً من دارها، وكانت تراقبه كل وقت، بعد أن أمر النمرود بقتل الغلمان حين أخبره كهنته بأنه سيولد غلام يكون زوال ملكك على يديه، وأن هذا الغلام قد حملت به أمه، وأن الخليل بعد هذه المدة المذكورة التي لبثها في المغارة قال لأمه حين جاءت إليه: أخرجيني فأخرجته... إلى آخر ما قال[١٧٣]، في خبر دون ثبوته خرط القتاد.

٧-شاهد يوسف.

قال الله تعالى ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾[١٧٤].

وانظر ما سبق من الأخبار في خبر غلام جريج الراهب، ففيها ذكر لهذا الشاهد.

وقد اختلف العلماء والمفسرون في هذا الشاهد -بعد اتفاقهم على أنه من أهل المرأة- على ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنه صبي في المهد، حكاه ابن عباس رضي الله عنهما[١٧٥]، وكذا قال سعيد بن جبير[١٧٦] وهلال بن يساف[١٧٧] وقال الضحاك: صبي أنطقه الله[١٧٨] وقال أيضاً: يزعمون أنه كان صبياً في الدار[١٧٩].

والقول الثاني، أنه رجل، قال ابن عباس: ذُو لحية[١٨١] وقال أيضاً: كان من خاصة الملك[١٨٢] وقال مجاهد: رجل[١٨٣] وقال قتادة: رجل حكيم من أهلها[١٨٤] وقال عكرمة: ما كان بصبي، ولكن كان رجلاً حكيماً[١٨٥].

والقول الثالث: أنه كان من أمر الله، ولم يكن إنسياً، وهذا محكي عن مجاهد،[١٨٦] واستغرب ابن كثير هذا القول[١٨٧].

19-11-2009.indd 38 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:20 PM

واختار الطبري -رحمه الله- القول الأول، فقال بعد أن ذكر ما قيل في شاهد يوسف: والصواب من القول في ذلك قول من قال: كان صبياً في المهد؛ للخبر الذي ذكرناه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر من تكلم في المهد، فذكر أن أحدهم صاحب يوسف(١٨٨).

دروس وعبر.

في هذا القصص العجيب آية وعبرة وعظة تتمثل في دفاع الله عن الذين آمنوا، فقد صرف الله عن هذا النبي -الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن- السوء والفحشاء، وجعله من عباده المخلصين، ولما اتهمته امرأة العزيز بما هو بريء منه، هيأ الله جل وعلا من أهل بيتها من يقيم البرهان بالقرينة على براءة هذا النبي الكريم العفيف، مما رمته به، ورضي الحاضرون بشهادته، وسلّموا لحكمه، فقَدُّ القميص من دُبر دليل على أن يوسف كان هارباً منها، وأنها هي التي طلبته، حتى أمسكت بقميصه، وهو هارب فانشق القميص، ولو كان القَدّ من قُبل، لقيل: إنه كان مُقبلاً عليها طالباً لها، وهي تدفعه عن الوصول إليها، ومع هذه المدافعه حصل للقميص ما حصل من هذا الجانب، فبطل قولها حين كان القَدّ من دُبر، ودلت القرينة على كيدها ومكرها، وأنها هي المُراوِدَةُ، وقالوا ليوسف: أعرض عن هذا الحادث الأليم، وتناسه، ولا تخبر به أحداً، طلباً للستر، وقالوا للمرأة: استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين (وكأن زوجها عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه)(١٨٠) لكن الخبر شاع واشتهر، وحصل ما قَصّه الله في سورة يوسف، مما يطول ذكره، وكان النصر ليوسف، والعاقبة للمتقين، والحمد لله رب العالمين.

٨-نبي الله يحيى بن زكريا على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

قال ابن حجر في الفتح: زعم الضحاك في تفسيره أن يحيى تكلم في المهد، أخرجه الثعلبي فإن ثبت صاروا سبعة(١٨٩).

وقال العيني: قال الضحاك: تكلم في المهد ستة: شاهد يوسف عليه الصلاة والسلام، وابن ماشطة فرعون، وعيسى، ويحيى عليهما الصلاة والسلام، وصاحب جريج، وصاحب الأخدود(١٩٠).

وقال المناوي (ت ١٠٣١) وهو يعدد بعض من تكلم في المهد: منهم: إبراهيم الخليل، ويحيى(١٩١).

قلت: وهذه أقاويل لا دليل عليها.

19-11-2009.indd 39 فىاطلا قعماح 1/4/2010 7:38:20 PM

٩-موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

قال العلامة محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت ٩٤٢): تكلم في المهد جماعة، نظم شيخنا -يعني السيوطي- رحمه الله تعالى أسماءهم في كتابه قلائد الفوائد، فقال:

تَكلّم في المَهدِ النّبيُّ محمدٌ وموسى وعيسى والخليل ومَريم[١٩٢]

وقال المناوي (ت ١٠٣١): تكلم في المهد نحو عشرة، منهم: إبراهيم الخليل، ويحيى، ومريم، وموسى[١٩٣].

ولم أجد لما ذكراه مُستنداً.

١٠-مريم عليها السلام.

وقال العلامة محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت ٩٤٢): تكلم في المهد جماعة، نظم شيخنا -يعني السيوطي- رحمه الله تعالى أسماءهم في كتابه قلائد الفوائد، فقال:

تَكلّم في المَهدِ النّبيُّ محمدٌ وموسى وعيسى والخليل ومَريم[١٩٤]

وقال المناوي (ت ١٠٣١): تكلم في المهد نحو عشرة، منهم: إبراهيم الخليل، ويحيى، ومريم[١٩٥].

ولم أجد لما ذكراه مُستنداً.

١١-خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله رأيتك في المهد تناغي القمر، وتشير إليه بأصبعك، فحيث أشرت إليه مال. قال: إني كنت أحدثه ويُحدثني، ويُلهيني عن البكاء، وأسمع وجبته يسجد تحت الكرسي[١٩٦].

والمناغاة: المحادثة. وناغت الأم صبيها لاطفته وشاغلته بالمحادثة والملاعبة[١٩٧].

قال ابن حجر: وفي سير الواقدي أن النبي ﷺ تكلم أوائل ما وُلد[١٩٨].

وقال السيوطي: وذكر ابن سبع في الخصائص: أن مهده كان يتحرك بتحريك الملائكة، وأن أول كلام تكلم به أن قال: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً[١٩٩].

قلت: روى البيهقي بسنده إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: كانت حليمة بنت أبي ذُؤيب التي أرضعت النبي ﷺ تُحدّث أنها لما فطمت رسول الله ﷺ تكلّم، قالت: سمعته يقول كلاماً عجيباً، سمعته يقول: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً[٢٠٠].

قلت: وهذه الأخبار ونحوها لا تثبت.

40 19-11-2009.indd فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:20 PM

١٢-مبارك اليمامة.

عن مُعرّض بن عبد الله بن مُعرّض بن مُعيقيب اليماني، عن أبيه، عن جده، قال: حججت حجة الوداع، فدخلت داراً بمكة، فرأيت فيها رسول الله ﷺ ووجهه مثل دارة القمر، وسمعت منه عجباً جاءه رجل من أهل اليمامة بغلام يوم وُلد، وقد لفّه في خرقة، فقال له رسول الله ﷺ «يا غلام، من أنا؟» قال: أنت رسول الله، قال «صدقت، بارك الله فيك» قال: ثم إن الغلام لم يتكلم بعد ذلك حتى شبّ، قال: قال أبي: فكنا نسميه مبارك اليمامة[٢٠١].

قال ابن حجر: وقد تكلم في زمن النبي ﷺ مبارك اليمامة، وقصته في دلائل النبوة للبيهقي، من حديث مُعرّض، والله أعلم[٢٠٢].

قلت: وهذا خبر لا يثبت مثله كما تراه في تخريجه.

وبهذا ينتهي ما تمكنت من إيراده، فما كان فيه من صواب فمن توفيق الله وحده، وما كان فيه غير ذلك فأسأل الله معافاته ومغفرته، ورحم الله امرأ وجد خللاً فنبه إليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

41 .indd 19-11-2009 فىاطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:20 PM

الإحالات والهوامش

(١) الإسراء (٩). (٢) فصلت (٤٤).

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وليس القَصَص بالفتح جمع قِصة كما يظنه بعض العامة، فإن ذلك يُقال في قِصص بالكسر واحده قِصّة، وجمعه قِصص بالكسر... والمراد: الكلام الذي هو أحسن القصص، وهو عام في كل ما قصه الله، ويدخل في ذلك قصة يوسف. وقد أطال رحمه الله في تقرير ذلك، فانظره في: مجموع الفتاوى: ١٩/١٧ وما بعدها.

(٤) يوسف (٣).

(٥) البخاري (٣٦١٢، ٦٩٤٣) وأبو داود (٢٦٤٩) والنسائي (٥٣٢٠) وأحمد في المسند (٢٠٥٦٨، ٢٦٦٧٥).

(٦) ومن أحسن من كتب في ذلك جمعاً واستخراجاً للعبر والفوائد من القصص في السنة النبوية: مشهور حسن سلمان في كتابه (من قصص الماضين) وهو مطبوع متداول.

(٧) البخاري (٤٧٢٥). (٨) يوسف (١١١). (٩) هود (١٢٠). (١٠) الأنعام (٩٠).

(١١) الممتحنة (٤).

(١٢) انظر على سبيل المثال: الكتاب الجيد في هذا الباب كأنموذج فريد في استخراج الدروس والعبر من القصص القرآني، للدكتور ناصر العمر (آيات للسائلين، تفسير تحليلي موضوعي لسورة يوسف) جزاه الله خيراً على ما بذل فيه من جهد مشكور.

(١٣) الروم (٥٤). (١٤) البروج (٨).

(١٥) سبل الهدى والرشاد: ٣٤٩/١، وانظر: روح المعاني للألوسي: ٧٢٢/٢١، فقد عزى هذا النظم للسيوطي.

(١٦) فيض القدير: ٢٩٤/٥. (١٧) معجم مقاييس اللغة: ٢٨٠/٥.

(١٨) ابن جرير في تفسيره: ٢٧١/٣: حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، عن ابن عباس، به.

(١٩) الطبري في تفسيره: ٢٧١/٣. (٢٠) الملك (١٥).

(٢١) لسان العرب: ٤١٠/٣-٤١١. (٢٢) الطبري في تفسيره: ١٧٤/١٦.

(٢٣) لسان العرب: ٤١٠/٣-٤١١. (٢٤) مريم (٢٩). (٢٥) مريم (٢١).

(٢٦) آل عمران (٤٦). (٢٧) انظر: المائدة (١١٠) مريم (٢٩-٣٣).

(٢٨) البخاري (٤٧١٢) حدثنا محمد بن مقاتل.

- والترمذي (٢٤٣٤) أخبرنا سويد بن نصر.

- محمد بن مقاتل، وسويد بن نصر، كلاهما عن عبد الله بن المبارك.

- ومسلم (١٩٤) حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ومحمد بن عبد الله بن نمير، قالا: حدثنا محمد بن بشر.

- وأحمد في المسند (٩٣٤٠) حدثنا يحيى بن سعيد.

عبد الله بن المبارك، ومحمد بن بشر، ويحيى بن سعيد، كلهم عن أبي حيان التيمي، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، به.

(٢٩) آل عمران (٤٩). (٣٠) آل عمران (٥٠).

(٣١) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ٤٤١-٤٤٢. (٣٢) البداية والنهاية: ٤٦/٢.

(٣٣) لسان العرب: ٦٠٠/١١. (٣٤) النساء (١٥٦-١٥٧).

(٣٥) النساء (١٥٩). (٣٦) الأحكام في أصول الأحكام: ٥٨/٢.

(٣٧) معالم التنزيل للبغوي: ٣٥٢/١. (٣٨) عمدة القاري: ٢٤/١٦.

(٣٩) البخاري في صحيحه (٣٢٥٣) حدثنا مسلم بن إبراهيم.

42 19-11-2009.indd فيراطلا قعماج 1/4/2010 7:38:20 PM

- ومسلم في صحيحه (٢٥٥٠).
- وابن أبي الدنيا في: مجابوا الدعوة (١).

مسلم، وابن أبي الدنيا، كلاهما عن زهير بن حرب.

- وابن حبان في صحيحه (٦٤٨٩) أخبرنا مظهر بن يحيى بن ثابت بواسط الشيخ الصالح، حدثنا عبد الله بن إسحاق الناقد.

زهير بن حرب، وعبد الله بن إسحاق الناقد، كلاهما عن يزيد بن هارون.

- وأحمد في المسند (٨٠١٠) ثنا وهب بن جرير.
- وأحمد في المسند (٨٠١٠).
- وابن أبي حاتم في تفسيره (٣٥٢١، ٦٩٨٤) حدثنا أبو الصقر يحيى بن محمد بن قزعة.

أحمد بن حنبل، ويحيى بن محمد بن قزعة، كلاهما عن حسين بن محمد المروذي.

- والبيهقي في الشعب (٧٨٧٩) أخبرنا أبو الخير جامع بن أحمد الوكيل المحمد أبادي، من أصل سماعه، نا أبو طاهر محمد بن الحسن المحمد أبادي، نا عثمان ين سعيد الدارمي، نا موسى بن إسماعيل.

مسلم بن إبراهيم، ويزيد بن هارون، ووهب بن جرير، وحسين بن محمد المروزي، وموسى بن إسماعيل، كلهم عن جرير بن حازم، عن محمد بن سيرين.

- ومسلم (٢٥٥٠).
- والبيهقي في الشعب (٧٨٧٨) من طرق إلى أبي يعلى.

مسلم، وأبو يعلى، كلاهما عن شيبان بن فروخ.

- وأحمد في المسند (٩٣١٩) حدثنا يحيى بن سعيد.
- والبيهقي في الشعب (٧٨٧٨) من طرق إلى أبي يعلى، نا هدبة.

شيبان بن فروخ، ويحيى بن سعيد، وهدبة، كلهم عن سليمان بن المغيرة، نا حميد بن هلال.

- وأحمد في المسند (٨٧٦٨) حدثنا عفان، حدثنا حماد، أنبأنا ثابت.

حميد، وثابت، كلاهما عن أبي رافع.

- والطبراني في مسند الشاميين (١٢٩٢) حدثني عبد الله بن العباس بن الوليد بن مزيد البيروتي، حدثني أبي، أخبرني أبي، ثنا ابن شوذب، عن مطر الوراق، عن الحسن.

محمد بن سيرين، وأبو رافع، والحسن، كلهم عن أبي هريرة، به.

وليس عند الطبراني والبيهقي في الشعب (٧٨٧٨) سوى خبر جريج، وعند الطبراني في آخره: قال رسول الله ﷺ «فهو أحد الثلاثة الذين تكلموا في المهد».

ولفظ ابن أبي حاتم مختصر جداً.

وقال الدارقطني في العلل: ١٠/١٤: اختلف في رفعه، رواه جرير بن حازم، وعمران بن خالد، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة مرفوعاً، ورواه أيوب، ويونس بن عبيد، عن ابن سيرين موقوفاً، ورفعه صحيح، وكان ابن عون ربما وقف المرفوع.

وروه:

- الطبراني في الكبير: ١٨/٢٢٤ (٥٥٨) والأوسط (٧٤٩٨) حدثنا محمد بن شعيب الأصبهاني، ثنا عبد الرحمن بن سلمة الرازي، نا أبو زهير عبد الرحمن بن مغرا، قال: قال المفضل بن فضالة: تذاكرنا البر عند أبي حرب بن أبي السود الديلي، قال أبو حرب: تذاكرنا البر عند عمران بن حصين، فقال عمران بن حصين: تذاكرنا البر عند رسول الله ﷺ فأنشأ يُحدثنا، فذكره.

19-11-2009.indd 43 فيراطلا قعماج 1/4/2010 7:38:20 PM

لكن ليس فيه إلا ذكر جريج فقط، وفي آخره: فزعم أبو حرب، أنه لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى بن مريم، وشاهد يوسف، وصاحب جريج.

وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن مفضل بن فضالة، وهو أخو المبارك، إلا أبو زهير، لا يُروى عن عمران إلا بهذا الإسناد.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٤٥/٨: رواه الطبراني في الكبير، والأوسط، وفيه المفضل بن فضالة، وثقه ابن حبان، وغيره، وضعفه جماعة، فإسناده حسن.

(٤٠) ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٥٢٢) حدثنا أبي، ثنا أحمد بن شعيب الحراني، ثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن محمد بن شرحبيل، عن أبي هريرة، به.

(٤١) الحاكم في المستدرك: ٦٥٠/٢ (٤١٦١) حدثنا أبو الطيب محمد بن محمد الشعيري، حدثنا السري بن خزيمة، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا جرير بن حازم، حدثنا محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، به.

- وأبو الشيخ،كما في الدر المنثور: ١٩٩/٢.

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٤٢) أحمد في المسند (٢٨١٧).

- والحاكم في مستدركه: ٥٣٨/٢ (٣٨٣٥) ومن طريقه البيهقي في الشعب (١٦٣٦) حدثني محمد بن صالح بن هانئ، حدثنا الحسين بن الفضل البجلي.

أحمد بن حنبل، والحسين بن الفضل البجلي، كلاهما عن عفان بن مسلم.

- وأحمد في المسند (٢٨١٧).

- والطبراني في الكبير: ٤٥٠/١١ (١٢٢٧٩) ومن طريقه الضياء في المختارة: ٢٧٧/١٠ (٢٩١) ثنا أبو مسلم الكشي.

أحمد، وأبو مسلم الكشي، كلاهما عن أبي عمر الضرير حفص بن عمر.

- وأحمد في المسند (٢٨١٧) حدثنا حسن بن موسى.

- وأحمد في المسند (٢٨١٧).

- وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٢٥١٧) ومن طريق الضياء في المختارة: ٢٧٥/١٠ (٢٨٨).

-وابن حبان في صحيحه (٢٩٠٤) أخبرنا الحسن بن سفيان.

أحمد، وأبو يعلى، والحسن بن سفيان، كلهم عن هدبة بن خالد.

- وابن حبان في صحيحه (٢٩٠٣) أخبرنا جعفر بن محمد بن صليح بواسط، حدثنا عبد الحميد بن بيان السكري، حدثنا يزيد بن هارون.

- والطبري في تفسيره: ١٩٣/١٢: حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا العلاء بن عبد الجبار.

- والطبراني في الكبير: ٤٥٠/١١ (١٢٢٧٩) ومن طريقه الضياء في المختارة: ٢٧٧/١٠ (٢٩١) حدثنا أبو معن ثابت بن نعيم الهوجي، ثنا آدم بن أبي إياس، وحدثنا محمد بن النضر الأزدي، ثنا أبو نصر التمار.

عفان بن مسلم، وأبو عمر الضرير، وحسن بن موسى، وهدبة بن خالد، ويزيد بن هارون، والعلاء بن عبد الجبار، وآدم بن أبي إياس، وأبو نصر التمار، كلهم عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به.

قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقال ابن كثير في تفسيره: ١٦/٣: إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٦٥/١: رواه أحمد، والبزار، والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عطاء بن السائب، وهو ثقة، لكنه اختلط.

وجاء عند الحاكم أن هذا من كلام النبي ﷺ وعند الطبري (تكلم أربعة في المهد، وهم صغار).

44 19-11-2009.indd فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:21 PM

(٤٣) الطبري في تفسيره: ١٩٣/١٢: حدثنا أبو كريب، قال: ثنا وكيع، عن أبي بكر الهذلي، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة، به.

(٤٤) غريب الحديث للخطابي: ٢٥٢/١. (٤٥) أحمد (٩٣١٩). (٤٦) مسلم (٢٥٥٠).

(٤٧) أحمد (٨٧٦٨). (٤٨) الطبراني في الكبير: ١٨ (٥٥٨) والأوسط (٧٤٩٨).

(٤٩) الطبراني في مسند الشاميين (١٢٩٢). (٥٠) مسلم (٢٥٥٠).

(٥١) عبد الرزاق في المصنف (٢٠١٢٧). (٥٢) فتح الباري: ٤٨١/٦.

(٥٣) أحمد (٩٣١٩). (٥٤) الطبراني في مسند الشاميين (١٢٩٢).

(٥٥) عبد الرزاق في المصنف (٢٠١٢٧). (٥٦) مسلم (٢٥٥٠).

(٥٧) الحكيم الترمذي في نوادر الأصول: ٦/٤. (٥٨) سيأتي تخريجه.

(٥٩) مسلم (٢٥٥٠). (٦٠) الطبراني في الكبير: ١٨ (٥٥٨) والأوسط (٧٤٩٨).

(٦١) الطبراني في مسند الشاميين (١٢٩٢).

(٦٢) الحكيم الترمذي في نوادر الأصول: ٦/٤، تنبيه الغافلين: ٦٩١/٢.

(٦٣) أحمد (٨٧٦٨). (٦٤) تنبيه الغافلين: ٦٩١/٢. (٦٥) مسلم (٢٥٥٠).

(٦٦) الحكيم الترمذي في نوادر الأصول: ٦/٤.

(٦٧) الطبراني في مسند الشاميين (١٢٩٢). (٦٨) مسلم (٢٥٥٠).

(٦٩) الطبراني في الكبير: ١٨ (٥٥٨) والأوسط (٧٤٩٨) وأحمد (٨٧٦٨).

(٧٠) مسلم (٢٥٥٠). (٧١) مسلم (٢٥٥٠). (٧٢) أحمد (٨٧٦٨).

(٧٣) فتح الباري: ٤٨٢/٦. (٧٤) البخاري في الأدب المفرد (٣٣). (٧٥) مسلم (٢٥٥٠).

(٧٦) فتح الباري: ٤٨١/٦. (٧٧) تنبيه الغافلين: ٦٩١/٢.

(٧٨) ابن المبارك في البر والصلة، من مرسل الحسن، كما في فتح الباري: ٤٨١/٦.

(٧٩) تنبيه الغافلين: ٦٩١/٢. (٨٠) مسلم (٢٥٥٠). (٨١) مسلم (٢٥٥٠).

(٨٢) البخاري (١٢٠٦). (٨٣) الحكيم الترمذي في نوادر الأصول: ٦/٤.

(٨٤) غوامض الأسماء المبهمة: ٥٦٩/٢. (٨٥) البخاري في الأدب المفرد (٣٣).

(٨٦) فتح الباري: ٤٨٢/٦. (٨٧) الطبراني في الكبير: ١٨ (٥٥٨) والأوسط (٧٤٩٨).

(٨٨) تنبيه الغافلين: ٦٩١/٢. (٨٩) تنبيه الغافلين: ٦٩١/٢. (٩٠) فتح الباري: ٤٨٢/٦.

(٩١) غوامض الأسماء المبهمة: ٥٦٩/٢. (٩٣) فتح الباري: ٤٨٢/٦.

(٩٤) فتح الباري: ٤٨٢/٦. (٩٥) البخاري في الأدب المفرد (٣٣).

(٩٦) فتح الباري: ٤٨٠/٦. (٩٧) فتح الباري: ٤٨٠/٦.

(٩٨) شرح مسلم للنووي: ١٠٥/١٦، فتح الباري: ٧٨/٣، ٤٨١/٦.

(٩٩) فتح الباري: ٧٨/٣. (١٠٠) شرح مسلم: ١٠٦/١٦. (١٠١) فتح الباري: ٤٨٠/٦.

(١٠٢) فتح الباري: ٤٨٢/٦. (١٠٣) فتح الباري: ٧٨/٣. (١٠٤) شرح مسلم: ١٠٥/١٦.

(١٠٥) فتح الباري: ٤٨٢/٦. (١٠٦) فتح الباري: ٤٨٢/٦-٤٨٣.

(١٠٧) البيهقي في شعب الإيمان (٧٨٨٠) أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أنا أحمد بن عبيد الصفار.

- الخطيب في تاريخ بغداد: ٣/١٣: أخبرنا أبو الحسن محمد بن الحسين بن أبي سليمان الحراني، أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان.

أحمد بن عبيد الصفار، وأحمد بن جعفر بن حمدان، كلاهما عن أبي العباس محمد بن يونس بن موسى القرشي، حدثنا الحكم بن الريان اليشكري، حدثنا ليث بن سعد، حدثني يزيد بن حوشب الفهري، به.

19-11-2009.indd 45 فىراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:21 PM

- والحسن بن سفيان، كما في فتح الباري: ٨٧/٣، ٤٨٢/٦.
قال البيهقي: هذا إسناد مجهول.
وقال ابن حجر بعد أن ذكره في الفتح: ٧٨/٣: ويزيد هذا مجهول.
وانظر: نوادر الأصول للحكيم الترمذي: ٧٩/٢، ٢٢٤/٢، ٨/٤.
(١٠٨) فتح الباري: ٧٨/٣. (١٠٩) فتح الباري: ٧٨/٣. (١١٠) شرح مسلم: ١٠٥/١٦.
(١١١) فتح الباري: ٤٨٢/٦. (١١٢) انظر: شرح مسلم: ١٠٨/١٦. (١١٣) المصدر السابق.
(١١٤) عمدة القاري: ٣٩/١٣. (١١٥) الحديد (٢٧).
(١١٦) البخاري (٣٤٦٦) حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب.
- وابن حبان في صحيحه (٦٤٨٨) أخبرنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم مولى ثقيف، حدثنا محمد بن رافع، حدثنا شبابة، حدثني ورقاء.
شعيب، وورقاء، كلاهما عن أبي الزناد، عن عبد الرحمن.
- وأحمد في المسند (٩١٢٤) ثنا هوذة، قال: ثنا عوف، عن خلاس بن عمر الهجري.
عبد الرحمن، وخلاس، كلاهما عن أبي هريرة، به.
وانظر تمام تخريجه في حديث جريج الذي قبل هذا.
(١١٧) البخاري (٣٤٣٦). (١١٨) البخاري (٣٤٣٦) ومسلم (٢٥٥٠).
(١١٩) البخاري (٣٤٣٦) ومسلم (٢٥٥٠).
(١٢٠) أبو يعلى في مسنده (٦٢٨٩) وابن حبان (٦٤٨٨).
(١٢١) أحمد في المسند (٣٣١٩). (١٢٢) أحمد في المسند (٩١٢٤).
(١٢٣) مسلم (٢٥٥٠) وأحمد في المسند (٨٠٥٧). (١٢٤) أحمد في المسند (٩١٢٤).
(١٢٥) الترمذي في سننه (٢٣٢٥) وأحمد في المسند (١٧٥٧٠) وقال الترمذي: حسن صحيح.
(١٢٦) شرح مسلم: ١٠٨/١٦. (١٢٧) مسلم (٢٩٩٩) وأحمد في المسند (١٨٤٥٥، ١٨٤٦٠).
(١٢٨) الترمذي (٢٤٠٢) وقال: غريب. (١٢٩) فتح الباري: ٤٨٤/٦.
(١٣٠) البخاري (٤٥٦٤). (١٣١) التوبة (١٢٩). (١٣٢) أبو داود (٥٠٨١).
(١٣٣) أبو داود (٣٦٢٧) وأحمد في المسند (٢٣٤٦٣).
(١٣٤) مسلم (٣٠٠٥).
- وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٨٧).
- وابن حبان في صحيحه (٨٧٣) أخبرنا الحسن بن سفيان.
مسلم، وابن أبي عاصم، والحسن بن سفيان، كلهم عن هداب بن خالد. وعند ابن أبي عاصم، وابن حبان: هدبة بن خالد، وكلاهما واحد.
- والنسائي في الكبرى (١١٦٦١) أنا أحمد بن سليمان.
- وأحمد في المسند (٢٣٩٧٦).
- والبزار في مسنده (البحر الزخار (٢٠٩٠) حدثنا عمرو بن علي.
- والبيهقي في الشعب (١٦٣٤) أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا محمد بن إسحاق الصنعاني.
أحمد بن سليمان، وأحمد بن حنبل، وعمرو بن علي، ومحمد بن إسحاق الصنعاني، كلهم عن عفان بن مسلم.
- والطبري في تفسيره: ١٣٣/٣٠: حدثني محمد بن معمر، قال: ثني حرمي بن عمارة.
- والطبراني في الكبير: ٤٣/٨ (٧٣٢٠) حدثنا محمد بن محمد التمار البصري، ثنا علي بن عثمان اللاحقي.

19-11-2009.indd 46 فىاطلا قعماح 1/4/2010 7:38:21 PM

هداب بن خالد، وعفان بن مسلم، وحرمي بن عمارة، وعلي بن عثمان، كلهم عن حماد بن سلمة.
- والترمذي (٣٣٤٠) حدثنا محمود بن غيلان، وعبد بن حميد، المعنى واحد، قالا: حدثنا عبد الرزاق، عن معمر.
حماد بن سلمة، ومعمر، كلاهما عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى.
- وابن أبي شيبة في مسنده (٤٩١) نا أحمد بن عبد الله، أنا هشيم، أنا عبد الحميد بن جعفر، عن الحسين بن محمد الأنصاري، عن رجل من النمر بن قاسط.
عبد الرحمن بن أبي ليلى، والرجل من النمر بن قاسط، كلاهما عن صهيب بن سنان، به.
ورواه عبد بن حميد، وابن مردوية، كما في الدر المنثور: ٤٦٩/٨، وطريق عبد بن حميد تقدم في الترمذي.
(١٣٥) شرح مسلم: ٣٣٠/١٨-٣٣١. (١٣٦) الترمذي (٣٣٤٠).
(١٣٧) البغوي في تفسيره: ٤٦٩/٤، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٨٧/٢٢.
(١٣٨) رواه الطبري في تفسيره: ١٣٢/٣٠. (١٣٩) رواه الطبري في تفسيره: ١٣٢/٣٠.
(١٤٠) رواه الطبري في تفسيره: ١٣٢/٣٠. (١٤١) رواه الطبري في تفسيره: ١٣٢/٣٠.
(١٤٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٨٥/٢٢. (١٤٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٨٧/٢٢.
(١٤٤) الماوردي في النكت والعيون: ٢٤٢/٦، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٨٧/٢٢.
(١٤٥) القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٨٩/٢٢.
(١٤٦) القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٨٩/٢٢.
(١٤٧) شرح مسلم: ٣٣٠/١٨-٣٣١، النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/١.
(١٤٨) شرح مسلم: ٣٣٠/١٨-٣٣١. (١٤٩) العنكبوت (٦٩).
(١٥٠) الجامع لأحكام القرآن: ١٩١/٢٢. (١٥١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٤٣٥/١٢.
(١٥٢) أحكام القرآن: ١٩١٦/٤، وينظر: أحكام القرآن له: ١١٦٥/٣. (١٥٣) لقمان (١٧).
(١٥٤) الترمذي (٢١٧٤) ورواه أبو داود (٤٣٤٤) وابن ماجة (٤٠١١) وأحمد في المسند (١٠٧٥٩، ١١١٩٣).
وروي من حديث أبي أمامة عند ابن ماجة (٤٠١٢) وأحمد في المسند (٢١٦٥٤، ٢١٧٠٤) والدارمي في سننه (١٧٨٥).
ومن حديث طارق بن شهاب عند أحمد في المسند (١٨٣٤٩، ١٨٣٥١) والنسائي (٤٢٠٩).
(١٥٥) ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٤٤٧) والطبراني في الكبير: ٢٤ (٤٧٩).
- وروي من حديث أم أيمن عند عبد بن حميد (١٥٩٤) وانظر: الإصابة: ١٤١/١٢.
(١٥٦) روى قصتهما البخاري في صحيحه (٣٠٤٥، ٣٣٨٩، ٤٠٨٦، ٧٤٠٢) وأحمد في المسند (٧٨٦٩، ٨٠٣٥).
(١٥٧) الجامع لأحكام القرآن: ١٩٢/٢٢، وانظر: المفهم شرح صحيح مسلم: ٤٢٦/٧.
(١٥٨) أحكام القرآن: ١١٧٩/٣. (١٥٩) الجامع لأحكام القرآن: ٤٤٤/١٢.
(١٦٠) مجموع الفتاوى: ٥٤٠/٢٨، الفتاوى الكبرى: ٥٤٤/٣، وانظر: الاستقامة له: ٣٣٢/٢.
(١٦١) الفروسية المحمدية: ٢٦٣، وانظر: زاد المعاد: ١٨٩/٣.
(١٦٢) الصف (٥). (١٦٣) النساء (١٥٥).
(١٦٤) أحمد في المسند (٢٨١٧).
- والحاكم في مستدركه: ٥٣٨/٢ (٣٨٣٥) ومن طريقه البيهقي في الشعب (١٦٣٦) حدثني محمد بن صالح بن هانئ، حدثنا الحسين بن الفضل البجلي.
أحمد بن حنبل، والحسين بن الفضل البجلي، كلاهما عن عفان بن مسلم.
- وأحمد في المسند (٢٨١٧).
- والطبراني في الكبير: ٤٥٠/١١ (١٢٢٧٩) ومن طريقه الضياء في المختارة: ٢٧٧/١٠ (٢٩١) ثنا أبو مسلم الكشي.
أحمد، وأبو مسلم الكشي، كلاهما عن أبي عمر الضرير حفص بن عمر.

19-11-2009.indd 47 فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:21 PM

- وأحمد في المسند (٢٨١٧) حدثنا حسن بن موسى.
- وأحمد في المسند (٢٨١٧).
- وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٢٥١٧) ومن طريقه الضياء في المختارة: ٢٧٥/١٠ (٢٨٨) والذهبي في سير أعلام النبلاء: ١١٣/٦.
- وابن حبان في صحيحه (٢٩٠٤) أخبرنا الحسن بن سفيان.

أحمد، وأبو يعلى، والحسن بن سفيان، كلهم عن هدبة بن خالد.

- وابن حبان في صحيحه (٢٩٠٣) أخبرنا جعفر بن محمد بن صليح بواسط، حدثنا عبد الحميد بن بيان السكري، حدثنا يزيد بن هارون.
- والطبراني في الكبير: ٤٥٠/١١ (١٢٢٧٩) ومن طريقه الضياء في المختارة: ٢٧٧/١٠ (٢٩١) حدثنا أبو معن ثابت بن نعيم الهوجي، ثنا آدم بن أبي إياس، وحدثنا محمد بن النضر الأزدي، ثنا أبو نصر التمار.

عفان بن مسلم، وأبو عمر الضرير، وحسن بن موسى، وهدبة بن خالد، ويزيد بن هارون، وآدم بن أبي إياس، وأبو نصر التمار، كلهم عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به.

قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقال ابن كثير في تفسيره: ١٦/٣: إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٦٥/١: رواه أحمد، والبزار، والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عطاء بن السائب، وهو ثقة، لكنه اختلط. وانظر: تاريخ دمشق لابن عساكر: ٤٢٠/١٦.

(١٦٥) ابن ماجة (٤٠٣٠) حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، به.

- ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٤١٩/١٦ في ترجمة الخضر مطولاً، من طريق إبي بكر بن أبي داود، نا حسين بن علي بن مهران، نا عامر بن فرات، عن أسباط، عن السدي، به.

قال البوصيري: هذا إسناد فيه مقال، سعيد بن بشير قال البخاري: يتكلمون في حفظه، وهو يحتمل، وضعفه ابن معين، وأبو مسهر، وتركه ابن مهدي.

(١٦٦) ابن حبان (٢٩٠٣). (٦٧) الحاكم في مستدركه: ٥٣٨/٢ (٣٨٣٥).

(١٦٨) ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٤٢٠/١٦.

(١٦٩) النهاية في غريب الحديث:١٤٥/١، القاموس المحيط: ١٤٧/٢، لسان العرب: ٧٤/٤.

(١٧٠) فتح الباري: ٤٨٠/٦، فيض القدير: ٢٩٤/٥.

(١٧١) سبل الهدى والرشاد: ٣٤٩/١، وانظر: روح المعاني للألوسي: ٧٢٢/٢١، فقد عزى هذا النظم للسيوطي.

(١٧٢) فيض القدير: ٢٩٤/٥. (١٧٣) انظر: معالم التنزيل: ٣٨/٢. (١٧٤) يوسف (٢٦-٢٨).

(١٧٥) الطبري في تفسيره: ١٩٤/١٢: حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، به.

-وابن أبي حاتم في تفسيره (١١٥٠٣) حدثنا أبو سعيد الأشج، ثنا عبدة بن سليمان، عن أبي سعد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس، به.

- وأبو الشيخ، كما في الدر المنثور: ٥٢٥/٤.

وقال ابن حجر في فتح الباري: ٤٨٠/٦: سنده ضعيف.

(١٧٦) الطبري في تفسيره: ١٩٣/١٢: حدثنا ابن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا زائدة.

- والطبري في تفسيره: ١٩٣/١٢: حدثنا ابن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا إسرائيل.
- والطبري في تفسيره: ١٩٣/١٢: حدثني محمد بن عبيد المحاربي، قال: ثنا أيوب بن جابر.

48 فيراطلا قعماج 19-11-2009.indd 1/4/2010 7:38:21 PM

– والطبري في تفسيره: ١٩٣/١٢: حدثني يحى بن طلحة اليربوعي، قال: ثنا أبو بكر بن عياش.
زائدة، وإسرائيل، وأيوب بن جابر، وأبو بكر بن عياش، كلهم عن أبي حصين.
– والطبري في تفسيره: ١٩٤/١٢: حدثنا أبو كريب، قال: ثنا وكيع، وحدثنا ابن وكيع، قال: ثنا أبي، عن شريك، عن سالم.
أبو حصين، وسالم، كلاهما عن سعيد، به.
– وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، كما في الدر المنثور: ٥٢٦/٤.
(١٧٧) الطبري في تفسيره: ١٩٤/١٢: حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا ابن إدريس، عن حصين، عن هلال، به.
(١٧٨) الطبري في تفسيره: ١٩٤/١٢: حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا عمرو بن محمد، عن أبي مرزوق، عن جويبر، عن الضحاك، به.
(١٧٩) الطبري في تفسيره: ١٩٤/١٢: حدثت عن الحسين بن الفرج، قال: سمعت أبا معاذ يقول: ثنا عبيد بن سليمان، قال: سمعت الضحاك، به.
(١٨٠) تفسير ابن كثير: ٤٧٧/٢.
(١٨١) عبد الرزاق في تفسيره: ٣٢٢/٢.
– والطبري في تفسيره: ١٩٤/١٢: حدثنا أبو كريب، قال: ثنا وكيع، وحدثنا ابن وكيع، قال: ثنا أبي.
عبد الرزاق، ووكيع، كلاهما عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس، به.
(١٨٢) الطبري في تفسيره: ١٩٤/١٢: حدثنا أبو كريب، قال: ثنا وكيع، وحدثنا ابن وكيع، قال: ثنا أبي، عن سفيان، عن جابر، عن ابن أبي مليكة، ابن عباس، به.
(١٨٣) الطبري في تفسيره: ١٩٤/١٢: حدثنا أبو كريب، قال: ثنا وكيع، وحدثنا ابن وكيع، قال: ثنا أبي.
– والطبري في تفسيره: ١٩٤/١٢: حدثنا ابن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن.
وكيع، وعبد الرحمن، كلاهما عن سفيان.
– والطبري في تفسيره: ١٩٤/١٢: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا جرير.
سفيان، وجرير، كلاهما عن منصور، عن مجاهد، به.
(١٨٤) عبد الرزاق في تفسيره: ٣٢٢/٢: عن معمر، عن قتادة، به.
(١٨٥) الطبري في تفسيره: ١٩٤/١٢: حدثنا ابن وكيع، قال: حدثنا أبي.
– والطبري في تفسيره: ١٩٤/١٢: حدثنا سوار بن عبد الله، قال: ثنا عبد الملك بن الصباح.
وكيع، وعبد الملك بن الصباح، كلاهما عن عمران بن حدير، سمع عكرمة، به.
(١٨٦) الطبري في تفسيره: ١٩٦/١٢: ثنا حفص، عن ليث، عن مجاهد، به.
(١٨٧) تفسير ابن كثير: ٤٧٧/٢. (٨٨) الطبري في تفسيره: ١٩٦/١٢.
(١٨٩) فتح الباري: ٤٨٠/٦، تخريج أحاديث الكشاف: ١٦٣/٢، عمدة القاري: ٢٨٤/٧، الفتح السماوي للمناوي: ٧٣١/٢.
(١٩٠) عمدة القاري: ٣٩/١٣. (١٩١) فيض القدير: ٢٩٤/٥.
(١٩٢) سبل الهدى والرشاد: ٣٤٩/١، وانظر: روح المعاني للألوسي: ٧٢٢/٢١، فقد عزى هذا النظم للسيوطي.
(١٩٣) فيض القدير: ٢٩٤/٥.
(١٩٤) سبل الهدى والرشاد: ٣٤٩/١، وانظر: روح المعاني للألوسي: ٧٢٢/٢١، فقد عزى هذا النظم للسيوطي.
(١٩٥) فيض القدير: ٢٩٤/٥.
(١٩٦) الأصبهاني في دلائل النبوة: ٢٢٩/١ (٣٣٨) أخبرنا حكيم بن أحمد الإسفرائيني، أنا جدي أبو الحسن الإسفرائيني.
– وأبو عثمان الصابوني في المأتين، كما في الخصائص للسيوطي: ٥٣/١، وكنز العمال (٣١٨٢٨) ومن طريقه ابن عساكر

19-11-2009.indd 49 فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:21 PM

في تاريخ دمشق: ٣٥٩/٤: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن علي بن الطيب.

- والخطيب البغدادي في التاريخ، كما في الخصائص للسيوطي: ٥٣/١، وكنز العمال (٣١٨٢٨) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٣٥٩/٤: من طريق أبي الحسن بن علي بن أبي بكر الطرازي.

- والبيهقي في دلائل النبوة، كما في الخصائص للسيوطي: ٥٣/١، وكنز العمال (٣١٨٢٨) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٣٥٩/٤: أنا أبو عبد الله الحافظ.

أبو الحسن الإسفرائيني، وعبد الله بن أحمد بن علي بن الطيب، أبو الحسن بن علي بن أبي بكر الطرازي، وأبو عبد الله الحافظ، كلهم عن أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم، نا أحمد بن شيبان، نا أحمد بن إبراهيم الحلبي، نا الهيثم بن جميل، نا زهير، عن محارب بن دثار، عن عمرو بن يثربي، عن العباس، به.

-والطبراني، كما في سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: ٣٤٩/١.

قال البيهقي كما في خصائص السيوطي: تفرد به أحمد بن إبراهيم الحلبي، وهو مجهول، وقال الصابوني كما في خصائص السيوطي أيضاً: هذا حديث غريب الإسناد والمتن، في المعجزات حسن.

وفي سياق ابن عساكر (تحت العرش) ولم أجده في المصادر التي عزوت إليها بواسطة.

(١٩٧) النهاية في غريب الحديث: ٨٨/٥، سبل الهدى والرشاد: ٣٤٩/١.

(١٩٨) فتح الباري: ٤٨٠/٦. (١٩٩) الخصائص الكبرى: ٥٣/١.

(٢٠٠) دلائل النبوة: ١٣٩/١: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، قال: حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن يوسف العماني، قال: حدثنا محمد بن زكريا الغلابي، حدثنا يعقوب بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، قال: حدثني أبي، عن أبيه، سليمان بن علي، عن أبيه، علي بن عبد الله بن عباس، عن عبد الله بن عباس، به.

(٢٠١) ابن قانع في معجم الصحابة: ١٣٤/٣-١٣٥، ومن طريقه السلفي في الطيوريات (٤٦٥).

- والخطيب في تاريخ بغداد: ٤٤٢/٣، ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال: ٧٢/٢٧-٧٣: من طريق أبي عمر محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم.

- والبيهقي في دلائل النبوة: ٥٩/٦: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان، حدثنا أحمد بن عبيد الصفار.

- والسلفي في الطيوريات (٤٦٥) حدثنا أبو عبد الله عثمان بن أحمد بن جعفر العجلي، حدثنا ابن المجدر، وأبو سهل بن زياد القطان.

عبد الباقي بن قانع، ومحمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم، وأحمد بن عبيد الصفار، وابن المجدر، وأبو سهل بن زياد القطان، كلهم عن محمد يونس بن موسى بن كديم الكديمي.

- وابن النجار في تاريخه، كما في البيان والتعريف للحسيني: ٨٠/٢: من طريق محمد بن يونس الكديمي.

- وابن جميع الصيداوي في معجم شيوخه: ٣٥٤، ومن طريقه الخطيب في تاريخ بغداد: ٤٤٤/٣، والبيهقي في دلائل النبوة: ٥٩/٦: حدثنا العباس بن محبوب بن عثمان بن شاصونة بن عبيد، حدثني أبي.

- والحاكم في الإكليل، كما في الإصابة: ١٨٠/٦: من طريق العباس بن محبوب بن عثمان، حدثني أبي.

محمد بن يونس الكديمي، ومحبوب بن عثمان، كلاهما عن شاصونة بن عبيد أبو محمد اليمامي، قال: حدثني معرض بن عبد الله، به.

قال ابن السكن كما في الإصابة: ١٨٠/٦، في ترجمة معرض بن معيقيب: له حديث في أعلام النبوة لم أجده إلا عند الكديمي، عن شيخ مجهول، فلم أتشاغل بتخريجه.

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: ١٦٦/٦، بعد أن ساقه عن البيهقي بهذا الإسناد: هذا الحديث مما تكلم الناس في محمد بن يونس الكديمي بسببه، وأنكروه عليه، واستغربوا شيخه هذا... على أنه روي هذا الحديث من غير طريق الكديمي، إلا أنه بإسناد غريب أيضاً. ثم أورد ابن كثير هذا الحديث من الطريق الأخرى التي ذكرتها.

50 19-11-2009.indd فيراطلا فغماح 1/4/2010 7:38:21 PM

قلت: محمد بن يونس الكديمي، متهم بوضع الحديث، بل كذبه بعضهم.

قال ابن عدي: كان مع وضعه للحديث وادعائه مشايخ لم يكتب عنهم، يخلق لنفسه شيوخاً حتى كان يقول: حدثنا شاصويه بن عبيد، منصرفنا من عدن أبين، فذكر عنه حديثاً. الكامل: ٦/٢٩٤، وانظر: المجروحين لابن حبان: ٢/٣١٢-٣١٣، تاريخ بغداد: ٣/ ميزان الاعتدال: ٤/٧٤.

ومحبوب بن عثمان بن شاصونة، مجهول كما في اللسان: ٥/١٧.

ومعرض، وشيخه مجهولان، وكذلك شاصوية، قاله ابن حجر، كما في الإصابة: ٦/١٨٠، ولسان الميزان: ٥/١٧.

قال البيهقي بعد أن ساقه من الطريقين المتقدم ذكرهما:ولهذا الحديث أصل من حديث الكوفيين بإسناد مرسل، بخلافه في وقت الكلام، أخبرنا أبو القاسم زيد بن أبي هاشم العلوي بالكوفة، أنبأنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم، حدثنا إبراهيم بن عبد الله العبسين أنبانا وكيع بن الجراح، عن الأعمش، عن شمر بن عطية، عن بعض أشياخه، أن النبي ﷺ أُتي بصبي قد شبّ لم يتكلم قط، قال: «من أنا؟» قال: أنت رسول الله. وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بكير، عن الأعمش، عن شمر بن عطية، عن بعض أشياخه، قال: جاءت امرأة بابن لها إلى رسول الله ﷺ قد تحرك، فقالت: يارسول الله إن ابني هذا لم يتكلم منذ ولد، فقال رسول الله ﷺ «ادنيه» فأدنته منه، فقال: «من أنا؟» فقال: أنت رسول الله.

وعلى كل حال فالحديث لا يُفرح بثبوته، والله تعالى أعلم.

(٢٠٢) فتح الباري: ٦/٤٨٠.

المصادر والمراجع

-الآحاد والمثاني، لأحمد بن عمر بن الضحاك ابن أبي عاصم، تحقيق د باسم الجوابرة، ط الأولى، ١٤١١، دار الراية، الرياض.

-الأحاديث المختارة، للمقدسي، تحقيق عبد الملك بن دهيش، ط الأولى، ١٤١٠، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.

-أحكام القرآن، لابن العربي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة.

-الأدب المفرد، للبخاري، المطبوع مع فضل الله الصمد، ترقيم محب الدين الخطيب، ط الثالثة ١٤٠٧، دار الريان للتراث.

-الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، تحقيق على محمد البجاوي، الأولى، ١٤١٢، دار الجيل، بيروت.

-البداية والنهاية، لابن كثير، دقق أصوله: دكتور أحمد أبو ملحم، وزملاؤه، ط الأولى، ١٤٠٥، دار الكتب العلمية.

-البيان والتعريف، لأبي حمزة الحسيني، تحقيق سيف الدين الكاتب، ١٤٠١، دار الكتاب العربي، بيروت.

-تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

-تاريخ دمشق، لابن عساكر، تحقيق العمري، ١٩٩٥، دار الفكر، بيروت.

-تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.

-تفسير الطبري، ١٤٠٥، دار الفكر، بيروت.

-تفسير عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق د. مصطفى مسلم محمد، الأولى، ١٤١٠، مكتبة الرشد، الرياض.

-تفسير ابن كثير، ١٤٠١، دار الفكر، بيروت.

-تنبيه الغافلين، نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، ط الرابعة، ١٤١٠، دار الشروق.

-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، مؤسسة الرسالة.

-الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة ويي الفرقان، للقرطبي، تحقيق د. عبد الله التركي، ط الأولى، ١٤٢٧، مؤسسة الرسالة.

19-11-2009.indd 51 فىراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:21 PM

-الخصائص الكبرى، للسيوطي، دار الكتاب العربي.
-الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، ١٩٩٣، دار الفكر، بيروت.
-دلائل النبوة، للأصبهاني، تحقيق محمد الحداد، الأولى، ١٤٠٩، دار طيبة، الرياض.
-دلائل النبوة للبيهقي، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، ط الأولى ١٤٠٨، دار الريان للتراث، القاهرة.
-سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق عادل عبد الموجود، وزميله، ط الأولى ١٤١٤، دار الكتب العلمية.
-سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، ١٤٠٨، دار الكتب العلمية، بيروت.
-سنن أبي داود، لأبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية.
-السنن الكبرى، للنسائي، تحقيق د. عبد الغفار البنداري، وزميله، ط الأولى، ١٤١١، دار الكتب العلمية، بيروت.
-سنن ابن ماجة، لابن ماجة، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث.
-سنن النسائي بشرح السيوطي، وحاشية السندي، أحمد بن شعيب النسائي، حققه مكتب تحقيق التراث الإسلامي، ط الثانية، ١٤١٢، دار المعرفة بيروت، توزيع مكتبة المؤيد.
-شرح مسلم، للنووي، المطبوع مع صحيح مسلم، بتحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، ١٤١٤، دار المعرفة، مكتبة المؤيد.
-شعب الإيمان، للبيهقي، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد زغلول، ط الأولى ١٤١٠، دار الكتب العلمية.
-صحيح البخاري، للبخاري، المطبوع مع فتح الباري، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر.
-صحيح ابن حبان، لابن حبان، (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لابن بلبان) حققه شعيب الأرناؤوط، ط الولى ١٤١٢، مؤسسة الرسالة.
-صحيح مسلم، للإمام مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.
-الطيوريات، للسلفي، تحقيق دسمان يحيى معالي، وزميله، الأولى، ١٤٢٥، أضواء السلف.
-العلل الواردة في الأحاديث النبوية، للدارقطني، تحقيق د. محفوظ الرحمن السلفي، الأولى، ١٤٠٥، دار طيبة، الرياض.
-عمد القاري شرح صحيح البخاري، للعيني، دار إحياء التراث، بيروت.
-غريب الحديث، للخطابي، تحقيق عبد الكريم العزباوي، ١٤٠٢، جامعة أم القرى.
-غوامض الأسماء المبهمة، لابن بشكوال، تحقيق د. عز الدين السيد، وزميله، الأولى، ١٤٠٧، عالم الكتب، بيروت.
-فتح الباري شرح صحيح البخاري، تصحيح سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، رقم كتبه وأبوابه: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية، دار الفكر.
-الفتح السماوي، للمناوي، تحقيق أحمد مجتبى، دار العاصمة، الرياض.
-الفروسية المحمدية، لابن القيم، تحقيق زايد بن أحمد النشيري، ط الأولى ١٤٢٨، دار عالم الفوائد.
-فيض القدير، للمناوي، الأولى، ١٣٥٦، المكتبة التجارية، مصر.
-لسان العرب، لابن منظور، الأولى، دار صادر، بيروت.
-مجابوا الدعوة، لابن أبي الدنيا.
-مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين الهيثمي، ط الثالثة، ١٤٠٢، دار الكتاب العربي، بيروت.
-مجموع الفتاوى، ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦.
-المستدرك، للحاكم، إشراف د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت.
-مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، مصر.
-مسند البزار، البحر الزخار، للبزار، حققه د. محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم.
-مسند الشاميين، للطبراني، تحقيق حمدي السلفي، ط الأولى، ١٤٠٥، دار الرسالة.

52 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:21 PM

-مسند ابن أبي شيبة، تحقيق عادل العزازي، وزميله، ١٩٩٧، دار الوطن، الرياض.
-مسند أبي يعلى الموصلي، لأبي يعلى، تحقيق إرشاد الحق الأثري، ط الأولى ١٤٠٨، دار القبلة، ومؤسسة علوم القرآن.
-مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة، للبوصيري، تحقيق موسى محمد علي وزميله، دار الكتب الحديثة.
-المصنف، لعبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط الثانية ١٤٠٣، المكتب الإسلامي.
-معالم التنزيل، للبغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر وزملائه، ط الأولى ١٣٢٤، دار طيبة.
-المعجم الأوسط، للطبراني، قسم التحقيق بدار الحرمين، ١٤١٥، دار الحرمين بالقاهرة.
-معجم الصحابة، لابن قانع، تحقيق صلاح بن سالم المصراتي، الأولى، ١٤١٨، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة.
-المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
-معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تقيق عبد السلالام هارون، دار الفكر.
-نوادر الأصول، للحكيم الترمذي، تحقيق عبد الرحمن عميرة، ١٩٩٢، دار الجيل، بيروت.
-النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت.

19-11-2009.indd 53 فىاطلا ةغمح 1/4/2010 7:38:21 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 54 1/4/2010 7:38:21 PM

تصرفات الأب في مال الابن
في فقه المذاهب الأربعة

د. عبد الله بن عيضه المالكي

أستاذ الفقه المساعد - جامعة الطائف

تصرفات الأب في مال الابن في فقه المذاهب الأربعة.indd 55 19-11-2009

1/4/2010 7:38:21 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 56 1/4/2010 7:38:21 PM

الملخص

هذه الدراسة في تصرفات الأب في مال الابن في نظر المذاهب الفقهية الأربعة، وهذا التصرف مبني على الولاية التي هي:

تنفيذ القول على الغير شاء الغير أو أبى. وهي نوعان :

أ- ولاية على النفس.

ب- ولاية على المال، ولكل منهما شروط،

فالآباء نختلف طباعهم وأخلاقهم :

١- فمنهم من يحسن التربية وهو مأمون.

٢- ومنهم من يسيء التربية وهو مأمون كذلك.

٣- ومنهم أيضا من يسيء التربية إلا انه غير مأمون.

فالأول له التصرف مطلقاً بشروطه.

والثاني له التصرف لكن تتوقف التصرفات لمصلحة الصبي الظاهرة نظراً لسوء تربيته

والثالث ليس له التصرف، لأنه ليس له ولاية على نفسه فغيره من باب أولى.

ومجمل تصرفات الأب في مال ولده تكون على النحو الآتي :

١- تصرف الأب ببيع مال ولده ومال الولد إما أن يكون عقاراً أو غيره فإن كان عقاراً فالعلماء قالوا: إن وجود عقار الولد من مصالح الولد ولهذا اختلف العلماء في جواز بيع الأب عقار ولده فمنهم من أجاز ذلك مطلقاً ومنهم من فصل ذلك بشروط.

وإن كان غير عقار فإما أن يتصرف الأب لصالحه، وإما أن يبيع مال أحد ولديه للآخر.

نفي الحالة الأولى: من العلماء من أجاز ومنهم من منع ومنهم من أجاز بشروط.

وفي الحالة الثانية: وأن كلاهما رشيد أي -الابنان- فإنه لا يجوز.

وإن كان كلاهما سفيه جاز بما لايضر الآخر. وأما أكله من مال ولده فقد أجازه الفقهاء بالإجماع.

٢- تصرف الأب في مال ولده بالمضاربة: وهذا التصرف أجازه الفقهاء بلا خلاف.

٣- تصرف الأب في مال ولده بالقرض: فمن العلماء من أجازه بشروط ومنهم من منعه.

٤- تصرف الأب في مال ولده بالإعارة: رغم الإعارة من أنواع التبرعات إلا أنه اختلف العلماء في مدى جواز إعارة الأب مال ولده.

٥- تصرف الأب في مال ولده بالشفعة: وهذا مجمع على جوازه للأب.

٦- تصرف الأب في مال ولده بالرهن: إذا كان الولد في حاجة الدين جاز للأب أن يرهن ماله وذلك عند جمهور العلماء. والله أعلم.

19-11-2009.indd 57 فىاطلا قعماح 1/4/2010 7:38:21 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 58 1/4/2010 7:38:22 PM

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد

فقد اهتمت الشريعة الإسلامية بالمجتمع، الذي من أهم ركائزه الأسرة، وأهم أفراد الأسرة الأب الذي إليه يكون نسب الأبناء، والدفاع عنهم، والولاية عليهم قبل بلوغهم.

وقد ظهر في زماننا هذا جيل من الأبناء تنكر فيه للآباء تحت ذريعة حقوق الإنسان، والحقوق الشخصية، وحرية التصرف، وما إلى ذلك، ونسي الابن بل وتناسى في خضم ماديات العصر، من يجب عليه نفقتهم من الآباء ونحوهم، فأصبح مصير بعضهم هو دور العجزة ورعاية المسنين.

و لونظرنا إلى الفقه الإسلامي لوجدنا أن للأب حق التصرف بالأخذ والتملك من مال ولده بضوابط شرعية منصفة، وشروط عادلة.

الباعث على اختيار الموضوع

والباعث على اختيار هذا الموضوع فقدان الترابط الأسري في بعض المجتمعات وجحود الأبناء للآباء وعقوقهم، حيث أصبح التمرد على الآباء باسم الحرية الشخصية هو ديدن الأبناء في هذا العصر، هذا من جانب ومن جانب آخر فهناك شريحة من الآباء يجتاحهم العوز وقلة ذات اليد، فهذه دور إيواء المسنين، والجمعيات الخيرية، وضعت على قوائمها عددا ممن يطلبون الإحسان إليهم، والصدقة عليهم، رغم قدرة أبنائهم المالية ،بل وغنى بعضهم المفرط مع أن الأب هو رب الأسرة والمسئول الأول عنها في الإسلام، وبالتالي فإن له حق التصرف في شؤون أبنائه خصوصا المالية في الجملة.

19-11-2009.indd 59 1/4/2010 7:38:22 PM

منهج الباحث في البحث:

١- أعرض المبحث مباشرة، وأبين آراء علماء المذاهب الفقهية الأربعة.

٢- محاولة مقارنة آراء الفقهاء في ذلك بعرض الدليل ووجه الدلالة منه، والمناقشة، ثم بيان القول الراجح.

٣- الرجوع لأمهات كتب المذاهب الفقهية لأخذ رأي كل مذهب.

٤- عزو الآيات إلى سورها، وتخريج الأحاديث والآثار الواردة.

٥- ذكر مصادر البحث ومراجعة. عرض فهرسة للموضوعات.

الدراسات السابقة:

١-حقوق الآباء على الأبناء -طه عبد الله عفيفي/دار المطبوعات العربية حيث بين الباحث من خلال هذه الدراسة أن من الحقوق على الأبناء لآبائهم أن يبرّوهم ويحسنوا إليهم، فيعملوا الخير لهم، ويقضوا عنهم ديونهم، وعباداتهم التي ربّما قصّروا بأدائها في الحياة، كالصلاة والصوم والحج، ودوام الاستغفار لهم، فإن ذلك حق للآباء على أبنائهم.....الخ ما ذكر الباحث.

٢- الدراسة الثانية عنوانها: علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة - سعاد إبراهيم صالح/مطبعة تهامة جده.

حيث تناولت الباحثة بيان عظم حقوق الآباء على الأبناء، وأن رضاهما من رضي الله تعالى، ثم بيان حقوق الأبناء على الآباء، بدءا من اختيار أمهم، وتحسين أسمائهم، والعقيقة عنهم، والنفقة عليهم، والحضانة لهم، والنفقة، والكسوة، والحماية، وما إلى ذلك.

٣ -الولاية على المال في الشريعة - أحمد حسب الله / معهد البحوث مصر.

وقد بين الباحث أن الولاية يقصد بها: أن يتولى الكبير الراشد تدبير شئون القاصر الشخصية والمالية، والقاصر: من لم يستكمل أهلية الأداء؛ سواء كان فاقدًا لها كصبي غير مميز ومجنون، أم ناقصها كصبي مميز ومعتوه ومحجور عليه بسفه، ثم بين أن الولاية نوعان: ولاية على النفس، وولاية على المال، والولاية على النفس: هي الإشراف على شئون القاصر الشخصية من صيانة وحفظ وتأديب وتعليم وتزويج، والولاية على المال: هي الإشراف على شئون القاصر المالية من استثمار وتصرفات كالبيع والإجارة والرهن وغيرها.

وهذه الدراسة ستضيف بيان حكم تصرفات الأب في مال الولد عند الفقهاء الأربعة ببيع، أو هبة، أو قرضا، أو إعارة، أو شفعة، وما إلى ذلك من المعاملات المالية، وأن مال الولد

19-11-2009.indd 60 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:22 PM

لايخلو إما أن يكون عقاراً أو غيره فإن كان عقاراً فالعلماء قالوا: إن وجود عقار الولد هو من مصالح الولد ولهذا اختلفوا في جواز تصرف الأب فيه، فمنهم من أجاز ذلك مطلقا ً، ومنهم من أجازه بشروط، ومنهم من منع.

فى اطل اقع م اج 19-11-2009.indd 61 1/4/2010 7:38:22 PM

تمهيد:

في تعريف الولاية وبيان أنواعها، وتصنيف الآباء في ولايتهم على الأبناء.

أ- تعريف الولاية:

الولاية بالكسر السلطان، والولاية النصرة[١].

وقال ابن فارس: الواو واللام والياء أصل صحيح يدل على القرب[٢] يقال ولي فلانا ولاية إذا نصره وأعانه.[٣]

هذا في اللغة، أما عند الفقهاء: فقد قال الجرجاني: الولاية في الشرع: تنفيذ القول على الغير شاء الغير أو أبى[٤].

أنواع الولاية:

الولاية نوعان:

ولاية على النفس: وهي رعاية القاصر من ناحية التزويج والتربية والحضانة وسيأتي الحديث عنها في ثنايا البحث.

ولاية على المال: وهي تخص التصرفات التي لها علاقة بالمال.

الولاية على المال:

ولاية المال هي سلطة التصرف فيه من غير حاجة إلى إجازة أحد، وهي تثبت على الصغير من أجل حماية أمواله لعجزه عن التصرفات.

٢-أدلة مشروعية الولاية على المال:

شرعت الولاية على المال لأنها من باب الإعانة على البر ومن باب الإحسان ومن باب إعانة الضعيف وإغاثة اللهفان وكل ذلك حسن عقلا وشرعا[٥].

٣-الولي على مال الصغير:

اتفقت كلمة الفقهاء على أن الأب هو أولى الأولياء بالولاية المالية،[٦] ولقد عللوا تقديمهم الأب بالإجماع بأن شفقة الأب فوق شفقة الكل.

ولأن الولاية ما شرعت إلا لمصلحة الصغير وليس هناك من يراعي هذه المصلحة مثل الأب، ولأن الولد جزء أبيه والإنسان شديد الحرص على رعاية نفسه وجزئه وقد قال القائل:

وإنمـــا أولادنـــــا بيننـــا ..... أكبادنا تمشي على الأرض

62 .indd 19-11-2009 فيراطلا قعماج 1/4/2010 7:38:22 PM

٤- الشروط التي يجب توفرها في الأب حتى تثبت له الولاية على المال:

وحتى تثبت للأب ولاية المال يجب أن تتوفر فيه الشروط التالية:[٧]

أولاً: أن يكون عاقلا بالغا حرا وذلك لأن فاقد الأهلية أو ناقصها ليس أهلا للولاية المالية على نفسه فلا يكون أهلا للولاية المالي على غيره.

ثانياً: أن يكون مسلما فإن كان الأب كافراً فلا تثبت له الولاية لقوله تعالى:

﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾[٨]

وجه الدلالة من الآية: أن أل في كلمة الكافرين استغراقية وهي من صيغ العموم التي تستغرق جميع أفراده، فالكافر ليس له سبيل على المؤمن ولوكان قريبا.

ثالثاً: أن يكون أمينا رشيدا غير مبذر وغير محجور عليه لأنه لو كان سفيها فإنه لا يلي أمور نفسه فلا يلي أمور غيره من باب أولى كما أن المحجور لا يلي أمور نفسه فكيف يلي أمور غيره ؟.

رابعاً: أن يكون الأب ظاهر العدالة لأن الفاسق لا يؤمن على المال لفسقه[٩].

٥- بداية الولاية المالية للأب على الصغير وانتهاؤها[١٠]:

تبتدئ الولاية المالية للأب على أولاده الصغار منذ ولادتهم حتى يبلغوا سن الرشد، وتنتهي بزوال سببها وهو الصغر وبلوغه سن الرشد في المال، ويعرف الرشد عن طريق الاختبار والتجربة، فإذا تبين بالتجربة رشده سلمت إليه أمواله وزالت الولاية عنه.

قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ .. ﴾[١١]

قال القرطبي: وهذه الآية خطاب للجميع في بيان كيفية دفع أموالهم.[١٢]

٦- القاعدة العامة في تصرفات الأب في أموال ولده:

القاعدة العامة التي أجمعت عليها آراء الفقهاء[١٣] والتي يجب على الأب العمل بها في تصرفاته بأموال ولده هي: أن لا يتصرف الأب إلا بما فيه نظر ومصلحة للولد. ويدل على هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾[١٤]

قال القرطبي: «أي بما فيه صلاحه وتثميره وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه».[١٥]

وقال أبو السعود: «أن الخطاب للأولياء والأوصياء في حفظ وتثمير مال اليتيم»[١٦]

واستدلوا لهذه القاعدة أيضا بالحديث الذي روى عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار»[١٧].

وبالحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو مرفوعا أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا».[١٨]

19-11-2009.indd 63 فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:22 PM

فظاهر من الحديث الأول أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن الضرر مطلقا ومنه يتضح أن الإضرار بالصغير ليس من المرحمة في شيء فوجب التصرف في مال الصغير بالنظر والمصلحة وبما ليس فيه ضرر عليه.

وبناء على هذه القاعدة تفرعت الأحكام الآتية التي تبين حدود تصرفات الأب في مال ولده:[١٩]

أولا: أن الأب لا يجوز له مباشرة التصرفات والعقود الضارة بالولد ضررا محضا مثل الهبة والصدقة وسائر التبرعات أو الشراء بغبن فاحش وفي هذه الحالة يكون تصرفه باطلا.

ثانياً: أن للأب مباشرة العقود والتصرفات النافعة مثل: قبول الهبة والوصية والصدقة لأن ذلك نفع محض للولد فيملكه الأب.

ثالثاً: العقود والتصرفات الدائرة بين النفع والضرر مثل البيع والشراء، والإجارة وغيرها فلقد قال أكثر الفقهاء بأنه يجوز للأب مباشرتها برأيه واجتهاده لوفور شفقته وحرصه على مصلحة ولده الصغير.

رابعاً: على الأب أن لا يخاطر بمال ولده الصغير وتتمثل المخاطرة بالسفر بالمال في طريق خطره دون ضرورة لذلك، أو عدم الاحتياط الكافي في السفر وما إلى ذلك.

خامساً: ويستحب للأب التجارة بمال الصغير بقصد تنميته لأن ذلك أولى من ترك المال تأكله الصدقة واستدلوا على ذلك بما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من ولي يتيما فليتجر له ولا يتركه حتى تأكله الصدقة»[٢٠]

وبما روي عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنه قال: «اتجروا في أموال اليتامى لئلا تأكلها الصدقة».[٢١]

فالحديث السابق وهذا الأثر يأمران الأب بالاتجار في أموال الصغير لتنميتها وحتى لا تأتي عليها الزكاة فلا تبقى منها شيئا.

سادساً: إن احتاج الولد الصغير للنفقة فعلى الأب الإنفاق عليه دون إسراف ولا تبذير.

٧- أصناف الآباء:

الأب مقدم على جميع الأولياء لوفور شفقته كما سبق إيضاحه، لكن الآباء ليسوا جميعا في درجة واحدة بالنسبة للتصرف في أموال أولادهم، بل هم مختلفون بحسب صفاتهم، لأن الأب إما أن يكون حسن التدبير لكنه غير مبذر وغير متلف وغير خائن.

وإما أن يكون سيء التدبير ومبذر ومتلف غير مأمون على مال ولده.

فالصنف الأول: وهو أن يكون حسن التدبير غير مبذر ولا متلف: فهذا يكون مطلق التصرف في أموال ولده يتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات التي يملكها في أمواله الشخصية ولا يستثنى

19-11-2009.indd 64 فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:22 PM

من ذلك إلا التصرفات التي هي من نوع التبرع وما في معنى التبرع لأنها تعتبر ضرراً محضا وولاية الأب هي للمصلحة كما سبق إيضاحه.

الصنف الثاني: أب سيء التدبير لكنه غير مبذر وغير متلف وغير خائن وهذا تثبت له الولاية ولا تسلب عنه إلا انه نظرا لسوء تدبيره وفساد رأيه تتوقف تصرفاته في مال صغيره على المصلحة الظاهرة فإن كانت المصلحة ظاهرة واضحة في التصرف نفذ و إلا لم ينفذ.

إذاً :فالأب سيء التدبير المبذر غير مأمون على مال ولده فلا تثبت له الولاية المالية على ولده الصغير لأنه لا ولاية له على نفسه فلا ولاية له على غيره من باب أولى.

فى اطل اقع م اح 19-11-2009.indd 65 1/4/2010 7:38:22 PM

- المبحث الأول -
(تصرف الأب في مال ولده بالبيع ونحوه)

للأب مطلق التصرف في مال ولده بالبيع والشراء على ما تقتضي المصلحة والفائدة للولد، فللأب أن يبيع مال الصغير منقولا كان أو عقاراً وأن يشتري له ما شاء مما فيه مصلحة في ضوء المسائل التالية:

ألمسالة الأولى: بيع الأب عقار ولده:

وجود العقار من مصالح الولد وفوائده، لكن بيعه قد يؤدي إلى فوات مثل هذه الفوائد والمصالح، لهذا اختلفت آراء فقهاء المذاهب الإسلامية في مدى جواز بيع الأب عقار ولده فمنهم من جوز ذلك مطلقا.

ومنهم من قيد ذلك بشروط وحالات خاصة. وفيما يلي تفصيل ذلك :

١- **قال الحنفية:** "إذا باع الأب عقارا لصغير من أجنبي بمثل القيمة أو بغبن يسير ذلك على ثلاثة أوجه ":

الوجه الأول: لايجوزإذا كبر الابن، والثاني يجوز حتى ولو كبر الابن ولم يكن له أن ينقض، لأن للأب شفقة كاملة ولم يعارض هذا المعنى معنى آخر فكان هذا البيع صحيحا نظرا لعدم وجود علة أخرى معارضة فيجوز.

وفي الوجه الثالث وهو ما إذا كان الأب فاسدا، فإن باع العقار فلا يجوز حتى لو كبر الابن كان له أن ينقض وهو المختار إلا إذا كان خيرا للصغير بأن باع بضعف قيمته[٢٢]

٢- **وقال المالكية:** "وللأب البيع لمال ولده المحجور له مطلقا ربعا[٢٣] أو غيره وإن لم يذكر السبب بل وإن لم يكن له سبب لحمله على السداد عند كثير من علماء المالكية"[٢٤]

أما غير الأب من الأولياء فقد قيدوا البيع بوجود أسباب عديدة يرجع إليها في كتبهم[٢٥]

٣- **وقال الشافعية:** "ولا يبيع عقاره لأن العقار أسلم وانفع مما عداه إلا لحاجة من كسوة أو نفقة ونحوهما بأن لم تف غلة العقار بذلك ولم يجد من يقرضه أولم ير للمصلحة في الاقتراض أو خوف خراب ... أو غبطة ظاهرة كبيعة بزيادة على ثمن مثله وهو يجد مثله لبعضه أو خيرا منه بكله".[٢٦]

٤- **وقال الحنابلة:** "ولولي صغير بيع عقار لمصلحة وأنواع المصلحة كثيرة عندهم: لكونه في مكان لا غلة فيه أو هي يسيرة أو له جار سوء أو ليعمر له عقاره الآخر ولو بلا ضرورة أو زيادة على ثمن مثله".[٢٧]

19-11-2009.indd 66 فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:22 PM

وبالنظر في أقوال المذاهب يرى أن كل مذهب أخذ اتجاها معينا في إجازة بيع الأب عقار ولده على النحو التالي:

فملخص قول الحنفية أن لا يكون البيع بغبن فاحش وأن يكون البيع صادرا من أب محمود عند الناس أو على الأقل مستور الحال.

وقال المالكية أن للأب بيع عقار الصغير مطلقا وإن لم يذكر السبب أو حتى لم يكون هناك سببا ما لأن تصرف الأب لولده محمول على الشفقة والنظر والسداد .

أما الشافعية فقالوا لا يبيع عقاره إلا لحاجة أو غبطة و أخيرا الحنابلة في اصح أقوالهم: أن لا يبيع عقاره إلا لمصلحة بناء على قاعدة "أن لا يتصرف الأب إلا بما فيه نظر ومصلحة للولد" فعلى هذا الأساس يمكن القول: أن الأب الذي تتوفر فيه شروط الولاية بحيث يكون محمودا عند الناس أو على الأقل مستورا يجوز بيعه عقار ولده إن كان في هذا البيع ضرورة أو حاجة أو على الأقل مصلحة في ذلك للولد.

أما إن كان هناك ضرر أو لم تكن مصلحة في البيع فلا يجوز بيعه، لأن في ذلك تفويتا للعقار الذي فيه الفائدة الباقية والنفع الدائم للولد.

ببيع العقار فهذا شرط أساسي من شروط الولاية حيث هذا الصنف من الناس لا يصح توليته فضلا عن جواز تصرفه.

وفيما يلي تلخيص لأهم حالات الضرورة أو الحاجة أو المصلحة والغبطة التي قال العلماء في جواز بيع عقار الولد على اختلاف آرائهم وتعليلاتهم:

١- إذا كان الوالد بحاجة إلى كسوة أو نفقة ولم يجد مقرضا.

٢- نقل الخراج.

٣- خوف الخراب أو الهلاك ونحوه.

٤- حاجه عمارة أملاكه وليس له غير هذا العقار يمكنه التصرف فيه.

٥- دين حل أجله.

٦- كون العقار في مكان لا ينتفع به.

٧- لكون العقار نفعه قليلا وفي بيعه مصلحة وغبطة بأن يشتري له بثمنه عقارا أكثر نفعا للولد.

٨- كون الدار في مكان يتضرر الغلام بالمقام فيه كسوء الجوار فيبيعه ويشتري له دار يصلح للولد الإقامة فيها.

٩- وكذلك إذا رأى الأب شيئا في شرائه نفع للصغير ولا يمكن شراؤه إلا ببيع عقاره.

19-11-2009.indd 67 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:22 PM

١٠- لإرادة شريكه بيعا فيما لا ينقسم ولا مال له يشتري له به حصة الشريك.

١١- خشية انتقال العمارة عنه فيصير منفرد عنها .

هذه من أهم الدواعي التي ذكرها الفقهاء وتبقى هناك أسباب أخرى كثيرة لا ينحصر ذكرها لكن تبقى العبرة في جواز بيع الأب عقار ولده، أن يكون في البيع حظ ومصلحة له .

المسألة الثانية: تصرف الأب في مال ولده بالمضاربة(*):

ليس هناك خلاف بين الفقهاء في أن يضارب الأب بمال ولده وذلك لأن المضاربة نوع من الاتجار بمال الولد والاتجار في مال الولد مندوب إليه، وفيما يلي طائفة لأقول أرباب المذاهب في هذه المسالة:

قال الحنفية: " وله - أي للأب - أن يجعل ماله - أي الولد - مضاربة". (٠)

قال المالكية: " للوصي دفع مال الموصى عليه للغير يعمل فيه قراضا أو إبضاعا " (٢٨)

وسئل الإمام مالك " أ فيعطي مال اليتيم مضاربة، قال نعم " . (٢٩)

وقال الشافعية: "ويجوز لولي الطفل والمجنون أن يقارض بمالهما". (٣٠)

وقال الحنابلة: "ولأب وغيره مضاربته له - أي الإتجار - بماله".(٣١)

واستدلوا لذلك بما يلي: (٣٢)

أولا: بقول تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾(٣٣) فمقتضى هذه الآية ندب الاستثمار والمضاربة في مال الولد.

ثانيا: لما روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: "من ولى يتيما له فليتجر له ولا يتركه حتى تأكله الصدقة (٣٤)، فلقد أمر الرسول ﷺ في هذا الحديث بالاتجار في مال اليتيم، والمضاربة هي نوع من الاتجار، ولأن السيدة عائشة - رضي الله عنها - أبضعت مال محمد بن أبي بكر - رضي الله عنهما - في البحر .(٣٥) ، وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعطى مال يتيم مضاربة .(٣٦)

ثالثا: لأن الولي نائب عن محجوره في كل مافيه مصلحته والمضاربة فيها حظ ومصلحة له ولتكون نفقته من فاضله وربحه كما يفعل البالغون في أموالهم وأموال من يعز عليهم من أولادهم.

فمن مجموع هذه الأدلة يتضح أنه يجوز للأب أن يتجر وأن يضارب بمال ولده حتى يضمن نماءه واستثماره وبالتالي لا تأكله الصدقة - أي الزكاة.

19-11-2009.indd 68 فىراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:22 PM

بعض أحكام مضاربة الأب في مال ولده:

١- على الأب أن لا يتجر إلا في المواضع الآمنة ولا يدفعه إلا لأمين ولا يغري بماله، وذلك طبقا للقاعدة السابقة في حفظ مال الولد وصيانته. (٣٧)

٢- للأب مضاربته بمال ولده بنفسه أو أن يدفعه لغيره.

فإذا ضارب الأب بمال ولده بنفسه فإن الربح يكون كله للولد لأنه نماء ماله فلا يستحقه غيره إلا بعقد، الأمر الذي لم يحصل لكن يحل له الربح فيما بينه وبين الله تعالى لكن القاضي لا يصدقه فلا بد من الأشهاد، فان أشهد على تصرفه بأنه مضاربة جاز له الربح قضاء وإن لم يشهد لا يصدقه القاضي فلا يجيز له أخذ الربح. (٣٨)

٣- وللأب أن يدفع مال صغيره لمن يجر فيه مضاربة بجزء معلوم من الربح .(٣٩)

٤- ويجوز للأب إبضاع مال ولده لما روى عن عائشة في الحديث السابق الذكر، ولأنه إذا جاز دفعه بجزء من الربح فدفعه إلى من يوفر الربح أولى .(٤٠)

المسألة الثالثة: تصرف الأب في مال ولده بالقرض: (*)

لقد اختلفت أقوال المذاهب في إقراض الأب مال ولده، فمنهم من لم يجزه مطلقا ومنهم من أجازه بشروط، وفيما يلي بعضا من أقوالهم :-

قال الحنفية: " الوصي لا يملك إقراض مال اليتيم، والقاضي يملك، واختلفوا في الأب والأصح أن الأب بمنزلة الوصي" (٤١)

وقالو أيضا: "وفي الأب روايتان" :

وفي الرواية الظاهرة يقول: لا يملك الإقراض، لأنه تبرع، وليس للصغير فيه منفعة ظاهرة، وفي هذه الرواية إشارة إلى أن للأب ذلك لأنه غير متهم في حق ولده.

والظاهر أن لا يقرضه إلا ممن يملك الاسترداد منه متى شاء فهو بمنزلة القاضي في ذلك وللقاضي ولاية الإقراض في مال اليتيم لتمكنه من الاسترداد متى شاء فكذلك الأب له ذلك(٤٢).

وقال الشافعية: "ولا يودع ماله ولا يقرضه من غير حاجة لأنه يخرجه من يده فلم يجز"(٤٣)

وقال الحنابلة: "وله قرضه لمصلحته فيه" .(٤٤)

وبالنظر في أقوال المذاهب يلاحظ الآتي:

أن الرواية الظاهرة عند الحنفية تمنع إقراض مال الصغير واستدلوا على ذلك:

بأن القرض نوع من التبرع، وقد عرفنا سابقا أن عقود التبرعات ممنوعة في أموال الصغير. وكذلك لأنه ليس للصغير فيها مصلحة أو منفعة ظاهرة .(٤٥)

19-11-2009.indd 69 فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:23 PM

وفي الرواية الأخرى عندهم أنه لا يملك إقراضه إلا ممن يمكنه استرداده منه كأن يقرضه إبنه الآخر، فيسترده منه متى شاء.

أما الشافعية والحنابلة فهم يقولون: بأنه يقرضه إذا كانت هناك حاجة أو مصلحة في إقراض ماله أقرضه وألا فلا.[٤٦]

واعتمد هؤلاء على القاعدة التي تقول :(**أن تصرف الأب في مال ولده بالمصلحة**).

وبالنظر في أقوال هؤلاء العلماء وأدلتهم يمكن القول بأن القرض هو فعلا من العقود التبرعية وعلم مما سبق أن عقود التبرعات من التصرفات الضارة، الضرر المحض الممنوع منها الأب في مال ولده.

لكن قد تكون في الإقراض مصلحة أو حاجة ماسة للولد، وعليه:

فلا يمكن المنع من القرض مطلقا ولا إباحته مطلقا وأقول أنه متى احتاج الأب إلى إقراض مال ولده أقرضه وإن لم يكن في حاجة إلى مثل هذا التصرف ولا يعود بالفائدة على الولد فلا يقدم عليه. والله أعلم.

وفيما يلي الحالات التي ذكرها العلماء والتي تبيح للأب عند حصولها إقراض مال ولده.

معنى الحظ والمصلحة في قرض مال الصبي:

١- أن يكون للولد مال في بلد فيريد الولي نقله إلى بلد آخر، فيقرضه الولي من رجل في ذلك البلد ليقتضيه بدله في بلده، يقصد بذلك حفظه من الضرر والمخاطرة في نقله ،أو يخاف عليه الهلاك من نهب أو غرق.[٤٧]

٢- أو يكون المال مما يتلف بتطاول مدته أو يكون حديثه خيرا من قديمة كالحنطة ونحوها فيقرضه الولي خوفا من السوس أو خوفا من أن تنقص قيمته.[٤٨]

ويمكن القياس على هذا، لكن حتى يتم القرض لا بد من توفر الشروط التالية:[٤٩]

١- لا يجوز قرض مال الولد إلا لمليء أمين وذلك حتى لا يعرضه للتلف لأن غير الأمين يجحد وغير المليء لا يمكن أخذ البدل منه.

٢- ولا يقرضه الولي لمروءة أو مكافأة لأنه لا حظ للولد في ذلك.

٣- أن لا يقرضه إلا ممن يملك الاسترداد منه متى شاء.

٤- وان أقرض الأب مال ولده ورأى أخذ الرهن عليه أخذ لأن ذلك أوثق، وإن رأى ترك الرهن لم يأخذ.

19-11-2009.indd 70 فيراطلا قعماج 1/4/2010 7:38:23 PM

فروع:

الفرع الأول:

إن دعت الحاجة إلى الاقتراض للولد فيجوز ذلك للأب مثل أن يكون الولد في حاجة للنفقة عليه والكسوة أو النفقة على عقاره المتهدم إذا كان له مال غائب فتوقع قدومه، أو ثمرة ينتظرها يفي بها ذلك، وإن لم يكن له شيء ينتظر فلا حظ له في الاقتراض بل يبيع عليه شيئا من أصوله ويصرف في نفقته .[٥٠]

الفرع الثاني

إن الوصي لا يملك أن يقترض من مال الولد شيئا لنفسه كما لا يشتري من نفسه ولا يبيع لها للتهمة، وظاهره أن الأب له ذلك لعدم التهمة .[٥١]

المسألة الرابعة: تصرف الأب في مال ولده بالإعارة:[٥٢]

رغم أن الإعارة من أنواع التبرعات إلا انه اختلف العلماء في مدى جواز إعارة الأب مال ولده.

وقد اختلفت آراء الحنفية في ذلك:

فمنهم من قال بأنه ليس لوالد الصغير أن يعير متاع ولده الصغير[٥٣].

وبعضهم قال: "أن الأب يملك إعارة مال اليتيم وذلك لعدم البدل"[٥٤].

وبالنظر في الإعارة نجد أنها من العقود التي هي في معنى التبرع وقد عرفنا سابقاً أن عقود التبرعات ممنوعة في مال الولد لأن التبرع لا يكون إلا من المالك .

ولأنه لا فائدة للولد في إعارة ماله لعدم البدل، ولأنه قد يفوت عليه بعض مصالحه.

وكذلك لأنه إذا كانت الإعارة تعطيلا للإجارة فإن ذلك يكون تصرفا ضارا ضررا محضا يثبت أنه لا مصلحة فيه فيبطل[٥٥] .

لكن قال بعض المحدثين بأنه يجوز أن يعير الأب مال الصغير إذا كان العرف

يجري بذلك كإعارة آلة غير معدة للاستغلال لمن جرى العرف بإعارتها له ولا يقال إن في هذه الإعارة معنى التبرع وهو ضرر، وذلك لأنه لا ضرر في هذه الإعارة حيث لا تعد الآلة للاستغلال.

ولأن هذا من باب تبادل الخدمات بين الناس في العرف فإذا أعارا الأب مال الصغير اليوم استعار له غدا وهو ما أرجحه. والله أعلم.[٥٦]

19-11-2009.indd 71 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:23 PM

إعارة نفس الصغير :

أما إعارة نفس الصغير فقالوا أن - للأب إعارته إذا لم يضر بالصبي وكان ذلك في تعليم الحرفة بأن دفعه إلى أستاذ ليعلمه الحرفة ويخدم أستاذه أما إذا كان بخلاف ذلك فلا يجوز[٥٧].

المسألة الخامسة : تصرف الأب في مال ولده بالشفعة :[٥٨]

الشفعة تثبت للصغير والكبير وذلك لما فيها من المصلحة في إزالة الضرر، والأب يأخذ بالشفعة أو يترك حسب المصلحة ومن المتفق عليه رفع الضرر عن الصغير لهذا كان على الأب إتباع المصلحة في الأخذ بالشفعة أو تركها وهذا ما اتفقت عليه آراء المذاهب وفيما يلي أقوالهم:

فقد قال محمد بن الحسن من **الحنفية**[٥٩] "أن الصغير والكبير في استحقاق الشفعة سواء، ثم إذا وجبت الشفعة للصغير فالذي يقوم بالطلب والأخذ من قام مقامه شرعا في استيفاء حقوقه وهو أبوه ..

وقال المالكية: "والولي أولى بالشفعة فله الأخذ بالشفعة لمحجوره السفيه أو الصبي أو المجنون إذا باع شريك المحجور".[٦٠]

وقال الشافعية: "ويأخذ له بالشفعة أو يترك بحسب المصلحة".[٦١]

وقال الحنابلة: "... وعلم منه ثبوت الشفعة للمولى عليه لعموم الأخبار وأن الولي يملك الأخذ بها دون العفو عنها[٦٢].

مما سبق يتضح أن الفقهاء قد أجمعوا على أن الأب يأخذ بالشفعة لولده إن رأى في ذلك المصلحة، لكنهم اختلفوا هل له العفو وإسقاط الشفعة ؟

فقال جمهور العلماء: إن رأى في ذلك المصلحة والنظر فيجوز له إبطالها لحظ أو فقر و إلا فلا تبطل وللصبي الأخذ بها إذا بلغ.[٦٣]

أما المذهب عند الحنابلة وعند محمد وزفر من الحنفية فقالوا لاحق للأب في إبطال حق الصغير في الشفعة وذلك لأن في الأخذ تحصيلا واستبقاء للحق بخلاف الإسقاط ففيه تفويت وضرر على الصغير، فلا يجوز.[٦٤]

وأرجح الرأي الأول القائل بأن للأب ترك الشفعة لأنه قد تكون المصلحة في الترك وتصرفات الأب مضبوطة بالمصلحة، لكن متى رأى الأب الحظ في الأخذ لزمه، لأن عليه الاحتياط والأخذ بما فيه الحظ. والله أعلم .

72 .indd 19-11-2009 فىراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:23 PM

ومن المسائل المتعلقة بالشفعة:

١- شراء الأب دار لنفسه وابنه الصغير شفيعها فقد قالوا: بأنه إن لم يكن للصبي في الأخذ ضرر بأن وقع شراء الأب الدار بمثل القيمة أو بأكثر مقدار ما يتغابن الناس فيه لا يكون للصغير الشفعة إذا بلغ وإن كان للصغير في هذا الأخذ ضرر بأن وقع شراء الأب بأكثر من القيمة بمقدار لا يتغابن الناس فيه كان له الشفعة إذا بلغ .[٦٥]

٢- وكذلك لو باع الأب دار لنفسه وابنه الصغير شفيعها فلم يطلب الأب الشفعة للصغير، لا تبطل الشفعة للصغير حتى لو بلغ الصغير كان له أن يأخذها .[٦٦]

المسألة السادسة: تصرف الأب في مال ولده بالرهن: [٦٧].

إذا كان الولد في حاجة إلى الدين جاز للأب أن يرهن ماله عند جمهور العلماء فقد قال **الحنفية** :"وله أن يرهن ماله بدينه لأن الرهن من توابع التجارة"[٦٨].

وقال المالكية: "يجوز للأب أن يرهن مال محجوره في دين استدانة على المحجور لمصلحته كالطعام"[٦٩].

وقال الشافعية: "ولا يرهن الولي مال الصبي ولا يرتهن له إلا لضرورة أو غبطة ظاهرة[٧٠].

وقال الحنابلة: "وللأب أن يرتهن ماله لنفسه ".[٧١]

من الملاحظ أن كلمة الفقهاء قد اتفقت على أنه يجوز للأب أن يرهن مال ولده في دين على الولد لكن بشرط أن تدعو لذلك ضرورة أو مصلحة وقد استدلوا على ذلك بقولهم: أن في ذلك مصلحة وحظا للصغير فهو نوع من وفاء الدين الثابت على الصغير وللأب هذا الوفاء، ولأن الرهن من توابع التجارة لأن التاجر يحتاج إليه، وفضلا عن ذلك هو تصرف لم يتبين ضرره حتى يقال بمنعه. [٧٢]

وفيما يلي ذكر لأهم أوجه الضرورة أو المصلحة التي يجوز فيها الرهن التي ذكرها الفقهاء في كتبهم [٧٣]:

مثال الضرورة: أن يرهن على ما يقترض لحاجة النفقة أو الكسوة ليوفي ما انتظر من حلول دين، وأن يرتهن على ما يقرضه أو يبيعه مؤجلا لضرورة نهب.

ومثال أيضا في الغبطة أن يرهن ما يساوي مائة على ثمن ما اشتراه بمائة نسيئة وهو يساوي مائتين وأن يرهن على ثمن ما يبيعه نسيئة بغبطة.

19-11-2009.indd 73 فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:23 PM

مدى جواز رهن الأب في دين عليه من مال ولده :

إذا تصرف الأب في مال ابنه بالرهن لا يخلو: إما أن يكون في دين الأب، أو في دين الابن، وهكذا سائر التصرفات، إما أن يتصرف الأب في مال الابن للابن، أو يتصرف لنفسه، وفي الصورة الثانية بناء على جواز تملك الأب من مال ولده .

وعليه فقد قال جمهور العلماء [٧٤] بجواز رهن الأب مال ابنه الصغير بدين نفسه وذلك لأن التهمة منتفية بين الوالد وولده ولا يجوز ذلك لغير الأب .

واستدلوا أيضا بالاستحسان وذلك أن هذا الرهن وإن كان من مال الولد فهو يشبه الإيداع بل هو أقوى منه، لأن الوديعة إن هلكت تهلك غير مضمونة، والمرهون إن هلك يهلك مضمونا بالأقل من القيمة ومن الدين، وإذا كان الإيداع قد جاز مع ذلك فأولى أن يجوز الرهن .

واستدلوا أيضا: بأنه مادام قد جاز للأب بيعه مال الصغير لنفسه فكذلك يجوز له رهن ماله.

وعند أبي يوسف وزفر لا يجوز للأب أن يرهن بدين عليه مال ولده .

واستدلوا بالقياس لأنه يؤدي إلى أن يوفى الأب دينه من مال الصغير وهو لا يجوز لأنه ضرر محض به [٧٥].

فروع :

١- إذا بيع الرهن في سبيل الدين ضمن الأب للود دينه .

٢- وإذا هلك الرهن وكانت قيمته أكبر من الدين ضمن الأب ما زاد عن الدين .

19-11-2009.indd 74 فىاطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:23 PM

المبحث الثاني

(تولي الأب طرفي عقد البيع)

سأتناول في هذا المبحث مسألتين لهما علاقة كبيرة بتولي الأب طرفي عقد البيع ومدى جواز ذلك له وهما:

١- بيع وشراء الأب مال صغيره لنفسه.

٢- بيع الأب مال أحد ولديه للآخر.

المسألة الأولى: بيع وشراء الأب مال الصغير لنفسه:

من المقرر عند جمهور العلماء أن العقود يتولاها طرفان أي عاقدان: بائع ومشتر ومؤجر ومستأجر، وذلك لأن طبيعة العقود تقتضي وجود إيجاب وقبول فيجب أن يحصل القبول من شخص والإيجاب من شخص آخر لأن كلا من الطرفين يحاول الربح من الآخر، ولا يتأتى لعاقد واحد أن يحقق غرضين متعارضين لشخصين مختلفين في صفقة واحدة.

وعلى هذا لا يصح قيام شخص بمفرده مقام العاقدين فيتولى طرفي العقد في وقت واحد حتى لا يكون مملكا ومملكا في آن واحد.(٧٦)

إلا أنه استثنى من هذا الأصل شراء الأب مال صغيره لنفسه وهذا ما نبحثه في هذه المسألة، وهناك مستثنيات أخرى سيأتي ذكرها والإشارة إليها إن شاء الله تعالى.

وهذه أقوال الفقهاء في شراء أو بيع الأب مال صغيره لنفسه:

قال الحنفية :"وبيع الأب مال الصغير من نفسه جائز بمثل القيمة وبما يتغابن فيه"(٧٧)

وقالوا أيضا :"في الأب - أفتينا بظاهر الرواية أنه يملك أن يبيع ماله من ابنه أو يشتري مال الابن لنفسه بشرط أن لا يتضرر به الصغير .(٧٨)

وقال المالكية :"يجوز للأب والوصي أن يبيعا عليه من أنفسهما ما لم يحابيا" (٧٩)

وقال الشافعية: "ولا يجوز لمن يلي مالهما أن يبيع لهما شيئا من نفسه إلا الأب" (٨٠)

وقال الحنابلة: "... كما لا يشترى من نفسه ولا يبيع لها للتهمة وظاهره أن الأب له ذلك لعدم التهمة"(٨١)

يلاحظ مما سبق أن علماء المذاهب الأربعة قد اتفقوا على أنه يجوز للأب أن يبيع أو يشترى من مال ولده لنفسه لكن بشرط: أن لا يكون في ذلك ضرر على الولد كأن يحابي الأب فيه، أو يبيع أو يشترى بغبن فاحش، فإذا ثبت ذلك فسخ.

19-11-2009.indd 75 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:23 PM

وهذا الذي ذهب إليه جمهور العلماء، خالفهم فيه زفر من الحنفية، فقد قال بأنه لا يجوز، لأن حقوق العقد تتعلق بالعاقد فلا يجوز أن يتعلق به حكمان متضادان ولأنه لا يجوز أن يكون موجبا وقابلا في عقد واحد كما لا يجوز أن يتزوج بنت عمه من نفسه .[٨٢]

ورد عليه بما يلي [٨٣]

بأن الأب يلي أمر نفسه فجاز أن يتولى طرفي العقد كما لو زوج ابنته من عبده الصغير والسيد يزوج عبده أمته.

والتهمة بين الأب وولده منتفية إذ من طبعه الشفقة عليه والميل له وترك حظ نفسه لحظه فلذلك جاز فيكون الأب أصلا في حق نفسه ونائبا عن طفله فتقوم عبارته مقام عبارتين ورأيه مقام رأيين .

وقد جاء في أشباه السيوطي أنه مما اختص به الأب ولايه المال وتولي طرفي العقد في البيع ونحوه[٨٤]

والراجح والله أعلم: هو جواز شراء أو بيع الأب مال صغيره لنفسه.

فرع هام:

قال فقهاء الحنفية: يجب على الأب أن يخبر القاضي في حالة الشراء ليقيم

وصيا يتسلم منه الثمن ثم يسلمه إليه ليضمه إلى مال الصغير، ضمانا لنقل الثمن إلى ملكيته حتى لو هلك قبل هذا التسليم هلك على الأب، وفي حالة بيعه ماله لولده لا يقوم وضح اليد السابق مقام تسلم البيع، بل لا بد من تسلمه تسلما خاص، بحيث ينتقل إليه ويتسلمه إذا كان بعيدا عن محل العقد، فإذا اهلك قبل ذلك هلك على الأب تقليلا للأخطار عن أموال الصغار ما أمكن.[٨٥]

المسألة الثانية: بيع الأب مال أحد ولدية للآخر:

مما تفرع عن الاختلاف في الأصل السابق هل يتولى شخص واحد طرفي العقد، وهذه المسألة: وهي هل يجوز أن يبيع الأب مال أحد ولديه للآخر ؟ إذا كان له ابنان صغيران .

بناء على الأصل السابق وتفريعا عليه يمكن القول بأنه يجوز للأب مباشرة هذا النوع من العقد.

فقد قال الحنفية: : ... فلا ينعقد بيع مجنون وصبي لا يعقل ولا وكيل من الجانبين إلا في الأب ووصيه والقاضي " [٨٦]

وقالوا أيضا أن الحاصل من شرح الطحاوي لا يجوز من الوصي بيع مال أحد اليتيمين من الآخر ويجوز ذلك من الأب إذا لم يفحش الغبن ".[٨٧]

وقال الشافعية :" وللأب بيع مال أحد الصغيرين للآخر، وهل يشترط أن يقول بعت واشتريت كما لو باع لغيره أم يكفي أحدهما وجهان ؟ "[٨٨]

19-11-2009.indd 76 فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:23 PM

يتضح إذا جواز بيع الأب مال احد ولديه للآخر لكن بشرط أن لا يفحش الغبن وأن يكون بمثل القيمة أو بغبن يسير وهو مقدار ما يتغابن الناس فيه عادة، أما إن كان البيع في غبن فاحش فلا يجوز حتى لا يتهم بالميل لأحدهما دون الآخر، والله أعلم.

وقد جاء في زيادات القاضي أبي جعفر أن الأب إذا باع مال أحد اليتيمين من الآخر لا يجز بالاتفاق، لكن ذكر رشيد الدين في فتاوى أن القاضي في بيع مال أحد الصغيرين من الآخر مثل الوصي لا يجوز له ذلك بخلاف الأب الذي له ذلك .[٨٩]

فأنا استغرب كيف حصل القاضي أبي جعفر على هذا لاتفاق الذي يقول بعدم الجواز ولعله يقصد الوصي أو الولي غير الأب، وإلا فالمسألة ظاهرة بأن جمهور العلماء يجّوز ذلك بناء على الاستثناء الحاصل وهو ما أرجحه والله تعالى اعلم.

19-11-2009.indd 77 فىاطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:23 PM

المبحث الثالث

(أكل الأب من مال ولده)

أكل الأب من مال ولده فقد اتفقت كلمة الفقهاء على جوازه ومما قالوا في ذلك:

قال الحنفية : " إذا احتاج الأب إلى مال ولده فان كان في المصر واحتاج لفقره أكل بغير شيء وإن كان في المفازة [٩٠] واحتاج إليه لانعدام الطعام فله الأكل بالقيمة [٩١] .

وقال ابن العربي من المالكية: " أباح لنا الأكل من جهة النسب من غير استئذان إذا كان الطعام مبذولا ".[٩٢]

وقال الشافعية: " إما أب أو جد فيأخذ قدر كفايته اتفاقا سواء الصحيح أو غيره .[٩٣]

وقال الحنابلة: " وإن كان الولي غنيا لم يجز له ذلك - أي الأكل - من مال المولى عليه لقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾[٩٤] إذا لم يكن أبا لأن الأب له أن يتملك من مال ولده ما شاء ".[٩٥]

نلاحظ من أقوال المذاهب الآتي:

الحنابلة يجيزون الأكل والأخذ مطلقا، أما الحنفية: فاشترطوا أن يكون الأب فقيراً، وعند **المالكية:** يأكل إذا كان الطعام مبذولا غير محرز، والشافعية قالوا: يأكل قدر كفايته ولا يزيد ويشترط أن يكون فقيرا محتاجا. [٩٦]

ولقد انتصر لمذهب الحنابلة القائل بجواز أكل الأب من مال ولده مطلقا أصحاب التفاسير وأرباب الحديث وفيما يلي أدلتهم وأقوالهم .

فقد استدلوا بقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ .. ﴾[٩٧]

قال المفسرون: "في بيوتكم" [٩٨] أي: بيت ابن الرجل بيته، وفي الخبر "أنت ومالك لأبيك"[٧] ولأنه لم يذكر الأولاد في الآية فدل على جوز أكل الأب من مال ولده ولأن الولد كسب والده وماله كماله .

قال القرطبي: قال بعض العلماء هذا إذا أذنوا له، وقال آخرون أذنوا أو لم يأذنوا فله أن يأكل لأن القرابة التي بينهم هي إذن منهم .

واستدلوا أيضا بالأحاديث والآثار التالية:

78 .indd 19-11-2009 فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:23 PM

فعن عائشة- رضي الله عنها – قالت قال رسول الله ﷺ " إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبة وولده من كسبه فكلوا من أموالهم .[٩٩]

وعن جابر أن رجلا قال: " يا رسول الله إن لي مالا وولدا وإن أبي يريد أن يجتاح مالي فقال: " أنت ومالك لأبيك ".[١٠٠]

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده " أن أعرابيا أتى النبي ﷺ فقال إن أبي يريد أن يجتاح مالي فقال: أنت ومالك لوالدك إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وان أولادكم من كسبكم فكلوه هنيئا ".[١٠١]

قال الشوكاني :" بمجموع طرق هذه الأحاديث ينتهض للاحتجاج فيدل على أن الرجل مشارك لولده في ماله فيجوز له الأكل منه سوءا أذن الولد أو لم يأذن ويجوز له أيضا أن يتصرف به كما يتصرف بماله ما لم يكن ذلك على وجه السرف والسفه ".[١٠٢]

وقال الترمذي: حديث عائشة حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم قالوا إن يد الوالد مبسوطة في مال ولده يأخذ ما شاء، وقال بعضهم لا يأخذ من ماله إلا عند الحاجة. [١٠٣]

واستدلوا بما روي عن سعيد بن المسيب أنه قال: " الوالد يأكل من مال ولده ما شاء والولد لا يأكل من مال والده إلا بإذنه [١٠٤]

أما القائلون بأن الأب له أن يأكل من مال ولده إذا كان فقيرا محتاج قدر كفايته.

فقد استدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾[١٠٥] .

قال القرطبي: نهى الله سبحانه وتعالى الأوصياء من أكل أموال اليتامى بغير الواجب المباح لهم، فقد بين الله تعالى ما يحل لهم من أموالهم فأمر الغني بالإمساك وأباح للوصي الفقير أن يأكل من مال وليه بالمعروف. [١٠٦]

وقال ابن العربي: "فلا يبسط الأب على الابن في هتك حرز وأخذ مال، وإنما يأكل مسترسلا فيما لم يقع فيه حيازة ولكن بالمعروف دون فساد ولا استغنام.[١٠٧]

قال الكسائي في قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[١٠٨] أطلق الله عز شأنه لولي اليتيم أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف وهو الوسط من غير إسراف، وقال كما روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا سأل رسول الله ﷺ فقال ليس لي مال ولي يتيم فقال ﷺ " كل من مال يتيمك غير مسرف ولا متأثل مالك بماله " [١٠٩].

فالحديث يدل على أن ولي اليتيم له الأكل من غير إسراف.

19-11-2009.indd 79 فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:23 PM

وذكر محمد ومالك أن الأفضل هو الاستعفاف من ماله لما روى أن رجلا أتى عبد الله بمن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال له أوصي إلي يتيم فقال: لا تشتر من ماله شيئا ولا تستقرض من ماله شيئا"[١٠٠].

واستدلوا أيضا بما روى أن رجلا قال لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يا خليفة رسول الله- هذا يريد أن يأخذ مالي كله ويجتاحه فقال أبو بكر: " إنما لك من ماله ما يكفيك "، فقال الأب: يا خليفة رسول الله: أليس قال رسول الله ﷺ أنت ومالك لأبيك ؟، فقال أبو بكر: إنما يعني بذلك النفقة ارض بما رضي الله عز وجل به ".[١٠١]

الرأي الراجح:

وبالنظر في أدلة الفريقين أرجح الرأي الأول القائل بأنه يجوز للأب أن يأكل من مال ولده، كما صرحت بذلك الآيات والأحاديث التي سبق ذكرها، أما ما استدل به الفريق الثاني فأكثرها وارد في عموم الأولياء والأوصياء وعرفنا أن الأب يختلف عن باقي الأولياء والأوصياء حيث يجوز للأب من التصرفات ما لا يجوز لغيره .

كما أنه يمكن حمله على الاستعفاف وعدم التبسط في أموال الأولاد والتوسع في الإنفاق منها حرصا على بقاء وشائج المودة والرحمة بينهما. والله أعلم .

فرع: ضمان الأب ما أكله من مال ولده:

بناء على الرأي الذي يقول بأن للأب الأكل من مال ولده عند الحاجة فهل يضمن الأب البدل؟[١٠٢]

قيل: إنه يضمن فيلزمه عوض ما أخذ إذا أيسر لأنه مال لغيره أجيز له أكله للحاجة فوجب ضمانه كمن اضطر إلى مال غيره، وهذا الرأي قول الشافعية وبه قال عبيدة بن عمر وسيعد بن جبير ومجاهد وقد أنتصر لذلك الرأي ابن جرير في تفسير فقال بالقضاء مطلقا.

وقيل: لا يضمن لأنه أجيز له الأكل بحق الولاية، ولكونه محتاجا فلم يضمنه كالرزق الذي يأكله الإمام من أموال الرعية لعموم ولايته وهو ما أرجحه والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

19-11-2009.indd 80 1/4/2010 7:38:23 PM

خاتمة البحث

وبعد: فقد اتضح لنا بعد هذه الدراسة المتواضعة، أن أحكام تصرف الأب في مال ولده مضبوط بالضوابط الشرعية التالية: (١٠٣)

أولا: أن الأب لا يجوز له مباشرة التصرفات والعقود الضارة بالولد ضررا محضا مثل الهبة والصدقة وسائر التبرعات أو الشراء بغبن فاحش وفي هذه الحالة يكون تصرفه باطلا.

ثانياً: أن للأب مباشرة العقود والتصرفات النافعة مثل: قبول الهبة والوصية والصدقة لأن ذلك نفع محض للولد فيملكه الأب.

ثالثاً: العقود والتصرفات الدائرة بين النفع والضرر مثل البيع والشراء، والإجارة وغيرها فلقد قال أكثر الفقهاء بأنه يجوز للأب مباشرتها برأيه واجتهاده لوفور شفقته وحرصه على مصلحة ولده الصغير .

رابعاً: على الأب أن لا يخاطر بمال ولده الصغير وتتمثل المخاطرة بالسفر بالمال في طريق خطره دون ضرورة لذلك، أو عدم الاحتياط الكافي في السفر وما إلى ذلك.

خامساً: ويستحب للأب التجارة بمال الصغير بقصد تنميته لأن ذلك أولى من ترك المال تأكله الصدقة واستدلوا على ذلك بما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: "من ولي يتيما فليتجر له ولا يتركه حتى تأكله الصدقة"(١٠٤)

وبما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "اتجروا في أموال اليتامى لئلا تأكلها الصدقة، فالحديث السابق وهذا الأثر يأمران الأب بالاتجار في أموال الصغير لتنميتها وحتى لا تأتي عليها الزكاة فلا تبقى منها شيئا.

سادساً : إن احتاج الولد الصغير للنفقة فعلى الأب الإنفاق عليه دون إسراف ولا تبذير.

81 .indd 19-11-2009 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:23 PM

الهوامش

(١) لسان العرب، مادة "ولي": ٢٨٧/٢٠ و ٢٨٨ .
(٢) معجم مقاييس اللغة "ولي": ٦/ ١٤١
(٣) المصباح المنير مادة "ولي": ٦٧٢/٢
(٤) التعريفات – للجرجاني : ٢٥٤ .
(٥) وذكر نفس التعريف ابن عابدين في حاشيته: ٣/ ٥٥
(٦) انظر بدائع الصنائع ١٥٥/٥وحاشية ابن عابدين ٧٦/٢ وحاشية الدسوقي ٢٩٢/٣ ونهاية المحتاج ٣٦٣/٤
(٧) بدائع الصنائع للكاساني ١٥٣/٥ مغني المحتاج ١٧٣/٢
(٨) سورة النساء آية ١٤١
(٩) كشاف القناع ٤٤٦/٣
(١٠) حاشية ابن عابدين: ٦/ ١٥٣، الشرح الصغير: ٤٩٩/٤، نهاية المحتاج : ٣٤٦/٤و ٣٤٧، كشاف القناع: ٣/ ٤٤٢ و ٤٤٥.
(٨) سورة النساء، الآية ٦.
(٩) الجامع لأحكام القرآن: ٣٤/٥ .
(١٠) انظر: تكملة فتح القدير: ٢٥٤/٩، بدائع الصانع: ٥/ ١٥٥، الشرح الصغير ٥١٤/٤، مواهب الجليل: ٦٠/٥، الخرشي: ٢٩٧/٥، تحفة المحتاج: ٢٢٩/٢ و ٢٣٠، نهاية المحتاج: ٣٦٤/٤ كشافة القناع ٤٤٧/٣
(١١) سورة الأنعام: ١٥٢
(١٦)الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ١٣٤ .
(١٧)تفسير أبي السعود :١٩٩/٣ بتصرف.
(١٨)رواه ابن ماجه (الأحكام: من بنى في حقه ما يضر بجاره) ٢٣٤١، ٧٨٤/٢، وفيه انقطاع .

ورواه مالك في الموطأ: ٢/ ٧٤٥ مرسلا، وحديث (لاضرر ولا ضرار) أخرجه أحمد بسنده من حديث ابن عباس بلفظ: لاضرر ولا ضرار، وللرجل أن يجعل خشبه في حائط جاره ٣١٣/١، وابن ماجه حديث (٢٣٤٠) من حديث عبادة، وفي الزوائد اسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع، لأن اسحاق ابن الوليد لم يدرك عبادة، وأخرجه أيضا من طريق جابر الجعفي عن عكرمه عن ابن عباس برقم (٢٣٤١) وجابر الجعفي متهم، وأخرجه مالك في الموطأ مرسلا، ورواه الدراوندي عن عمرو بن يحي عن أبيه عن أبي سعيد موصولا، وقال النووي حديث حسن وله طرق يقوي بعضها بعضا، وقال العلائي له شواهد وطرق يرتقي بمجموعها إلى درجة الصحة / أنظر شرح الزرقاني على الموطأ ٣٢/٤ ، وأخرجه أحمد٣٢٦/٥ وعبد الرزق١٢٥/٩ والطبراني٢٣٨/٥ وأخرجه ابن أبي شيبه من وجه آخر أقوى منه٤٦٨/٥ والدارقطني من وجه آخر٧٧/٣.
وأخرجه الدارقطني والحاكم من حديث أبي سعيد .

وأخرجه الدراقطني من حديث أبي هريرة وأخرجه أو داود في المراسيل من طريق واسع بن حبان عن أبي لبابه وهو منقطع بين واسع وأبي لبابة، وأخرجه الطبراني في الأوسط من وجه آخر عن واسع وابن حبان عن جابر موصولا والطبراني من حديث ثعلبة بن أبي مالك، وأخرجه الطبراني في الأوسط والدرقطني من حديث عائشة.
(تلخيص الحبير: ١٩٨/٤، نصب الراية: ١٨٤/٤-٣٨٦، الدارية: ٢٨٢/٢)
(١٩) رواه الترمذي (البر: باب ما جاء في رحمة الصبيان) ١٩١٩، ٣٢١/٤، وقال عنه: بأنه حديث غريب .
(٢٠)انظر: حاشية ابن عابدين: ٥٢٨/٥ و ٥٢٩، تكملة فتح القدير: ٧٨/٨، وجامع أحكام الصغار: ٢٦١/٢، الشرح الكبير: ٢٩٩/٣، المهذب: ٣٢٨/١ والمجموع: ٣٥٣/١٣، مغنى المحتاج: ١٧٤/٢، كشاف القناع: ٤٤٦/٣ و ٤٤٩ شرح منتهى الإرادات: ٢٩٢/٢ .

82 19-11-2009.indd فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:23 PM

(٢١) رواه الترمذي (الزكاة: باب ما جاء في زكاة مال اليتم) ٦٤١، ٣٢/٣، وقال: وفي إسناده مقال ورواه الدار قطني والبيهقي وفي إسناد هما المثنى بن الصباح وهو ضعيف، (تلخيص الحبير: ٢/ ١٥٧)٠

(٢٢) رواه مالك في الموطأ (الزكاة) ٢/ ٢٥١

(٢٣) جامع أحكام الصغار: ٢/ ٢٥٤ و ٢٥٥ .

(٢٤) الربع: يقصدون به العقار والمنزل (المصباح المنير: ٢١٦/١) .

(٢٥) حاشية الدسوقي: ٢٩٩/٣، والخرشي: ٥/ ٢٩٧. قال في الحاشية: كما ابن سلمون والمتيطي، فهذا يعني أنه قال به كثير من علماء المالكية

(١) حاشية الدسوقي: ٣٠٢/٣ و٣٠٣ .

(٢٦)نهاية المحتاج: ٣٦٠/٤ ومغني المحتاج: ٢/ ١٧٥ ، و روضة الطالبين ١٨٧/٤ ، وحاشية قليوبي: ٣٠٤/٢.

(٢٧)شرح منتهى الإرادات: ٢٩٣/٢، كشاف القناع: ٤٥١/٣ .

* المضاربة: وتعرف بالقراض عن بعض الفقهاء: هي عقد شركة في الربح بمال من الرجل وعمل من آخر.(التعريفات ٢١٨، بدائع الصنائع ١٥٤/٥ ، وجامع أحكام الصغار ٩٨/٣ ومابعدها، وحاشية ابن عابدين ٦٤٧/٥

(٢٨) الشرح الصغير: ٦٩٠/٤ و٦١٠ .

(٢٩) المدونة: ٣١٤/٥.

(٣٠) منهاج الطالبين وحاشية قليوبي: ٥٤/٣ .

(٣١) شرح منتهى الارادات: ٢/ ٢٩٢ ،وكشاف القناع :٤٤٩/٣ .

(٣٢) أنظر: المبسوط: ١٨/٢٢ و ١٩، وجامع أحكام الصغار: ٩٧/٣، ومغنى المحتاج: : ١٧٤/٢، وجامع أحكام القرآن : ٣/ ٦٣، وكشاف القناع: ٢/ ٤٤٩، وشرح منتهى الارادات :٢٩٢/٢ .

(٣٣) سورة البقرة ، الآية .٢٢ .

(٣٤) سنن الترمذي ٣٢/٣ ، سنن البيهقي ٢/٦ سنن الدارقطني ١٠٩/٢

(٣٥) الإبضاع: معناه دفع المال إلى من يتجر فيه والربح كله للولد (المغنى: ٤/ ٢٩٣

انظر المغنى: ٢٩٣/٤، وكشاف القناع: ٣/ ٤٤٩، الموطأ: ٢/ ٦٨٧، المغنى والشرح الكبير: ٢٢/٥ ،

(٣٦) المغنى: ٢٩٣/٤، ومغنى المحتاج: ٢/ ١٧٤.

(٣٧) جامع أحكام الصغار: ٣/ ٩٧ ،٩٨ وبدائع الصنائع: ٥/ ١٥٤، كشاف القناع: ٤٦٩/٣ ، كشاف القناع : ٤٦٩/٣.

(٣٨) كشاف القناع: ٣/ ٤٤٩، والشرح الصغير: ٤/ ٦٠٩.

(٣٩)المغنى: ٤/ ٢٩٣ ، والشرح الصغير: ٦١٠/٤ .

* القرض :لغة: القطع، مصدر قرض الشيء يقرضه، ومنه المقراض واصطلاحا هو: ما فع مال لمن ينتفع به ويرد بدله، المصبح المنير: ٤٩٨/٢ .وكشاف القناع للبهوتي ٣١٢/٣

(٤٠) جامع أحكام الصغار: ٢/ ٢٧٣، وبدائع الصنائع: ٥/ ١٥٣.

(٤١) المبسوط : ١٠٣/٢، وحاشية ابن عابدين: ٥/ ٥٢٨ و ٥٢٩ .

(٤٢) المجموع: ١٣/ ٣٥٤ ،ونهاية المحتاج: ٢٢٤/٤. كشاف القناع: ٣/ ٤٤٩ .

انظر: بدائع الصنائع: ١٥٣/٥، وحاشية ابن عابدين: ٥/ ٥٢٩، والأحوال الشخصية (أبو زهرة): ص ٤٧١، وعلاقة الآباء بالأبناء: ص ١٣٤، والمعاملات الشرعية المالية: ص٢٣٥

(٤٣)كشاف القناع: ٣/ ٤٤٩ و ٤٥٠، ومغنى المحتاج: ١١٨/٢ ، ونهاية المحتاج: ٤/ ٢٢٦.

(٤٤) كشاف القناع: ٣/ ٤٤٩، والمجموع: ١٣/ ٣٥٤.

19-11-2009.indd 83 فىراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:24 PM

(٤٥) كشاف القناع: ٣/ ٤٤٩ .
(٤٦)أنظر المرجان السابقان.
(٤) المجموع ١٣ / ٣٥٤
(٤٧)كشاف القناع: ٣/٤٥٠ .
(٤٨)تعريف العارية: إباحة الانتفاع بعين بغير عوض (كشاف القناع ٤/٦٢.
(٤٩)جامع أحكام الصغار: ٢/١٩٣ .
(٥٠)جامع أحكام الصغار :٢/١٩٦، البدائع: ٥/١٥٤، حاشية ابن عابدين :٥/٦٨٤. انظر المراجع السابق ذكرها.
بدائع الصنائع: ٥/ ١٥٣ ، مغنى المحتاج: ٢/٢٦٤، كشاف القناع: ٣/ ٤٤٩، والمجموع: ١٣/ ٣٥٤ .
(٥١) الموسوعة الفقهية: ١/ ١٩١،الأسرة في الإسلام (شلبي ٧٩١، وحاشية قليوبي ١٨/٣، بدائع الصنائع :٥/ ١٥٤.
(٥٢) أنظر: جامع أحكام الصغار: ٢/ ١٩٦، مغنى المحتاج: ٢/٢٦٤ .
(٥٣) تعريف الشفعة: هي استحقاق الشريك انتزاع حصة شريكه المنتقلة عنه من يد من انتقلت إليه. (المغني ٥/٤٥٩
(٥٤) انظر: المبسوط :١٢/٩٣ و٩٤، جامع أحكام الصغار: ٣/٧٧ ،٨٠ .
(٥٥) الشرح الصغير: ٢ / ١١٨ .
(٥٦) نهاية المحتاج: ٤/٣٦٧، ومغنى المحتاج: ٢/١٧٦.
(٥٧) شرح منتهى الإرادات: ٢/٤٣٨ و ٤٣٩ .
(٥٨) المبسوط: ١٤/٩٣ حاشية الدسوقي: ٣/٣٠١، نهاية المحتاج :٤/٣٦٤، والمجموع: ١٣/ ٣٥٠
(٥٩) شرح منتهى الارادات: ٢/٤٣٨ و٤٣٩، المبسوط: ١٤/٩٤، جامع أحكام الصغار: ٣/٨٠ .
(٦٠) جامع أحكام الصغار: ٣/٨٥ .
(٦١) المبسوط: ١٤/ ١٥٥، جامع أحكام الصغار: ٣/ ٨٤- ٨٥.
(٦٢) الرهن: حبس الشيء بحض يمكن أخذه منه كالدين (التعريفات: ١١٣) .
(٦٣) بدائع الصنائع: ٥/ ١٥٤، حاشية ابن عابدين: ٦/٤٩٥ .
(٦٤) حاشية الدسوقي والشرح الكبير: ٣/ ٢٣٢، والشرح الصغير: ٢/ ١٣٠ .
(٦٥) منهاج الطالبين: ٢/ ٢٦٢، والمهذب: ١/ ٣٣٠.
(٦٦) كشاف القناع: ٢/ ٤٥٠، وشرح منتهى الرادات: ٢/ ٢٩٢.
(٦٧) انظر المراجع السابقة .
(٦٨) انظر: المدونة :٥/ ٣١٤، وحاشية الدسوقي: ٣/ ٢٣٢، بداية المجتهد: ٢/٢٠٤ منهاج الطالبين: ٢/ ٢٦٢.
(٦٩) انظر المبسوط ٢١/١٣ حاشية ابن عابدين: ٦/ ٤٩٥ حاشية الدسوقي. كشاف القناع: ٣/ ٤٥٠ والمهذب: ١/ ٣٣١.
حاشية ابن عابدين: ٦/ ٤٩٥
(٧٠) بدائع الصنائع: ٥/١٣٥ و ١٣٦
(٧١) حاشية ابن عابدين: ٦/٤٩٦، وبدائع الصنائع: ٥/١٣٥
(٧٢) جامع أحكام الصغار: ٢/٢٦١.
(٧٣) الأشراف: ٢/٢٧، قوانين الأحكام الشرعية: ص ٣٤٩، الشرح الكبير ٣/ ٢٩٩ .
(٧٤) نهاية المحتاج: ٤/٣٦٧ .كشاف القناع: ٣/ ٤٥٠، وشرح منتهى الإرادات: ٢/٢٩٢.
(٧٥) انظر بدائع الصنائع: ٢ / ٢٣١ و ٢٣٢ و ١٣٥/٥ و ١٣٦ .
(٧٦) انظر: جامع أحكام الصغار: ٢/ ٢٦١، وتبيين الحقائق: ٥/٢٢١، الفتاوى الهندية: ٣/ ١٧٣، القوانين: ٣٤٩ منح الجليل: ٣/١٧٨، كشاف القناع ٣/٤٥٠، المغني: ٥/ ٢٤٢
(٧٧)الأشباه والنظائر (السيوطي)ص ٢٦٥

فى اطل اقع م اج 19-11-2009.indd 84 1/4/2010 7:38:24 PM

(٧٨) انظر: جامع أحكام الصغار: ٢/ ٢٦٣، الفتاوى الهندية: ٣/ ١٧٣ – ١٧٤، والولاية على المال: ص ٤٣، وعلاقة الآباء بالأبناء: ص ١٣٥.

(٧٩) حاشية ابن عادين: ٤/ ٥٠٤ .

(٨٠) جامع أحكام الصغار :٢/ ٢٦٦، وبدائع الصنائع: ٢/ ٢٣٢ روضة الطالبين: ٤/ ١٨٩

(٨١) انظر: جامع أحكام الصغار: ٢/ ٢٦٦ .

(٨٢) المفازة: هي الفلاة من الأرض: (أساس البلاغة: مادة: فوز: ص ٤٨٤.

(٨٣) حاشية ابن عابدين: ٩٦٩/٥، وجامع أحكام الصغار: ٣٦٧/١ .

(٨٤) أحكام القرآن – أبن العربي: ٣/ ١٤٠٣، والجامع لأحكام القرآن – القرطبي: ١٢/ ٣١٥ .

(٨٥) تحفة المحتاج: ٥/ ١٨٦ .

(٨٦) سورة النساء، الآية ٦.

(٨٧) كشاف القناع: ٤٥٥/٣.

(٨٨) انظر: المهذب: ٣٣٠/١، المجموع، ١٣/ ٣٥٩ .

(٨٩) سورة النور، الآية ٦١ .

(٩٠) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٢/ ٣١٥، أحكام القرآن – أبن العربي: ٣/ ١٤٠٥، تفسيرالرازي: ٣٦/١٤

(٩١) صحيح ابن حبان ١٤٢/٢، ٧٥/١٠، مجمع الزوائد ١٥٤/٤.

(٩٢) رواه الترمذي (أحكام ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده) ١٣٥٨، ٦٣٩/٣ وأبو داود: (البيوع والإيجارات في الرجل يأكل من مال ولده) ٣٥٢٨، ٣/ ٨٠٠، والنسائي (بيوع: الحث على المكاسب (٢١٣٧، ٧٢٣/٢، وقال الترمذي بأنه حديث حسن صحيح ٣/ ٦٤٠

(٩٢) رواه أبو داود (البيوع: الرجل يأكل من مال ولده) ٣٥٣٠ مرفوعا .

(٩٣) رواه أحمد: ١٧٩/٢. (نصب الراية: ٣ / ٢٧٦) .

(٩٤) نيل الأوطار: ٦/ ١٥ .

(٩٥) تحفة الأحوذي: ٤/ ٥٩٢.

(٩٦) المحلي: ١٠٤/٨ .

(٩٧) سورة النساء، الآية ٦ .

(٩٨) الجامع لأحكام القرآن: ٤٠/٥ ،٤١ .

(٩٩) أحكام القرآن – لابن القرب –: ٣/ ١٤٠٥ .

(١٠٠) سورة النساء، الآية ٦.

(١٠١) رواه ابن ماجه (وصايا: باب قوله من كان فقيرا فليأكل بالمغروف) ٢٧١٨، ٢/ ٩٠٧، والنسائي (وصايا: باب ما للوصي من مال اليتيم) ٢٦٩٩، ٢٥٦/٦، وأبو داود (الوصايا: ما لولي اليتم أن ينال من مال اليتيم)٢٨٧٢، ٢٩٢/٣، وأحمد: ٢/ ١٨٦وهذا إسناد حسن للخلاف المعروف في عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (إرواء الفليل ٥/ ٢٧٧.

(١٠٢) بدائع الصنائع: ٥/ ١٥٤، ٢٤٣.

سنن البيهقي: ٧/ ٤٨١، كنز العمال: ١٦ /٥٧٧ .

(١٠٣) انظر: جامع أحكام الصغار: ١/ ٣٦٧، بدائع الصنائع: ٥/ ١٥٤ و ١٥٥، المهذب: ١/ ٣٣١، المجموع: ١٣/ ٣٥٩، الموسوعة الفقهية (بإشراف أبو زهرة): ١/ ٤١٠، تفسير الطبري: ٧/ ٥٨٢، فتح الباري: ٥/ ٣٩٢ .

انظر: حاشية ابن عابدين: ٥٢٨/٥ و ٥٢٩، تكملة فتح القدير: ٧٨/٨، وجامع أحكام الصغار: ٢٦١/٢، الشرح الكبير: ٢٩٩/٣، المهذب: ٣٢٨/١ والمجموع: ٣٥٣/١٣، مغنى المحتاج: ١٧٤/٢، كشاف القناع: ٤٤٦/٣ و ٤٤٩ شرح منتهى

19-11-2009.indd 85 فيراطلا قعمراج 1/4/2010 7:38:24 PM

الإرادات: ٢٩٢/٢. رواه الترمذي (الزكاة: باب ما جاء في زكاة مال اليتم) ٦٤١، ٣٢/٣، وقال: وفي إسناده مقال ورواه الدار قطني والبيهقي وفي إسناد هما المثنى بن الصباح وهو ضعيف (تلخيص الحبير: ٢/ ١٥٧).

(١٠٤)رواه مالك في الموطأ (الزكاة) ٢/ ٢٥١

الفهارس

١-فهرس الآيات.

٢- فهرس الأحاديث.

٣- فهرس الموضوعات.

٤- فهرس المراجع.

١- فهرس الآيات:

م	طرف الآية	رقمها	سورتها	الصفحة
١	ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا.....	١٤١	النساء	٦٣
٢	وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ	٦	النساء	٦٣
٣	وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ	١٥٢	الأنعام	٦٣
٤	وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ	٢٢	البقرة	٦٨
٥	وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ	٦	النساء	٧٨
٦	ليس على الأعمى حرج...	٦١	النور	٧٨
٧	وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ	٦	النساء	٧٩
٨	وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ	٦	النساء	٧٩

٢- فهرس الأحاديث:

م	طرف الحديث	مرجعه	الجزء والصفحة	الصفحة
١	اتجروا في أموال.....	الموطأ	٢٥١/٢	٦٤
٢	اتجروا في أموال	الموطأ	٢٥١/٢	٨١
٣	أعطي مال اليتيم	البيهقي	٢/٧	١٦
٤	أنت ومالك لأبيك	ابن حبان	١٤٢/٢	٧٨
٥	أنت ومالك لوالدك	أبو داوود	٣٥٣٠	٧٩
٦	أنت ومالك لأبيك	أبو داوود	٨٠٠/٣	٨٠
٧	أنت ومالك لأبيك	ابن حبان	١٤٢/٢	؟؟
٨	إنما يعني بذلك النفقه	البيهقي	٤٨١/٧	٨٠

19-11-2009.indd 86 فىراطلا ةغمراح 1/4/2010 7:38:24 PM

٩	إن أطيب مايأكل	الترمذي	٦٣٩/٣	٧٩
١٠	الوالد يأكل من مال....	المحلى	١٠٤/٨	٧٩
١١	من ولي يتيما	البيهقي	٢/٦	٦٤
١٢	كل من مال يتيمك	ابن ماجه	٩٠٧/٢	٧٩
١٣	كل من مال يتيمك	النسائي	٢٥٦/٦	٨٠
١٤	ليس منا من لم يرحم صغيرنا	الترمذي	٣٢١/٤	٦٣
١٥	من ولي يتيما	الدار قطني	١٥٧/٢	٨١
١٦	من ولي يتيما	الترمذي	٣٢/٣	؟؟
١٧	من ولي يتيما	الترمذي	٣٢/٣	؟؟
١٨	ينتهض الرجل	أحمد	١٧٩/٢	٧٩

٣- فهرس الموضوعات.

م	الموضـــوع	الصفحة
١	ملخص الدراسة	٥٧
٢	المقدمة	٥٩
٣	خطة البحث والمنهج	٦٠
٤	التمهيد في تعريف الولاية وبيان أنواعها وتصنيف الآباء في ولايتهم على الأبناء	٦٢
٥	البحث الأول (تصرف الأب في مال ولده بأنواع البيوع المختلفه)	٦٦
٦	بيع الأب عقار ولده	٦٦
٧	تصرف الأب في مال ولده بالمضاربه	٦٨
٨	تصرف الأب في مال ولده بالقرض	٦٩
٩	معنى الحظ والمصلحة في قرض مال الصبي	٧٠
١٠	تصرف الأب في مال ولده بالإعارة	٧١
١١	تصرف الأب في مال ولده بالشفعة	٧٢
١٢	تصرف الأب في مال ولده بالرهن	٧٣
١٣	مدى جواز رهن الأب في دين عليه من مال ولده	٧٤
١٤	المبحث الثاني (تولي الأب طرفي عقد البيع)	٧٥
١٥	بيع وشراء الأب مال الصغير لنفسه	٧٥
١٦	بيع الأب مال أحد ولديه للآخر	٧٦
١٧	المبحث الثالث (أكل الأب من مال ولده)	٧٨
١٨	فهرس الآيات	٨٦
١٩	فهرس الأحاديث	٨٦
٢٠	فهرس الموضوعات	٨٧
٢١	فهرس المراجع	٨٨

87 19-11-2009.indd فىاطلا قعماج 1/4/2010 7:38:24 PM

٤- فهرس المراجع.

أولاً: القرآن والتفسير:

١- القرآن الكريم
٢- أحكام القرآن: أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العرب (٥٤٣ هـ).
الطبعة الثانية، تحقيق: علي حمد البجاوي مطبعة عيسى البابي الحلبي (١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م).
٣- تفسير أبي السعود: أبو السعود محمد بن محمد العمادي (٩٥١ هـ). دار المصحف - القاهرة .
٤- التفسير الكبير: الإمام الفخر الرازي، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية - طهران
٥- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ). تحقيق: محمود شاكر، وأحمد شاكر دار المعارف بمصر .
٦- الجامع لأحكام القرآن: أوب عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الطبعة الموصوفة بأنها الطبعة الثانية.

ثانياً: كتب الحديث:

٧- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني. الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي (١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م).
٨- تحفة الأحوذي: أبو العلى محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ١٣٥٣الطبعة الثانية .مراجعة: عبد الرحمن محمد عثمان مكتبة المدين١٣٨٤ ١٩٦٤م
٩- تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: ابن حجر العسقلاني: تصحيح: السيد عبد الله هاشم اليماني المدني دار المعرفة، لبنان (١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م)
١٠- الجامع الصحيح: أبو عيس محمد بن عيس بن سورة الترمذي تحقيق أحمد محمد شاكر دار إحياء التراث العربي، لبنان
١١- الدارية في تخريج أحاديث الهداية: ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)تصحيح وتعليق: السيد عبد الله هاشم اليماني المدني دار المعرفة، لبنان .
١٢- سسن ابن ماجة: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة تحقيق: محمود فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي .،
١٣- سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي تعليق: عزت عبيد الدعاس وعادل السعيدنشر: محمد علي السيد، حمص.
١٤- سنن الدارقطني: علي بن عمر الدرقطني عالم الكتب، بيروت .
١٥- السنن الكبرى: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ،الطبعة الأولى، دار المعارف العثمانية، الهند.
١٦- شرح الزرقاني على الموطأ: أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني (١١٢٢ هـ) تحقيق: إبراهيم عطوه عوض الطبعة الأولى، مطبعة مصطفى البابي الحلبي (١٣٨١ هـ /١٩٦١م)
١٧- فتح الباري: (ومعه صحيح البخاري) :أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) تحقيق: عبد العزيز بن باز المكتبة السلفية .
١٨- كنز العمال: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي (٦٧٥ هـ). مكتبة التراث الإسلامي، حلب.
١٩- مجمع الزوائد: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (٨٠٧ هـ)مؤسسة المعارف، بيروت (١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م).
٢٠- المسند: الإمام أحمد بن حنبل المكتب الإسلامي .
٢١- المصنف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١ هـ). تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي الطبعة الأولى، المجلس العلمي .
٢٢- الموطأ: الإمام مالك بن أنس تعليق وتصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي .

88 19-11-2009.indd فىراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:24 PM

٢٣- نصب الراية: جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف الزيلعي (٧٦٢ هـ) الطبعة الأولى، المجلس العلمي، دار المأمون، القاهرة (١٣٥٨هـ)
٢٤- نيل الأوطار: محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٥ هـ) مطبعة مصطفى البابي مصر

ثالثاً: كتب الفقه:

الفقه الحنفي:

٢٥- بدائع الصنائع: علاء الدين أبو بكر بن مسعود الكساني (٥٨٧ هـ) الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، لبنان (١٣٩٤هـ ١٩٧٤ م)
٢٦- تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق: فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الطبعة الأولى، دار المعرفة ،بيروت، (١٣١٣ هـ) (وبهامشة حاشية الشلبي)
٢٧- جامع أحكام الصغار: محمد بن محمود الاسروشني (٦٣٢ هـ) تحقيق: عبد الحميد عبد الخالق البيزلي الطبعة الأولى، اللجنة الوطنية في الجمهورية العراقية (١٩٨٢)
٢٨- حاشية ابن عابدين (رد المحتار على الدار المختار) :محمد أمين الشهير بان عابدين، الطبعة الثانية، دار الفكر (١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م).
٢٩- الفتاوى الهندية: الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت (١٣١٠ هـ).
٣٠- فتح القدير: كمال الدين محمد بن عبد الواحد بن الهمام (٦٨١ هـ). الطبعة الأولى، مطبعة بولاق، مصر (١٣١٩هـ).
٣١- المبسوط: شمس الدين السرخسي الطبعة الثانية، دار المعرفة، لبنان.
٣٢- الهداية شرح بداية المبتدي: برهان الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن عد الجليل الراشد المرغيناني، الطبعة الأخيرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

الفقه المالكي:

٣٣- بداية المجتهد ونهاية المقتصد: أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القوطي الأندلسي الشهير بابن رشد الحفيد (٥٢٠ هـ) .دار الفكر .
٣٤- حاشية الدسوقي: شمس الدين الشيخ محمد عرفة الدسوقي دار الفكر .
٣٥- الشرح الصغير: سيدي احمد الدردير: تعليق: محمد إبراهيم المبارك مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر
٣٦- الشرح الكبير: سيدي أحمد الدردير دار الفكر
٣٧- قوانين الأحكام الشرعية: محمد بن أحمد بن جزي الغرناطي دار العلم للملايين، بيروت (١٩٧٤ م).
٣٨- المدونة الكبرى: الإمام مالك بن أنس دار صادر، بيروت (مصورة عن طبعة ١٣٢٣ هـ)
٣٩- منح الجليل: الشيخ محمد عليش كتبة النجاح، طرابلس، ليبيا .
٤٠- مواهب الجليل: أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بالحطاب (٩٥٤ هـ).
الطبعة الثانية، دار الفكر (١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م).

الفقه الشافعي:

٤١- الأشباه والنظائر: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١ هـ) ،الطبعة الأخيرة، مطبعة مصطفى الباب الحلبي (١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م)
٤٢- تحفة المحتاج: شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي دار صادر
٤٣- حاشية قليوبي وعميرة: شهاب الدين أحمد بن أحمد بن سلام القليوبي (١٠٦٩هـ) .وشهاب الدين أحمد البرلسي الملقب بعميره (٩٥٧هـ) .الطبعة الرابعة، دار الفكر

19-11-2009.indd 89 فيراطلا قعماح
1/4/2010 7:38:24 PM

٤٤- روضة الطالبين: الإمام النووي أبو زكريا يحي بن شرف (٦٧٦ هـ) الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت (١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م)
٤٥- المجموع شرح المهذب: أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي دار الفكر.
٤٦- مغنى المحتاج: محمد الشربيني الخطيب دار إحياء التراث العربي، لبنان الطبعة الأولى، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت .
٤٧- منهاج الطالبين (مطبوع مع حاشية قليوبي وعميره بشح المحلي).
٤٨- نهاية المحتاج: شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة ابن شهاب الدين الرملي (١٠٠٤هـ)الطبعة الأخيرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر (١٣٨٦ هـ / ١٩٦٨م).

الفقه الحنبلي:

٤٩- شرح منتهى الإرادات: منصور البهوتي (١٠٥١هـ) دار الفكر.
٥٠- كشاف القناع: منصور بن يونس بن ادريس البهوتي تعليق: هلال مصيلحي مصطفى هلال مكتبة انصر الحديثة، الرياض.
٥١- المغني والشرح الكبير: موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أ؛مد بن محمد بن قدامة المقدسي، وشمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسة.دار الكتاب العربي، لبنان (١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢م)

كتب فقه المذاهب الأخرى والفقه العام وأصول الفقه والمعاجم والفهارس الفقهية وغيرها:

٥٢- أحكام الأسرة في الإسلام: محمد مصطفى شلبي الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، القاهرة (١٣٩٧ هـ/١٩٧٧)
٥٣- الأحوال الشخصية: محمد أبو زهرة الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي (١٣٧٧هـ - ١٩٥٧ م)
٥٤- علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الإسلامية :سعاد إبراهيم صالح .
٥٥- المعاملات الشرعية المالية :أحمد إبراهيم بك ضمن سلسلة الأعمال الكاملة للمرحوم أحمد إبراهيم بك (١٣٥٥- ١٩٣٦).
٥٦- الولاية على المال والتعامل بالدين في الشريعة الإسلامية علي حسب الله
نشر: معهد البحوث والدراسات العربية (١٩٦٧ م) .

رابعا: كتب اللغة والتعريفات:

٥٧- أساس البلاغة: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري - دار صادر، بيروت، (١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م).
٥٨- التعريفات: الشريف على بن محمد الجرجاني الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنا ن(١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م)
٥٩- لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم بمن منظور (٧١١هـ)
٦٠- المصباح المنير: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (٧٧٠هـ).المكتبة العلمية، لبنان .
٦١- معجم مقاييس اللغة: أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكاريا تحقيق: عبد السلام خارون الطبعة الثانية، مصطفى الباي الحلبي (١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م).

19-11-2009.indd 90 فىراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:24 PM

أحكام العوض في الشفعة

د. جميل بن حبيب اللويحق

الأستاذ المساعد بقسم الشَّريعة والدِّراسات الإِسلاميَّة

كلية الآداب - جامعة الطائف

فى اطلا قع م اح 19-11-2009.indd 91 1/4/2010 7:38:24 PM

الملخص

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فإن الشفعة من أحكام المعاملات التي جاءت بها الشريعة الإسلامية لرفع الضرر عن الشريك في الشراكة المشاعة فيما كان صفته الدوام من الأملاك دون أدنى ضرر على شريكه الآخر حين يرغب في بيع حصته لطرف ثالث، وهو حكم خاص بهذه الصورة جاء به الشرع الحكيم تحقيقا للمصلحة المشار إليها، ووفق مقتضى العدل و وطلبا لدفع الخصومات المحتملة بين الشركاء الجدد، ولما كان من أركان عقد الشفعة ما يبذل فيه من عوض، ولمسيس الحاجة لبيان أحكام هذا العوض فقد عمد هذا البحث إلى تناول أهم مسائل العوض في الشفعة، وهي: نوعه، والوقت المعتبر لقيمته، وأحكام الزيادة أو الحط من العوض، وحكم تأجيله، وكونه من المحرمات كالخمر والخنزير، وعجز الشفيع عن بذله، وكونه من غير المال أصلا، وأحوال الاختلاف في العوض، مع التقدمة لهذه المسائل بتمهيد يتعرض لتعريف الشفعة، وحكمها، وحكمتها ، وشروطها، وذلك من أجل ربط هذه المسائل بأصول مبحث الشفعة وقواعده العامة.

وقد اهتم البحث بالسير وفق الأصول المعتبرة في الأبحاث الفقهية من الدقة في عزو الأقوال لقائليها من كتبهم، مع العناية بذكر أدلتهم وتخريج ما يذكر منها من مصادره، وشرح للغريب، مع الاجتهاد في تقريب المسائل وترتيبها، وإتباع كل مسألة ورد فيها خلاف بالترجيح، والالتزام في ذلك كله بالإيجاز قدر المستطاع.

وأرجو أن يكون هذا البحث إضافة نافعة في خدمة الشريعة المعظمة وإبراز جوانب الكمال فيها بتجلية هذا الحكم الفقهي، وتقريبه من المكلفين.

93 .indd 19-11-2009 فىاطلا قعماج 1/4/2010 7:38:24 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 94 1/4/2010 7:38:24 PM

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وبعد:

فهذا بحث مختصر عمدت فيه إلى جمع المسائل المتعلقة بالعوض في الشفعة إلى بعضها، وذكر أقوال أهل العلم فيها، وإيراد أدلتهم وحججهم، والاجتهاد في بيان الراجح منها والاستدلال له، وكان موجب هذا الاختيار ما أفضى إليه تنوع مسائل العوض في الشفعة اليوم وكثرتها ومسيس الحاجة إلى تقريبها وإعادتها إلى أصولها التي تضمنتها كتب الفقه المعتبرة. وإن الناظر في مباحث الشفعة في كتب الفقه في سائر المذاهب ليرى فيها طولاً وتشعباً يعسر معه البحث، ويشق حتى على أهل الشأن فكان لزاماً تقريب ما تكثر الحاجة إليه منها. وتحقيق القول فيه قياماً بواجب البيان وإظهاراً لحكم الشرع وإبرازاً لعظمة الشريعة وشمولها لكل ما يحتاج إليه الناس.

ومن المعلوم أن باب الشفعة من أبواب المعاملات المالية التي جاءت الشريعة بقواعد حاكمة لها تحفظ الحقوق وترفع الضرر وتقيم العدل وترعى المصالح من غير إفراط أو تفريط،ودراسة فروع المسائل المالية كأحكام العوض في الشفعة تظهر هذه القواعد الرفيعة وتكشف عن وجهها وتزيد من إيمان المسلم بكمال شريعة الإسلام، وتمام قيامها بما يصلح حياة الناس.

وقد قسمت البحث في أحكام العوض في الشفعة إلى تمهيد وتسعة مباحث، وقد تناولت في التمهيد أربع مسائل، وهي:

المسألة الأولى: تعريف الشفعة.

المسألة الثانية: حكم الشفعة.

المسألة الثالثة: الحكمة من مشروعية الشفعة.

المسألة الرابعة: شروط الشفعة.

وذلك على جهة الاختصار ليكون مدخلاً لعرض مباحث العوض في الشفعة والتي جاءت على النحو التالي:

المبحث الأول: نوع العوض.

المبحث الثاني: الوقت المعتبر لقيمة العوض.

المبحث الثالث: أحكام الزيادة أو الحط من العوض.

المبحث الرابع: صفة العوض من حيث الحلول والتأجيل.

المبحث الخامس: كون العوض خمراً أو خنزيراً.

95 19-11-2009.indd فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:24 PM

المبحث السادس: كون العوض مستحقاً أو معيباً.

المبحث السابع: كون العوض من غير مال.

المبحث الثامن: عجز الشفيع عن بذل العوض.

المبحث التاسع: الاختلاف في العوض.

وقد سرت في هذا البحث بحمد الله تعالى على السنن المطلوبة في مثله من عزو للأقوال وتحريرها من كتب أهلها. مع ذكر أدلتهم وحججهم وتخريج ما يرد فيها من الأحاديث والآثار من مصادره، وبيان للغريب مع اجتهاد في تقريب المسائل وترتيبها، مراعياً الإيجاز في ذلك كله، ومعرضاً عن الاستطراد والإطالة، ومعقباً كل مسألة ورد فيها خلاف بترجيح ما أراه راجحاً مع الحرص على متانة التعليل له ووجازته.

هذا وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الجهد وأن يبارك فيه، والحمد لله أولاً و آخراً وصلى الله على نبينا محمد.

كتبه:

د. جميل بن حبيب اللويحق

أستاذ مساعد، بقسم الشريعة والدراسات الإسلامية بكلية الآداب

بجامعة الطائف

19-11-2009.indd 96 فىراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:24 PM

التمهيد

وفيه أربع مسائل:

المسألة الأولى: تعريف الشفعة

المسألة الثانية: حكم الشفعة

المسألة الثالثة: الحكمة من مشروعية الشفعة

المسألة الرابعة: شروط الشفعة

المسألة الأولى: تعريف الشفعة.

الشفعة: بضم الشين وإسكان الفاء وحكي ضمها، مأخوذة من الشفع بمعنى الضم على الأشهر، من شفعت الشيء: إذا ضممته، ومنه شفع الأذان وأصل الكلمة التقوية والزيادة، لأن المشفوع يزيد ما في يد الشفيع ومن هذا الباب جاء قولهم شاة شافع للتي معها ولدها لتقويها به، ومنها أيضاً الشفاعة والشفيع لأن كل واحد من الوترين يقوي الآخر[١].

وقيل في وجه العلاقة بين معناها اللغوي والشرعي إنها سميت بذلك لأن الشفيع يجعل نصيبه شفعاً بنصيب صاحبه[٢]، وقيل: إن سبب ذلك أن الرجل إذا أراد أن يبع داره أتاه جاره أو شريكه فشفع إليه فيما باع فشفعه وجعله أولى ممن بَعُدَ بسببه فسميت شفعة، وسمي طالبها شفيعاً[٣]. وقيل: سميت بذلك لأن طالبها جاء تالياً للمشتري فكان ثانياً بعد أول فسمي شفيعاً لأن الاثنين شفع والواحد وتر، وسمي الطلب شفعة[٤].

وأما تعريفها في الاصطلاح الفقهي فقد تنوعت فيه عبارات الفقهاء، ومن أجمعها وأمنعها قولهم (**هي استحقاق الشريك انتزاع حصة شريكه المنتقلة عنه من يد من انتقلت إليه بعوض مالي**)[٥].

المسألة الثانية: حكم الشفعة.

الشفعة من الحقوق المشروعة التي جاءت الشريعة المطهرة بها وقد دلت على ذلك السنة النبوية، ومن ذلك ما رواه البخاري من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: (**قضى رسول الله ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة**)[٦]

وعند مسلم عن جابر (**قضى رسول الله ﷺ في كل شركة لم تقسم ربعة أو حائط، ولا يحل له أن يبيع حتى يؤذن شريكه فإن شاء أخذ وإن شاء ترك فإن باع ولم يؤذنه فهو أحق به**)[٧] وقد حكى الإجماع على مشروعيتها ابن المنذر فقال: (أجمع أهل العلم على إثبات الشفعة للشريك الذي لم يقاسم فيما بيع من أرض أو دار أو حائط)[٨].

19-11-2009.indd 97 فيراطلا ةعمجا 1/4/2010 7:38:25 PM

المسألة الثالثة: الحكمة من مشروعيتها.

اختلفت أنظار أهل العلم في الضرر الذي قصد الشارع رفعه بالشفعة فقيل: هو الضرر اللاحق بالقسمة فقد يلحق الشفيع ضرر بقسمة العقار أو الأرض التي كان يرتفق بها كلها حيث ستضيق عليه في القسمة المترتبة على البيع وفي ذلك كلفة عليه وحرج فرفع عنه ذلك باستحقاق الشفعة[٩].

وقيل إن الضرر الذي قصد إلى رفعه بها هو الضرر المترتب على الشركة فإن الشريكين في عين من الأعيان إذا أراد أحدهما بيع نصيبه لدفع الضرر عليه من بقاء الشركة كان صاحبه أولى بذلك من غيره، فإن إزالة الضرر عنه ليست بأولى من إزالة الضرر عن شريكه وهو لا يتضرر بذلك بل كلاهما منتفع بالشفعة [١٠].

وليس بين هذين السببين تعارض في حقيقة الأمر فقد يجتمعان في بعض الصور وقد يوجد أحدهما دون الآخر.

وقد عبر ابن القيم (٧٥١هـ) عن الحكمة من مشروعية الشفعة بقوله (من محاسن الشريعة وعدلها وقيامها بمصالح العباد ورودها بالشفعة ولا يليق بها غير ذلك، فإن حكمة الشارع اقتضت رفع الضرر عن المكلفين ما أمكن فإن لم يمكن رفعه إلا بضرر أعظم بقّاه على حاله، وإن أمكن رفعه بالتزام ضرر دونه رفعه به، ولما كانت الشركة منشأ الضرر في الغالب فإن الخلطاء يكثر فيهم بغي بعضهم على بعض شرع الله سبحانه رفع هذا الضرر: بالقسمة تارة وانفراد كل من الشريكين بنصيبه، وبالشفعة تارةً وانفراد أحد الشريكين بالجملة إذا لم يكن على الآخر ضرر في ذلك فإذا أراد بيع نصيبه وأخذ عوضه كان شريكه أحق به من الأجنبي وهو يصل إلى غرضه من العوض من أيهما كان، فكان الشريك أحق بدفع العوض من الأجنبي فيزول عنه ضرر الشركة ولا يتضرر البائع لأنه يصل إلى حقه من الثمن، وكان هذا من أعظم العدل وأحسن الأحكام المطابقة للعقول والفطر ومصالح العباد) [١١].

المسألة الرابعة: شروط الشفعة.

اختلفت مذاهب الفقهاء في تحديد شروط الشفعة، وعرض أقوالهم في ذلك على جهة التفصيل والبسط استدلالاً ومناقشة وترجيحاً ليس من مقصود هذا التمهيد، ولذلك فسنعرض لما اعتبره أكثر أهل العلم شروطاً في الشفعة على جهة الإيجاز توصلاً إلى مقصود البحث وهو مسائل العوض في الشفعة وهذه الشروط هي:

الشرط الأول: أن يكون المبيع من غير المنقولات وهو العقار من الأراضي وما بني عليها من

19-11-2009.indd 98 فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:25 PM

الدور وما فيها من غراس تبعاً لها، وأما المنقول كالدواب والثمار والسيارات والمعدات ونحوها فلا شفعة فيه. وهو مذهب الحنفية[١٢] والشافعية[١٣] والحنابلة[١٤]، والمالكية[١٥].

ودليل الجمهور ما ورد عن جابر رضي الله عنه (**قضى رسول الله ﷺ بالشفعة في كل شركة لم تقسم ربعة أو حائط..**)[١٦] الحديث، وفيه النص على العقار، ولأن الضرر الذي شرعت من أجل رفعه الشفعة هو ما يكون دائماً[١٧].

الشرط الثاني: أن يكون الملك مشاعاً غير مقسوم، وأما الجار فلا شفعة له إذا كان ملكه متميزاً عن جاره مستقلاً عنه، وكذلك المخالط في طريق أو مشرب، وبه قال الجمهور من المالكية [١٨] والشافعية[١٩]، والحنابلة[٢٠]، وهو الصحيح، وخالف في ذلك الحنفية فأثبتوا الشفعة بسبب الملك غير المقسوم وألحقوا به الجوار والخلطة[٢١].

واستدل الجمهور بحديث جابر رضي الله عنه المتقدم وفيه (.. **فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة**)[٢٢] وهو صريح في حصر الشفعة فيما لم يقسم، فكل ما كان مقسوماً فليس فيه شفعة، ولأن الضرر إنما يتحقق بالشراكة في الملك[٢٣].

فإن كان بين الجارين حق مشترك من حقوق الأملاك من طريق أو ماء أو نحو ذلك فالصحيح ثبوت الشفعة حينها، أما إذا لم يكن بينهما حق مشترك البتة، بل كل واحد منهما متميزاً في ملكه عن الآخر فلا شفعة[٢٤].

ولا خلاف في وقوع الشفعة في الملك المشاع إن كان يمكن أن يقسم، وأما إن لم يكن كذلك فقد اختلف الفقهاء في وقوع الشفعة فيه، فذهب الشافعية[٢٥] إلى أنه لا شفعة فيه، وهو رواية عن مالك[٢٦]، وأحمد[٢٧].

وعللوا لذلك:

- بأنه مفهوم قوله ﷺ في حديث جابر رضي الله عنه (.. **فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة**)[٢٨] ففيه اشارة إلى أن الشفعة إنما تقع فيما يمكن أن يقسم قبل أن يقسم[٢٩].
- أن الشفعة إنما تثبت لإزالة الضرر الذي يلحقه بالمقاسمة لما يحتاج إليه من إحداث المرافق الخاصة، ولا يوجد هذا فيما لا ينقسم[٣٠].

وذهب الحنفية[٣١] إلى أن فيه الشفعة، وهو رواية عن مالك [٣٢] وأحمد[٣٣].

وعللوا له:

- بعموم قوله ﷺ (**الشفعة في كل شَرَك**)[٣٤] فسببها الملكية[٣٥]، و بأنه عقار فيقاس على العقار المقسوم[٣٦].

99 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:25 PM

- وبأن الشفعة إنما تثبت لإزالة ضرر المشاركة، وضررها فيما لا ينقسم أكثر لتأبده فلزم القول بها فيه[٣٧].

والقول الثاني أقرب والله تعالى أعلم لاعتضاده بمنطوق الحديث، وظهور مراعاته للحكمة المقصودة من الشفعة وهي رفع الضرر عن الشريك بزوال الشراكة.

وهي هنا أولى من مراعاة مفسدة القسمة فإن مراعاة جانب الشفيع مقدمة على مراعاة جانب المشتري وهي هنا تكون باعتبار الشفعة.

الشرط الثالث:

أن يكون الشقص منتقلاً بعوض فإن انتقل بغير عوض كالوصية، والهبة، والميراث، فلا شفعة فيه، وبه قال جماهير الفقهاء من الحنفية[٣٨]، والشافعية[٣٩]، والحنابلة[٤٠]، وهو رواية عن مالك[٤١].

واحتجوا بأن الخبر قد ورد في البيع[٤٢]، وبأن مراعاة شرط الشرع في الشفعة وهو التملك بمثل ما تملك به المشتري صورة أو قيمة لا تتحقق إلا فيما انتقل بعوض[٤٣].

وهذه الشروط الثلاثة هي أصول الشروط في الشفعة، وقد تحدث الفقهاء عن غيرها، وعن مسائل الشفعة في مباحث مطولة يضيق عن الإشارة إليها مقصود هذا البحث، وحسبنا فيما يأتي ذكر ما يتعلق بالشرط الثالث وهو العوض في الشفعة من مسائل تضبط ما يتعلق به من أحكام والله تعالى المستعان.

100 .indd 19-11-2009 فيراطلا قعم اح 1/4/2010 7:38:25 PM

المبحث الأول
نوع العوض

العوض في الشفعة إما أن يكون مثلياً أي له مثل من جنسه، كالبر والنقد ونحو ذلك، وإما أن يكون قيمياً وهو الذي لا نظير له من جنسه، كالحيوان، والجواهر ونحوها، ويلحق به ما انقطع مثله في المثليات وقت الأخذ بالشفعة فيؤخذ بالقيمة [٤٤].

فإن كان العوض مثلياً أخذه الشفيع بمثله صفة وقدراً [٤٥] وذلك لما يلي:

- ما ورد في حديث جابر أن النبي ﷺ قال: (**هو أحق بالثمن**)[٤٦].
- أن بذل المثل أقرب إلى حقه[٤٧].
- أن الشفيع إنما استحق الشقص بالبيع فكان مستحقاً له بالثمن كالمشتري[٤٨].

أما إن كان العوض غير مثلي، فاختلف أهل العلم فيه على ثلاثة أقوال

القول الأول:

أن الشفيع يستحق الشقص بقيمته.

وهو قول أكثر أهل العلم، فبه يقول الحنفية والشافعية والحنابلة[٤٩]

وعللوا له بما يلي:

- أنه أحد نوعي الثمن فجاز أن تثبت به الشفعة في المبيع كالمثلي[٥٠].
- أن القيمة مثل لما لا مثل له.[٥١]

القول الثاني:

أن الشفعة لا تجب في غير المثلي، وحكي هذا القول عن الحسن (ت١١٠هـ)، وسوّار (ت ٢٤٥هـ)[٥٢]، وعللوا له بأن الشفعة إنما تجب بمثل الثمن، وهذا لا مثل له، فتعذر الأخذ بالشفعة، وذلك كما لو جهل الثمن.[٥٣]

ونوقش هذا التعليل بأن المثلية قد تكون عن طريق الصورة و قد تكون عن طريق القيمة، وذلك كالبدل في المتلفات[٥٤].

والراجح هو قول الجمهور لما تقدم من أدلة، ولأن الشفعة حق ثابت فلا تسقط لانتفاء المثلية، بل يتوصل إلى هذا الحق بكل طريق ممكن وهو هنا قيمة المثل.

فإن كان العوض مثليا وانقطع وقت الأخذ بالشفعة، أو عجز عنه الشفيع فإنه يبذل قيمته كما تقدم على قول الجمهور، إلا أن بعض الظاهرية ذهب إلى أنه لا يلزم المشترى أن يقبل القيمة، وله أن يلزم الشفيع بالمثل متى قدر عليه مع تسليمه الشقص له[٥٥].

101 19-11-2009.indd فيراطلا قعمراح 1/4/2010 7:38:25 PM

ووجهه أنه ليس للشريك أخذ الشقص إلا بما رضي به البائع سواء عرضه عليه قبل البيع أو أخذه بعد البيع ولا يجوز إجباره على أخذ غير ما طابت به نفسه، فإن لم يقبل إلا المثل مع إمكانه ولو متأخراً عن وقته كان له ذلك.

والظاهر أن هذا غير لازم في حق الشفيع فإن العبرة إنما تكون بزمن وقوع الشفعة، وليس أمام البائع إلا أن يقبل بالقيمة إن لم يوجد المثل فذلك هو حقه حينها، وليس له إشغال ذمة الشريك بحقه إلا برضاه.

102 فىراطلا ةعماج 19-11-2009.indd 1/4/2010 7:38:25 PM

المبحث الثاني
الوقت المعتبر لقيمة العوض

إذا طالب الشفيع بالشفعة عند علمه بالبيع فإنه يأخذ الشقص بمثل ما بذل فيه المشتري إن كان المبذول مثلياً، أو بثمنه الذي دفع فيه عند وقوع البيع، فإن تأخرت مطالبته لعذر أو طالب بها ولم يحكم له إلا بعد مدة فتغيرت قيمة العوض زيادة أو نقصاً، وذلك كما لو كان عرضاً - كآلة أو تحفة أثرية - وقدرت قيمته بقدر معين حين البيع فزادت بعد ذلك،

فقد اختلف الفقهاء في الزمن المعتبر لقيمة العوض على قولين:

القول الأول: إن الوقت المعتبر لقيمة العوض هو وقت البيع، إن لم يكن خيار فإن كان ثمة خيار فبانقضائه، وإليه ذهب الحنفية[٥٦] والشافعية[٥٧] والحنابلة [٥٨] وهو المشهور عن المالكية[٥٩].

وعللوا له:

- قوله ﷺ في حديث جابر "فإن باعه.. فشريكه أحق به بالثمن"[٦٠].
- بأن وقت البيع هو وقت الاستحقاق للشفعة ولذلك فلا اعتبار بعد ذلك بالزيادة والنقص في القيمة[٦١].
- قياس الشفيع على المشتري في عدم لحوق الزيادة لأن الموجب واحد وهو البيع [٦٢].

القول الثاني: أن الوقت المعتبر لقيمة العوض هو يوم المحاكمة وهو محكي عن مالك [٦٣].

ولعل مأخذ هذا القول هو أن استقرار الشفعة لا يكون إلا عند الحكم بها للشفيع وليس قبله.

والقول الأول هو الأظهر لما ذكر من أدلة، ولما فيه من قطع المنازعة، ولدفعه الضرر الذي سيلحق بالشفيع من تأخر علمه بما استقر عليه الثمن.

وقد أجيب على ما حكى عن الإمام مالك بأجوبة منها...

- أن وقت الاستحقاق هو وقت العقد وأما ما زاد بعد ذلك فهو إنما وقع في ملك البائع، فلا يقوم للمشتري، وما نقص فهو من مال البائع فلا ينقص به حق المشتري[٦٤].
- أن زمن المحاكمة ليس بزمن للاستحقاق، والعبرة إنما تكون بزمن الاستحقاق وهو وقت البيع، كما لو أتلف عرضاً فإن قيمته تعتبر وقت الإتلاف لأنه وقت الاستحقاق لا وقت المحاكمة[٦٥].

19-11-2009.indd 103 فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:25 PM

المبحث الثالث
أحكام الزيادة أوالحط من العوض

إذا تعاقد البائع والمشتري على ثمن وزادا فيه أو نقصا منه زمن الخيار، أو كانت الزيادة أو النقص فيه ابتداء بأن يزيد على ثمن المثل أو يقل عنه، فقد اختلف أهل العلم في لزوم هذه الزيادة للشفيع كما اختلفوا في انتفاعه بالنقص على النحو الآتي:

القول الأول:

أن الشفيع يأخذ الشقص بما استقر عليه الثمن ابتداء أو بانقضاء زمن الخيار، و به قال الشافعية [٦٦] والحنابلة [٦٧].

وعللوا له: بأن حق الشفيع إنما يثبت إذا تم العقد، فيستحق بالثمن الذي استقر عليه العقد عند تمامه [٦٨].

فإن انقضى العقد فإن الزيادة بعده تكون هبة تجري عليها أحكام الهبة ولا تلزم الشفيع، وكذلك الحط من الثمن بكون إبراء مبتدأ ولا يثبت للشفيع[٦٩].

القول الثاني:

أن الشفيع يأخذ بالنقص دون الزيادة، وهو مذهب الحنفية[٧٠].

ولا فرق عندهم أن يكون الحط قبل التفرق أو بعده.

وعللوا له: بأن الحط ملتحق بأصل العقد فيؤخذ به، وفيه مصلحة للشفيع فلا يمنع منه[٧١].

وأما الزيادة فلا تلزم الشفيع وإن التحقت بأصل العقد لما فيها من إضرار بالشفيع، ولأنها قد تفوت عليه حقه في الشفعة[٧٢].

فإن كان الحط للكل فلا يستفيد منه الشفيع عندهم، لأن الحط لا يلتحق بأصل العقد إذ لو التحق بأصل العقد للزم أن يكون بيعاً بلا ثمن، وهو بيع باطل.

القول الثالث:

أن الشفيع ينتفع بالحط إن كان يبقى بعده ما يكون ثمناً لمثل هذا الشقص في العادة، فإن لم يكن كذلك فإنه يأخذه بجميع الثمن الأول. وأما الزيادة فلا تلزم الشفيع، وهو قول المالكية [٧٣].

وعللوا له: بأن ما أظهر من الثمن الأول إنما كان لقطع الشفعة فلا يلتفت له الشفيع ويأخذ بالثمن بعد الحط.[٧٤] وأما في الزيادة فلا تلزم الشفيع لأن الثمن قد تعين[٧٥].

ويظهر لي أن الراجح هو القول الأول لوجاهة تعليله، ولكونه لا ضرر فيه على البائع أو الشفيع، وأما ما ذهب إليه الحنفية فيجاب عنه بما يلي:

104 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:25 PM

– أن الزيادة قبل التفرق تقاس على النقص فيلزم بها الشفيع كما ينتفع بالنقص، وكما أنه يراعي جانب الشفيع في النقص فينبغي أن يراعي جانب البائع في الزيادة فلا ضرر ولا ضرار.

– وأما الحط بعد استقرار العقد فهو تغيير في غير محله فلا يلزم به[٧٦].

ويجاب على المالكية بما سبق، وبأن مقتضى الشفعة أن يأخذ الشفيع الشقص بما استقر عليه الثمن بعد الحط بدون النظر إن كان يصلح أن يكون ثمناً أولا لأن مناط ذلك هو رضى البائع وقد تحقق.

105 19-11-2009.indd فىاطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:25 PM

المبحث الرابع
صفة العوض من حيث الحلول والتأجيل

لا يخلو العوض المبذول من الشفيع من أن يكون حاضراً أو مؤجلاً، فإن كان حاضراً فلا إشكال حينئذ في لزوم قبوله، وأما إن أخره الشفيع فلا يخلو الحال حينئذ من صورتين:

الصورة الأولى:

أن يكون المشتري قد اشترى الشقص بثمن حال وهاهنا لا يلزم المشترى أن يقبل بالتأجيل من الشفيع، وذلك لأن في أخذ الأخير للشقص بدون دفع الثمن في الحال إضراراً بالمشتري، والضرر لا يزال بالضرر[٧٧].

فإن أخذ الشفيع بالشفعة ولكنه آخر بذل العوض فهل يسقط حقه في الشفعة أو يمهل وقتاً لبذله:

اختلف أهل العلم في هذه المسألة على أقوال:

القول الأول:

أنه ينظر يوماً أو يومين بقدر ما يرى الحاكم، وأما أكثر فلا، و به قال مالك [٧٨]. وهو رواية عن أحمد[٧٩]. وهو قول محمد بن الحسن من الحنفية[٨٠].

وعللوا له بأنه يصير متملكاً بالمطالبة، وذلك لا يتوقف على إحضار الثمن كالشراء المبتدأ، ويمهل هذه المدة ليتمكن من نقد الثمن[٨١].

القول الثاني:

أنه ينظر ثلاثاً، فإن أحضر الثمن وإلا فسخ عليه، و به قال بعض الشافعية [٨٢] وبعض المالكية[٨٣] وهو الصحيح عند الحنابلة[٨٤].

وعللوا له: بأن الثلاثة هي آخر حد القلة [٨٥].

وعلل له العمراني الشافعي (٥٥٨هـ) بقوله: (لأن تحصيل الثمن في الحال يتعذر عليه في غالب العادة، وعدم اعتبار ذلك يؤدي إلى إسقاط الشفعة والإضرار بالشفيع، فأجل ثلاثاً لأنها مدة قريبة، ولا ضرر على المشتري في ذلك)[٨٦].

القول الثالث:

أنه لا يأخذ بالشفعة ولا يقضي بها القاضي حتى يحضر الثمن، وبه قال أكثر الحنفية [٨٧].

وعللوا له:

- بأن الشفيع يأخذ الشقص بغير اختيار المشتري فلا يستحق ذلك إلا بإحضار عوضه، كتسليم المبيع[٨٨].

106 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:25 PM

والراجح والله تعالى أعلم هو أن صحة الشفعة لا تتوقف على إحضار الثمن عند طلبها وينتظر في ذلك بقدر ما يقضي به العرف، وحيث لا يتجاوز عرف الناس ثلاثة أيام في المعهود وقد يقل عنها فإن القول الثاني هو أقرب الأقوال فيما يظهر.

وقد أجيب على القول الثالث بأن التملك في الشفعة إنما هو تملك بعوض فلا يتوقف على إحضار العوض، فقد يتأخر تسليمه فهو كالبيع قد يتأخر عن مجلس العقد[٨٩].

الصورة الثانية:

أن يكون المشتري قد أخذ الشقص بثمن مؤجل.

وقد اختلف العلماء في جواز أخذ الشفيع بهذا الأجل أيضا على ثلاثة أقوال:

القول الأول:

أن الشفيع يأخذ بذلك الأجل إذا كان مليئاً أو أقام ضميناً مليئاً.

وبه قال مالك[٩٠]، وأحمد[٩١]، وهو القول القديم للشافعي[٩٢] وهو قول نفر من الحنفية[٩٣]، واشترط مالك وبعض الحنابلة مع الملاءة أن يكون ثقة.

وعللوا له:

- بأن الشفيع تابع للمشتري في قدر الثمن وصفته، والتأجيل من صفاته[٩٤].
- ولأن في الحلول زيادة على التأجيل فلم يلزم الشفيع كزيادة القدر[٩٥]. وعبر عنه القرافي (ت ٦٨٤ هـ) بقوله: (ولأن للأجل قسطاً من الثمن، فلما وجب الأخذ بالمقدار المعين في العقد وجب الأخذ بالمؤجل لينضبط المقدار، لأنه بالحال أضربه فكان فيه رفع الضرر بالضرر بزيادة الثمن، والشفيع لا يزاد عليه في الثمن)[٩٦].

القول الثاني:

أن الشفيع مخير بين أن يأخذ الشقص بقيمته حالاً، أو ينتظر مضى الأجل ثم يأخذه، وبه قال أبو حنيفة[٩٧] والشافعي في الجديد[٩٨].

وعللوا له بما يلي:

- أن القول بانتفاعه بالأجل يفضي إلى أن يلزم المشتري بقبول ذمة الشفيع، والذمم لا تتماثل[٩٩].
- أننا لو جوزنا له الأخذ بالثمن المؤجل لأضررنا بالمشتري، وإن ألزمناه الأخذ بالحال أضررنا بالشفيع، لأن الأجل يقابله قسط من الثمن فكان ذلك دافعاً للضررين وجامعاً للحقين[١٠٠].

وقد أجاب أصحاب القول الأول على ما أورده أصحاب القول الثاني بامتناع تماثل الذمم بأن

107 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:25 PM

جواز الأخذ بالأجل لا يكون إلا إذا وجدت الملاءة في الشفيع أو في ضمينه، حتى ينحفظ المال، فلا يضر اختلافهما فيما وراء ذلك.

وأما أصحاب القول الثاني فاعترضوا على ما أورده القائلون بالقول الأول من أن الأجل في هذه المسألة قد أصبح صفة للثمن والشفيع تابع للمشترى في قدر الثمن وفي صفته بالمنع، فالأجل عندهم لا يثبت إلا بالشرط فهو زائد عن العقد وليس من لوازمه فاشتراطه في حق المشتري لا يكون اشتراطاً في حق الشفيع كالخيار والبراءة من العيوب، ورضاه به في حق المشتري لا يدل على رضاه به في حق الشفيع لتفاوت الناس فيه [١٠١]. كما أنهم قالوا إن الملاءة أيضا لا تتماثل[١٠٢].

القول الثالث:

أن الشفيع يأخذ الشقص بسلعة تساوي قيمته مؤجلة. وهو منقول عن الشافعي[١٠٣].

وتعليله: أننا لا يمكن أن نطالب الشفيع بالمبلغ حالاً لأن ذلك أكثر مما لزم المشتري، ولا يمكن أن نطالبه بالقيمة مؤجلة لأن الذمم لا تتماثل، فوجب أن يعدل إلى جنس آخر بقيمته، كما يعدل فيما لا مثل له إلى جنس آخر بقيمته[١٠٤].

والظاهر لي أن القول الأول هو أقرب الأقوال الثلاثة لفقه الشفعة ومقصودها، فإن مقصودها الأول هو رفع الضرر المترتب على الشراكة عن الشفيع دون إضرار بالشريك فوجب تحقيق ذلك بأدنى صوره، فإن كان البائع قد رضي بالأجل وكان الشفيع ثقة مليئاً فقد تحقق المقصود دون إضرار بالبائع ولا يقال إنه لم يرض ذمة الشفيع هنا فلا تلزمه، فإن ظاهر حاله أنه رضيها قبل العقد، وأما أن الشرط إنما يأخذ به المشترط فقط وليس صفة في العقد فيجاب عنه بأن ننقل الشرط لصالح الشفيع فإنه ينتقل لمن له الملك بدليل الوارث فإن البيع ينتقل إليه بالثمن المؤجل[١٠٥]، ولا شك أن الذمم لا تتماثل من كل وجه وإنما المقصود مراعاة الظاهر والقول بالتخيير كما هو القول الثاني فيه إضرار بالمشتري من جهة تعليق الصفقة عليه وعدم استقرارها، ثم إنه قد يتصرف بما اشتراه نوع تصرف وربما أفضى ذلك إلى خصومة أو إلى أن تطول الدعوى وكل ذلك ضرر ظاهر.

108 .indd 19-11-2009 فىراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:25 PM

المبحث الخامس
كون العوض خمراً أو خنزيراً

إذا بذل المشتري الذمي للبائع الذمي خمراً أو خنزيراً ثمناً للشقص فهل على الشفيع المسلم أن يبذل مثله أو قيمته.

اختلف أهل العلم في ذلك على قولين:

القول الأول:

أن على الشفيع أن يبذل القيمة، وهو مذهب الحنفية[١٠٦]، وهو قول عند المالكية[١٠٧] ووجه عند الحنابلة [١٠٨].

وعللوا له: بأن الخمر والخنزير مال عند أهل الذمة، فأما الخنزير فهو غير مثلي فوجب دفع قيمته، وأما الخمر وإن كانت مثلية فيبذل قيمتها لكونه ممنوعا عليه تملكها وتمليكها. ومتى تعذر على المسلم التملك بالعين تملك بالقيمة، كما لو أن الشراء كان بالعرض فإنه يأخذها بقيمة العرض[١٠٩].

- إن الخنزير والخمر مما يضمن لأهل الذمة فلزم دفع قيمتها [١١٠].
- إن الأخذ بالقيمة هنا فيه دفع للضرر عن الشفيع، ومواضع الضرورة مستثناة[١١١].

القول الثاني:

أن الشفعة لا تقع حينئذ لبطلان البيع، وقال به الشافعية[١١٢] وهو وجه عند الحنابلة[١١٣].

وعللوا له:

- بأن الخمر والخنزير ليست مالاً لحرمتها[١١٤]. ولهذا اسقط غرمهما في حق المسلم والذمي[١١٥]
- أن المسلم لو عقد بيعه على ميتة أو دم لسقطت الشفعة فيه فكذلك تسقط الشفعة فيما عقد على الخمر والخنزير[١١٦].

والظاهر والله تعالى أعلم بالصواب أن البيع قد وقع على وجه معتبر وأن للمسلم أن يشفع فيه بدفع قيمة الخمر والخنزير دون أعيانها لما سبق من أدلة القول الأول ومبنى ذلك ومعتمده وما ورد من أدلة على اعتبار ماليتها في حق أهل الكتاب ومن ذلك:

- ما ورد أن عمر رضي الله عنه **كتب إلى عماله أن اقتلوا خنازير أهل الذمة واحتسبوا لأصحابها بقيمتها من الجزية**[١١٧] قال أبو عبيد(ت٢٢٤هـ) "فهو لم يجعلها قصاصاً في الجزية إلا وهو يراها مالاً من أموالهم"[١١٨] يقول الإمام السرخسي الحنفي (ت٤٩٠هـ) "فهذا

109 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:26 PM

تنصيص منه على أنه مال متقوم في حقهم يضمن بالإتلاف عليهم، والمعنى فيه أن الخمر كان مالاً متقوما في شريعة من كان قبلنا، وكذلك في شريعتنا في الابتداء، ثم إن الشرع أفسد تقومه بخطاب خاص في حق المسلمين حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ سورة المائدة(٩٠-٩١)، فبقي في حق من لم يدخل تحت هذا الخطاب على ما كان من قبل، هذا من حيث الصورة، ومن حيث المعنى أن حرمة العين وفساد التقوم ثبت بخطاب الشرع، وقد أمرنا أن نتركهم وما يدينون بمكان عقد الذمة فقصر الخطاب عنهم حين لم يعتقدوا الرسالة في المبلغ، وانقطعت ولاية الإلزام بالسيف والمحاجة لعقد الذمة ويصير في حقهم كأن الخطاب غير نازل فيبقى الحكم على ما كان....."[١١٩]

وأما قياس الخمر والخنزير على الميتة والدم في حق المسلم فقياس مع الفارق فإن أهل الذمة يرون مالية الخمر والخنزير وقد جعلوها عوضاً في هذا العقد بخلاف الميتة والدم.فإن المسلم لا يعتقد ماليتهما لحرمتهما.

يقول الإمام ابن القيم (ت ٧٥١هـ) في معرض حديثه عن مسألة جعل الخمر والميسر عوضاً في النكاح بين أهل الذمة ثم ترافعهما إلينا عند الاختلاف أو إسلامهما قبل القبض (... وكون الخمر والخنزير لا قيمة له عندنا لا يمنع من اعتبار قيمته وقت العقد فإنها رضيت بماليته، وانحصار المالية في هذا الجنس، فإذا فات ما انحصرت فيه المالية بالإسلام صرنا إلى قيمته وقت العقد كما لو عدم ذلك الجنس، ولا محذور في تقويم ذلك لتعيين مقدار الواجب للضرورة كما تقوم الحر عبدا في باب الأرش لتعيين مقدار الواجب، يوضحه أن المسمى حال العقد كان مالاً بالنسبة إليهم، فكان متقوما بالنسبة إلى هذا العقد والمتعاقدين، وبالإسلام فاتت ماليته فتعينت قيمته حين العقد....) [١٢٠].

110 19-11-2009.indd فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:26 PM

المبحث السادس
(كون العوض مستحقاً[١٢١] أو معيباً)

إذا كان العوض المبذول من الشفيع مستحقاً لغيره كمال مغصوب، أو كان معيباً فلا يخلو الحال حينئذ من صورتين:

الصورة الأولى:

أن يكون الشفيع جاهلاً بذلك، فشفعته باقية حينئذ ويلزمه أن يبذل غيره. وهل ملكه بالطلب الأول والثمن دين عليه، أو يحتاج إلى تملك جديد وجهان عند الفقهاء[١٢٢].

الصورة الثانية:

أن يكون عالماً بذلك، وقد اختلف الفقهاء في بقاء شفعته على قولين:

القول الأول:

أن شفعته تبطل بذلك وهو وجه عن الشافعية [١٢٣] والحنابلة[١٢٤].

وعللوا له: بأنه أخذ الشقص بما لا يجوز الأخذ به فتسقط الشفعة كما لو ترك طلبها[١٢٥].

القول الثاني:

أن شفعته باقية، وعليه أكثر الشافعية [١٢٦] وهو وجه عند الحنابلة[١٢٧].

وعللوا له: بأنه قد استحق الشقص وطالب به فلزمه مثل ثمنه في الذمة، فإذ عينه فيما لا يملكه أو فيما لا يصح في البيع فقد سقط التعيين وبقى الاستحقاق في الذمة أشبه ما لو آخر الثمن، أو كما لو اشترى شيئاً آخر ونقد فيه ثمناً مغصوباً[١٢٨].

والقول الثاني أظهر والله تعالى أعلم، لأن حق الشفعة يثبت بالمطالبة وقد وقعت، فإن بان الثمن مستحقاً أو معيباً فعلى الشفيع إبداله وإلا سقط حقه، فالجهة منفكة بين ثبوت الحق، وبين وجود علة في العوض تمنع المشتري من قبوله، ويمهل المدة المتعارف عليها لذلك كما سبق بحثه.

111 19-11-2009.indd فى اطل اقع م اح 1/4/2010 7:38:26 PM

المبحث السابع
كون العوض من غير المال

إذا جعل الشريك الشقص مهراً في نكاح، أو عوضا في خلع، أو بذله في صلح عن دم عمد وما أشبه ذلك فقد اختلف العلماء في استحقاق الشفعة لكون العوض الذي بذل من الشريك حينئذ من غير المال بل هو من المنافع فجرى خلافهم في المسألة هنا وفق خلافهم في أصلها وهو اعتبار المنافع مالاً من عدمه. وجاء خلافهم في هذه المسألة على النحو الآتي:

القول الأول:

لا شفعة فيما ذكر، وإليه ذهب الحنفية [١٢٩]، وهو أصح الوجهين عند الحنابلة [١٣٠].

وعللوا له:

- بأنها تكون حينئذ منافع، والمنافع ليست متقومة، يقول عثمان الزيلعي الحنفي (ت ٧٤٣هـ): (... لأن الشرع لم يشرع التملك بالشفعة إلا بما تملك به المشتري صورة ومعنى أو معني بلا صورة ولا يمكن إذا تملك العقار بهذه الأشياء لأنها ليست أموالاً ولا مثل لها حتى يأخذ الشفيع بمثلها) [١٣١].
- قياسها على الموهوب والموروث في عدم استحقاق الشفعة بجامع الملكية من غير مال[١٣٢].

القول الثاني:

تثبت الشفعة فيما ذكر، وتؤخذ بقيمة العوض وإليه ذهب الشافعي[١٣٣]، وهو وجه عند الحنابلة[١٣٤].

وعللوا له:

- بأن تمليك الشقص على العوض المذكور من عقود المعاوضة فيقاس على البيع في استحقاق الشفعة[١٣٥].
- أن المنفعة المبذولة هنا لا مثل لها، فيبذل الشفيع قيمتها كسائر غير المثليات[١٣٦].

القول الثالث:

تثبت الشفعة فيما ذكر وتؤخذ بقيمة الشقص لا بقيمة العوض وإليه ذهب المالكية [١٣٧].

وعللوا له: بأن العوض هنا لا يمكن تقديره، فوجب المصير إلى قيمة الشقص[١٣٨].

ولأن التقدير بقيمة الشقص يكون أقرب للعدل في بعض الصور. إذ ربما لا يكون بابه محض المعاوضة كجعله مهراً في النكاح حيث أنه يتصل بذلك معنى المواصلة والإكرام للمرأة وهو أمر يعسر تقديره [١٣٩].

112 فىراطلا ةعماج 19-11-2009.indd 1/4/2010 7:38:26 PM

والراجح في هذه المسألة، هو ما ذهب إليه الشافعية ومن وافقهم من الحنابلة من ثبوت الشفعة في هذه الصورة وتعين بذل قيمة المنفعة من الشفيع لما ذكر من تعليل، ويقويه أن الصحيح هو اعتبار مالية المنافع ويدل على ذلك أدلة منها:

١- ورود هذا المعنى في السنة ومنه حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه في قصة المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ وفيه أنه عليه الصلاة والسلام قال للرجل حين لم يجد شيئاً: هل معك **شيء من القرآن ؟ قال نعم، فقال ﷺ: زوجتكها بما معك من القرآن**[١٤٠].

وفيه جواز جعل الصداق منفعة وهي هنا تعليم القرآن وجعلها عوضاً في الصداق دليل على ماليتها[١٤١].

ومثله حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ بعث سرية فنزلوا بحي وفيه (**وما أدراك أنها رقية، ثم قال: خذوا منهم واضربوا لي بسهم معكم**) [١٤٢].

وما في معناهما من النصوص.

٢- أن حصر المالية في الأعيان ليس عليه دليل من كتاب أو سنة، وما كان كذلك فمرده إلى العرف الذي يتواضع عليه الناس والعرف يقضي باعتبار مالية المنافع[١٤٣].

٣- أن القول بعدم اعتبار الشفعة فيما ذكر يفضي إلى إلحاق الضرر بالشفيع ببقاء الشراكة وهو خلاف مقصود الشفعة، فمتى وجدت المعاوضة بين البائع والأجنبي كان من حق الشفيع أن يطالب بالشفعة كما تدل على ذلك القاعدة العامة للشفعة.

٤- أن المخالف أقر بأن المنافع قد تقوم للضرورة ولحاجة الناس ومنع ذلك في حق الشفيع[١٤٤] ولا وجه للتفريق فإن الشرع هنا قد راعى حاجة الشفيع لدفع ضرر الشراكة فتلحق بحاجات الناس الأخرى.

19-11-2009.indd 113 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:26 PM

المبحث الثامن
عجز الشفيع عن بذل العوض

إذا كان الشفيع عاجزاً عن بذل العوض فهل له أن يطالب بحق الشفعة، اختلف الفقهاء في هذه المسألة على قولين:

القول الأول:

ليس له أن يأخذ بالشفعة، وبه قال الشافعية [١٤٥] والحنابلة [١٤٦] وهو قول للحنفية [١٤٧].

وعللوا له: بأنه إن أخذ بالشفعة ثم لم يقدر على بذل العوض فقد أضر بالمشتري، والضرر لا يزال بالضرر، وذلك كما لو أراد تأخير ثمن حال فلا يلزم المشتري قبوله [١٤٨].

القول الثاني: له ذلك ويحبس حتى يبذل العوض.. وهو القول الآخر عند الحنفية [١٤٩].

وعللوا له: بأن التملك طريقه المطالبة، فإن استحق الشفعة واستقرت له طولب بالعوض [١٥٠].

والقول الأول أظهر لقوة تعليله، فإن طالب الشفيع بالشفعة ثم عجز عن الوفاء أمهل يومين أو ثلاثة أو ما يراه الحاكم كما تقدم [١٥١].

فإن لم يبذل العوض فإن للمشتري الفسخ من دون افتقار إلى حكم حاكم على الصحيح، لأن الأخذ بالشفعة لا يقف على حكم حاكم فلا يقف فسخ الأخذ بها عليه [١٥٢].

وإن أحضر الشفيع ضميناً، أو رهناً، أو عوضا عن الثمن لم يلزم المشتري قبوله، لأن ما استحق أخذه بالعوض لم يلزم قبول الرهن والضمين والعوض فيه كالمبيع في يد البائع [١٥٣].

19-11-2009.indd 114 فى اطلا قع مراج 1/4/2010 7:38:26 PM

المبحث التاسع
الاختلاف في العوض

قد يقع الاختلاف بين الشفيع والمشتري في قدر العوض، أو في تقدير قيمة العرض المبذول من المشتري، أو في صفة العوض، أو جنسه، وسنعرض لذلك في أربع مسائل:

المسألة الأولى: الاختلاف في قدر العوض.

وذلك كأن يقول المشتري أنه اشتراه بمائة مثلاً ويقول الشفيع بل بخمسين فلا يخلو الأمر حينئذ من ثلاث حالات:

الحال الأولى: أن يكون مع أحدهما بينة، فيحكم له بها باتفاق الفقهاء[١٥٤].

الحال الثانية: أن يأتي كل واحد منهما ببينة، وقد اختلف الفقهاء في أيها تقدم على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تقدم بينة الشفيع، وبه قال أبو حنيفة [١٥٥] والحنابلة [١٥٦]

وعللوا له:

- بأنه مدعي، وبينة المدعي مقدمة [١٥٧].
- وبأن بينة الخارج تقدم على بينة الداخل[١٥٨].

القول الثاني:

تقدم بينة المشتري، وهو وجه عند الشافعية[١٥٩] وبه قال أبو يوسف ومحمد بن الحسن من الحنفية [١٦٠].

وعللوا له: بأنها تثبت زيادة، والبينة المثبتة للزيادة أولى[١٦١].

القول الثالث:

أنهما تتساقطان وهو قول للمالكية [١٦٢] وأصح القولين عند الشافعية[١٦٣] وقول للحنابلة[١٦٤].

وعللوا له:

بأن النزاع قد وقع على ما وقع العقد به وهو العوض ولا دلالة لليد عليه، ولا مزية لإحدى البينتين على الأخرى[١٦٥].

وعند هؤلاء إما أن يرجع الأمر إلى الأصل من أن القول المعتبر هو قول المشتري مع يمينه، وقال به بعض المالكية [١٦٦].

أو أن يقرع بينهما لأن بينتيهما قد تعارضتا وأعملتا، وإعمالهما يقتضى المصير إلى الاقتراع، و به قال بعض الحنابلة[١٦٧].

19-11-2009.indd 115 فيراطلا قعماج 1/4/2010 7:38:26 PM

ولعل القول الأول أقرب للرجحان لاعتضاده بالأصل وهو لزوم البينة على المدعي كما في قصة الأشعث بن قيس رضي الله عنه، وفيه: كان بيني وبين رجل أرض باليمن، فخاصمته إلى النبي ﷺ فقال (**هل لك بينة**) فقلت لا، قال (**فيمينه**) قلت: إذن يحلف فقال رسول الله ﷺ عند ذلك (**من حلف على يمين صبر، يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر، لقى الله وهو عليه غضبان**) فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ آل عمران٧٧ [١٦٨].

وفي ذلك ما يدل على تقديم بينته على بينة المدعى عليه.

ولأن في ذلك موافقة للمقصود الشرعي من الشفعة وهي مراعاة مصلحة الشفيع برفع ضرر الشراكة عنه.

الحال الثالثة:

أن لا يكون مع أي واحد منهما بينة.

وقد اختلف الفقهاء فيما يقدم من قوليهما على قولين:

القول الأول: القول قول المشتري، و به قال الجمهور فهو مذهب الحنفية[١٦٩] والمالكية[١٧٠] والشافعية[١٧١]، والحنابلة [١٧٢].

وهل يلزمه اليمين ؟ قال به الحنفية[١٧٣] وبعض المالكية [١٧٤].

ونص جماعة من فقهاء المالكية والشافعية أن قول المشتري مقدم على قول الشفيع إذ كان قوله مما يقبله الحس، أما إذ كان بعيدا فلا يقدم [١٧٥].

وعلل أصحاب هذا القول لمذهبهم بما يلي:

- بأن المشتري هو العاقد فهو أعرف بالثمن من غيره [١٧٦].
- أن الشقص في ملكه فلا ينزع من يده بالدعوي بغير بينة[١٧٧].
- أن المشتري منكر للزيادة، ولا بينة فيصار إلى قوله مع يمينه [١٧٨].

القول الثاني:

أن القول هو قول الشفيع و به قال بعض التابعين [١٧٩].

وعللوا له بأن المشترى قد أقر له بحق الشفعة وادعى عليه مقدارا من الثمن لم يعترف له به، فهو منكر فالقول على هذا قول الشفيع مع يمينه[١٨٠].

والقول الأول أظهر، والحال أن الشفيع طالب آخذ، والمشترى مطلوب مأخوذ منه فهو مدعى عليه فالقول قوله مع يمينه قال ابن قدامة الحنبلي (ت ٦٢٠هـ): (فإن قيل بأن الشفيع غارم

19-11-2009.indd 116 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:26 PM

ومنكر للزيادة فلماذا لا يصار إلى قوله قياسا على الغاصب والمتلف والضامن لنصيب شريكه إذا اعتق ؟ فيجاب عليه بأن الشفيع ليس بغارم لأنه لاشيء عليه وإنما يريد أن يملك الشقص بثمنه بخلاف الغاصب والمتلف) [١٨١].

المسألة الثانية : الاختلاف في تقدير قيمة العوض.

إن كان العوض المبذول من المشترى عرضاً فقد سبق أن الشفيع يبذل له مثله إن كان مثلياً أو قيمته.. فإن اختلفا في قيمة العرض فإنه يعرض على من يقومه من أهل الشأن إن كان موجودا فإن لم يكن موجودا فالقول قول المشتري عند الأئمة الأربعة،واشترط مالك يمينه[١٨٢]. وعللوا لذلك بأن الشقص ملك للمشتري فلا ينزع منه بقول المدعي.

ومحل ذلك إن لم يكن لدى الشفيع بينة [١٨٣].

المسألة الثالثة : الاختلاف في صفة العوض.

وذلك بأن يقول المشتري اشتريت بثمن معجل، ويقول الشفيع بل اشتريته بثمن مؤجل، ولا بينة، فالقول في هذه الحالة هو قول المشتري، نص على ذلك الحنفية [١٨٤] وهو مقتضي قول المالكية والشافعية والحنابلة في المسألة الأولى[١٨٥].

وعللوا له:

- بأن الحلول في الثمن أصل، والأجل عارض، فالمشتري متمسك بالأصل فيكون القول قوله.
- ولأن العاقد أعرف بصفة الثمن من غيره.
- وبأن الأجل يثبت بالشرط، فالشفيع يدعى عليه شرط التأجيل وهو ينكر الزيادة فكان القول قوله [١٨٦].

المسألة الرابعة : الاختلاف في جنس العوض

وذلك كما لو قال المشتري اشتريت بمائة دينار، وقال الشفيع بل بمائة درهم ولا بينة، فالقول هنا قول المشتري، ونص على ذلك الحنفية [١٨٧].

وعللوا له:

- بأن الشفيع يدعي التملك بهذا الجنس والمشتري منكر فكان القول قوله.
- وبأن المشتري أعرف بجنس الثمن من الشفيع لأن الشراء وجد منه لا من الشفيع فكان أعرف به من الشفيع فيرجع في معرفة الجنس إليه.

19-11-2009.indd 117 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:26 PM

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

ففي نهاية هذه الجولة العلمية الموجزة مع أحكام العوض في الشفعة فيمكن إيجاز أهم نتائج هذا البحث فيما يلي:

أولاً: الشفعة هي: استحقاق الشريك انتزاع حصة شريكه المنتقلة عنه من يد من انتقلت إليه بعوض مالي، وقد ثبتت مشروعيتها بالسنة النبوية، وانعقد الإجماع على ذلك، والمقصود الأعظم منها رفع ما يلحق الشريك من ضرر بسبب الشراكة سواءً كان هذا الضرر هو ما ينشأ عن القسمة التي يستوجبها دخول الطرف الأخير، أو كان الضرر هو ما يكون بدوام الشراكة أصلاً وعدم الانفراد بالملك.

ثانياً: ذكر الفقهاء للشفعة شروطاً عديدة أصولها ثلاثة شروط هي:

١- أن يكون المبيع من غير المنقولات، هو العقار، وما يلتحق به من بناء أو غراس.

٢- أن يكون الملك مشاعاً غير مقسوم بين الشركاء، على أن يكون مما يمكن قسمته.

٣- أن يكون الشقص منتقلاً بعوض.

ثالثاً: أن العوض إن كان مثلياً فقد وجب بذل مثله من الشفيع، أما إن كان غير مثلي فإن الشفيع يستحق الشقص حينئذ بقيمته ولا تسقط الشفعة.

رابعاً: أن الوقت المعتبر لقيمة العوض هو وقت البيع وليس وقت الحكم للشفيع بالشفعة.

خامساً: أن الشفيع يأخذ الشقص بما استقر عليه الثمن ابتداءً إن لم يكن ثمة خيار، فإن كان بينهما زمن خيار فبانقضائه. وأن الحط أو الزيادة اللاحقة لا تعتبر في حق الشفيع.

سادساً: أن الشفيع ليس له تأجيل بدل الثمن إذا كان المشتري قد اشترى الشقص بثمن حال. فإن تأخر في بذل العوض أمهل ما يقضي به العرف في المبايعات. وإلا سقط حقه، فإن كان المشتري قد أخذ الشقص بثمن مؤجل فإن للشفيع على الصحيح أن يأخذ بذلك الأجل إذا كان ثقة مليئاً أو أقام ضميناً ملياً.

سابعاً: إذا كان العوض المبذول من المشتري الذمي للشريك الذمي خمراً أو خنزيراً فإن الشفيع المسلم يبذل قيمة الخمر أو الخنزير وليس له أن يبذل مثلهما، لأنه يتعذر عليه تملكهما شرعاً، ولا يسقط حقه في الشفعة لأنها مال عند أهل الذمة.

ثامناً: إذا ظهر أن العوض كان مملوكاً لغير الشفيع أو كان به عيبٌ قادح فالصحيح بقاء شفعته حتى وإن كان عالماً بحال العوض.

118 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:26 PM

تاسعاً: إذا كان الشريك قد جعل الشقص مهراً في نكاح أو عوضاً في خلع أو نحو ذلك فإن الشفعة تثبت للشفيع وعليه أن يبذل القيمة المقدرة عادة لهذا العوض الذي تحصل عليه الشريك على الصحيح.

عاشراً: إذا عجز الشفيع عن بذل العوض في الشفعة فيسقط حقه فيها على الصحيح مراعاةً لمصلحة الشريك.

الحادي عشر: إذا اختلف الشفيع والمشتري في قدر العوض حكم لمن معه بينة منهما. فإن أحضر كل منهما بينة فتقدم بينة الشفيع على الصحيح، وإن لم يكن مع أي واحد منها بينة فالقول قول المشتري مع يمينه على الصحيح إذا لم يعارض الحس، وأما إن اختلفا في تقدير قيمة العوض فيعرض على من يقومه من أهل الخبرة إن وجد. فإن لم يوجد فالقول قول المشتري. وكذلك يقدم قول المشتري عند الاختلاف في صفة العوض أو في جنسه.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل وأن يبارك فيه وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

19-11-2009.indd 119 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:27 PM

الهوامش

(١) انظر: الصحاح (شفع) ٣/ ١٠٢٩، والنهاية ٢/ ٢٤٨، لسان العرب (شفع) ٨/ ١٨٤ والزاهر ١٦١، والمطلع ٢٧٨.

(٢) انظر تحرير ألفاظ التنبيه ٢١٢، والعزيز ٤٨٢/٥.

(٣) انظر لسان العرب (شفع) ١٨٤/٨، والحاوي ٢/٩

(٤) انظر الحاوي ٩/ ٢.

(٥) وهو التعريف الذي اختاره الزركشي من الحنابلة، انظر الإنصاف ٣٥٩/١٥ وقد عُرِّفت الشفعة بتعريفات عديدة، فمن تعريفات الحنفية لها قولهم (هي تملك البقعة جبراً على المشتري بما قام عليه) وقولهم (هي حق التملك في العقار لدفع ضرر الجوار)، ومن تعريفات المالكية قولهم (هي استحقاق شريك أخذ مبيع شريكه بثمنه)، ومن تعريفات الشافعية قولهم (حق تملك قهري يثبت للشريك القديم على الحادث فيما ملك بعوض)، انظر تبيين الحقائق ٣٤٩/٦، وحاشية سعدي جلبي بهامش شرح فتح القدير ٩/ ٣٦٩ وشرح حدود ابن عرفة ٤٧٤/٢، ومغني المحتاج ٢/ ٢٩٦، وانظر أنيس الفقهاء ٢٧١، والدر النقي ٥٢٨/٣.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الشفعة، باب الشفعة في ما لم يقسم، حديث رقم (٢١٣٨) ٧٨٧/٢.

(٧) صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب الشفعة، في ما لم يقسم، حديث رقم (١٦٠٨) ٩٩٥/٣.

والربعة: المنزل ودار الإقامة، انظر النهاية ١٨٩/٢.

والحائط: البستان، انظر القاموس المحيط مادة (حوط) ٨٥٦.

(٨) المغني ٤٣٦/٧ قال ابن قدامه: (ولا نعلم أحداً خالف في هذا إلا الأصم فإنه قال: لا تثبت الشفعة، لأن في ذلك إضراراً بأرباب الأملاك، فإن المشتري إذا علم أنه يؤخذ منه إذا ابتاعه لم يبتعه ويتقاعد الشريك عن الشراء فيستضر المالك، وهذا ليس بشيء لمخالفته الآثار الثابتة والإجماع المنعقد قبله، والجواب عما ذكره من وجهين، أحدهما، أنا نشاهد الشركاء يبيعون ولا يعدم من يشتري منهم من غير شركائهم ولم يمنعهم استحقاق الشفعة من الشراء، الثاني: أنه يمكنه إذا لحقته بذلك مشقة أن يقاسم فيسقط استحقاق الشفعة)، وانظر البيان ٩٩/٧.

(٩) انظر بدائع الصنائع ٤/٥، وتكملة شرح فتح القدير ٢٩٦/٩.

(١٠) انظر المغني ٢٦٨/٢.

(١١) إعلام الموقعين ٣/ ٣٧١.

(١٢) انظر بدائع الصنائع ١٢/٥، واللباب ١٠٩/٢.

(١٣) انظر المهذب ٤٤٦/٣، وروضة الطالبين ١٥٥/٤.

(١٤) انظر المغني ٧/ ٤٣٩، وكشاف القناع ١٣٨/٤.

(١٥) انظر الموطأ ٧١٩/٢، والاستذكار ٢٦٣/٢١، وذكر ابن عبد البر أنه لم يخالف في ذلك إلا بعض أهل مكة في قول شاذ حيث قالوا بأن الشفعة تقع في كل مشاع من منقول وغيره.

(١٦) سبق تخريجه.

(١٧) انظر بدائع الصنائع ١٢/٥، والمغني ٧/ ٤٣٩ - ٤٤٠

وفي الحديث جواب على من احتج بعموم الشفعة في كل ما لم يقسم فإن فيه النص على العقار تحديداً، وفي التعليل جواب على الاعتراض بوجود الضرر في المنقول أيضاً بعدم اعتباره لأن المنقولات لا تدوم كما يدوم العقار فضرر الشراكة فيها أخف فلا يبنى عليه.

(١٨) انظر المدونة ٢١٤/٤، وبداية المجتهد ٢٥٦/٢.

(١٩) انظر المهذب ٤٤٧/٣، ومغني المحتاج ٢٩٧/٢.

(٢٠) انظر المغني ٤٣٦/٧، وكشاف القناع ١٣٨/٤.

120 19-11-2009.indd فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:27 PM

(٢١) انظر بدائع الصنائع ٤/٥، وحاشية ابن عابدين ٣٢٢/٩. وفيهما عرض لأدلة الحنفية في المسألة.
(٢٢) سبق تخريجه.
(٢٣) انظر بداية المجتهد ٢٥٦/٢، والمغني ٤٣٨/٧.
وانظر في الجواب على أدلة الحنفية بداية المجتهد ٢٥٧/٢، والبيان ١٠٢/٧، وكشاف القناع ١٣٨/٤.
(٢٤) انظر إعلام الموقعين ٣٩٢/٣.
(٢٥) انظر المهذب ٤٤٨/٣، وروضة الطالبين ١٥٧/٤.
(٢٦) انظر الاستذكار ٢٦٥/٢١-٣٠٧، والموطأ ٧١٨/٢.
(٢٧) انظر المغني ٤٤١/٧، والإنصاف ٣٧٦/١٥، وهي أصح الروايتين في المذهب.
(٢٨) سبق تخريجه.
(٢٩) انظر المعونة ١٢٨١/٢.
(٣٠) انظر المهذب٤٤٨/٣، والمغني ٤٤٢/٧.
(٣١) انظر اللباب ١٠٩/٢، وبدائع الصنائع ١٢/٥.
(٣٢) انظر المعونة ١٢٨١/٢، والتاج والإكليل ٣١٥/٥.
(٣٣) انظر المغني ٤٤١/٧، والإنصاف ١٥/ ٣٧٧.
(٣٤) سبق تخريجه.
(٣٥) انظر اللباب ١٠٩/٢.
(٣٦) انظر المرجع السابق، والمعونة ١٢٨١/٢، والمغني ٤٤١/٧.
(٣٧) انظر المغني ٤٤١/٧.
(٣٨) انظر بدائع الصنائع ١١/٥، واللباب ١١٤/٢.
(٣٩) انظر المهذب ٤٤٩/٣، وروضة الطالبين ١٦٣/٤.
(٤٠) انظر المغني ٤٤٤/٧.و كشاف القناع ١٣٧/٤.
(٤١) انظر التفريع ٣٠٠/٢، وبداية المجتهد ٢٥٨/٢، والرواية الأخرى عند مالك أن الشفعة تكون فيما انتقل بعوض و بغير عوض إلا الميراث فليس فيه شفعة.
(٤٢) انظر المغني ٤٤٤/٧.
(٤٣) انظر بدائع الصنائع ١١/٥، وتكملة شرح فتح القدير ٤٠٥/٩.
(٤٤) انظر الفتاوى الهندية ٢٣٩/٥، والذخيرة ٣٢٣/٧، ومختصر المزني ١٦٥، ومغني المحتاج ٣٠١/٢، والمغني ٤٨٠/٧.
(٤٥) انظر المراجع السابقة، والحاوي ١٥/٩، وكشاف القناع ١٥٩/٤، والإنصاف ٤٨٩/١٥ مطبوع مع المقنع.
(٤٦) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في مسنده، من طريق الحجاج بن أرطأه عن أبي الزبير عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: (أيما قوم كانت بينهم رباعة أو دار فأراد أحدهم أن يبيع نصيبه فليعرضه على شركائه فإن أخذوه فهم أحق به بالثمن)، انظر الفتح الرباني ١٥/ ١٥٣، وهو ضعيف بهذا اللفظ، انظر إرواء الغليل ٣٧٤/٥، وأصله في صحيح مسلم بدون قوله (بالثمن) انظر صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب الشفعة، حديث رقم (١٣٤) ٩٩٦/٣، وانظر في الاستدلال به المغني ٤٧٩/٧، وكشاف القناع ١٥٩/٤.
(٤٧) انظر مغني المحتاج ٣٠١/٢.
(٤٨) انظر المغني ٤٨٠/٧
(٤٩) انظر المراجع السابقة في العوض المثلي.
(٥٠) انظر البيان ١٢٦/٧، والمغني ٤٨٠/٧.

121 19-11-2009.indd فيراطلا قعماج 1/4/2010 7:38:27 PM

(٥١) انظر المهذب ٤٥٥/٣.
(٥٢) انظر المغني ٧ / ٤٨٠.
(٥٣) انظر المرجع السابق ٤٨٠/٧.
(٥٤) المرجع السابق ٧/ ٤٨٠.
(٥٥) فيه قال ابن حزم. انظر المحلى ٢٢/٨.
(٥٦) انظر بدائع الصنائع ٢٧/٥، وتكملة شرح فتح القدير ٣٩٤/٩.
(٥٧) انظر البيان ١١٧/٧، والعزيز ٥٠٨/٥.
(٥٨) انظر الإنصاف ٤٧٩/١٥، وكشاف القناع ١٥٩/٤.
(٥٩) انظر المدونة ٢٣٢/٤، والمعونة ١٢٨٠/٢.
(٦٠) سبق تخريجه.
(٦١) انظر المغني ٤٨١/٧.
(٦٢) انظر الشرح الكبير ٤٨٠/٩.
(٦٣) انظر البيان للعمراني ١٢٧/٧ ،والمغني لابن قدامة ٤٨١/٧ ،ولم أجده في مظانه من كتب المالكية.
(٦٤) انظر المغني ٤٨١/٧.
(٦٥) انظر البيان ١٢٧/٧
(٦٦) انظر البيان ١٢٠/٧، الروضة ١٧٣/٤.
(٦٧) انظر المغني ٤٨١/٧، وكشاف القناع ١٦٠/٤.
(٦٨) انظر الحاوي ٧٩/٩، والمغني ٤٨١/٧.
(٦٩) انظر البيان ١١٩/٧، والروضة ١٧٣/٤، والمغني ١٦٠/٤، والشرح الكبير ٤٨٣/١٥.
(٧٠) انظر الهداية ٣٥٧/٣، والدر المختار ٦٢٣، واللباب ١١٥/٢.
(٧١) انظر تبيين الحقائق ٨١١/٢، وتكملة شرح فتح القدير ٣٩٤/٩.
(٧٢) انظر تكملة شرح فتح القدير ٣٩٤/٩، ودرر الحكام ٨١١/٢.
(٧٣) انظر مختصر خليل ٢٣٢، ومواهب الجليل ٣٣١/٥، والذخيرة ٣٥٤/٧.
(٧٤) انظر مواهب الجليل ٣٣١/٥.
(٧٥) انظر المرجع السابق، وذكر فيه أنه مذهب المدونة، وأشار إلى أن في المذهب قولا آخر بلزوم الزيادة، وانظر الذخيرة ٣٥٤/٧.
(٧٦) انظر البيان ١٢٠/٧.
(٧٧) انظر روضة الطالبين ٤ /١٧١.
(٧٨) نقله عنه ابن قدامه ٤٨٤/٧ ولم أجده في مظانه.
(٧٩) وهي رواية حرب عن أحمد انظر المغني ٤٨٤/٧، والإنصاف ٤٨٠/١٥.
(٨٠) انظر بدائع الصنائع ٢٥/٥.
(٨١) انظر بدائع الصنائع ٢٥/٥.
(٨٢) انظر روضة الطالبين ١٧١/٤، ومغني المحتاج ٣٠١/٢.
(٨٣) انظر التفريع ٣٠٣/٢، ومواهب الجليل ٣٢٧/٥.
(٨٤) انظر الإنصاف ٤٨٠/١٥.
(٨٥) انظر التنبيه ٣٢٩، ومغني المحتاج ٣٠١/٢.
(٨٦) البيان ١١٩/٧.

122 19-11-2009.indd فيراطلا قعماج 1/4/2010 7:38:27 PM

(٨٧) انظر بدائع الصنائع ٢٥/٥، وشرح العناية، بهامش شرح فتح القدير ٣٨٧/٩.
(٨٨) انظر البيان ١١٩/٧، والمغني ٤٨٤/٧، ومغني المحتاج ٣٠١/٢.
(٨٩) انظر المغني ٤٨٤/٧، والبيان ١١٩/٧.
(٩٠) انظر الذخيرة ٣٤١/٧، وبداية المجتهد ٢٥٩/٢.
(٩١) انظر المغني ٤٨٢/٧، والإنصاف ٤٨٤/١٥.
(٩٢) انظر المهذب ٤٥٣/٣، وروضة الطالبين ١٧٢/٤.
(٩٣) انظر شرح فتح القدير ٣٩٥/٩.
(٩٤) انظر المغني ٤٨٢/٧، والمهذب ٤٥٣/٣.
(٩٥) انظر المغني ٤٨٢/٧.
(٩٦) انظر الذخيرة ٣٤١/٧
(٩٧) انظر الهداية ٣٥٨/٣، وتبيين الحقائق ٣٦٩/٦.
(٩٨) انظر روضة الطالبين ١٧١/٤، والمهذب /٤٥٣، قال النووي وهو الأظهر.
(٩٩) انظر المهذب ٤٥٤/٣، والمغني ٤٨٢/٧
(١٠٠) انظر المهذب ٣،٤٥٤، ومغني المحتاج ٢ /٣٠١.
(١٠١) انظر تبين الحقائق ٣٦٩/٦ وشرح فتح القدير ٣٩٥/٩.
(١٠٢) انظر شرح فتح القدير ٣٩٥/٩.
(١٠٣) ذكر العمراني أن الشافعي قال به في كتاب الشروط، انظر البيان ١٢٣/٧، والمهذب ٤٥٣/٣.
(١٠٤) انظر المهذب ٣ /٤٥٣.
(١٠٥) انظر الذخيرة ٧ / ٣٤١.
(١٠٦) انظر بدائع الصنائع ١٦/٥، وحاشية ابن عابدين ٢٣٩/٩
(١٠٧) انظر مواهب الجليل ٣١٦/٥ ،وعند المالكية قول آخر نسبه الحطاب إلى أشهب أنه يأخذ الشفعة بقيمة الشقص نفسه لا الخنزير أو الخمر.
(١٠٨) انظر الإنصاف ٤٨٨/١٥.
(١٠٩) انظر تبيين الحقائق ٣٧١/٦، وبدائع الصنائع ١٦/٥.
(١١٠) انظر مواهب الجليل ٣١٦/٥.
(١١١) انظر حاشية ابن عابدين ٣٣٩/٩.
(١١٢) انظر مختصر المزني ١٦٦، البيان ١١١/٧.
(١١٣) انظر المغني ٥٢٥/٧، والإنصاف ١٥/ ٤٨٨، وهو أظهر الوجهين عند الحنابلة.
(١١٤) انظر الحاوي ٩٧/٩، وكشاف القناع ١٣٧/٤.
(١١٥) انظر البيان ١١١/٧
(١١٦) انظر الحاوي ٩٧/٩.
(١١٧) أخرجه أبو عبيد في كتاب الأموال ٥٢/١.
(١١٨) انظر المرجع السابق ٥٢/١.
(١١٩) انظر المبسوط ١٠٢/١١.
(١٢٠) أحكام أهل الذمة ٤٠٠/١، وانظر أيضا منه ٦٤/١.
(١٢١) يقال استحق فلان العين فهي مستحقة إذا ثبت أنها حقه، وعرفه بعض الفقهاء بأنه « رفع ملك شيء بثبوت ملك قبله بغير عوض » انظر المطلع ٢٧٥، ومواهب الجليل ٢٩٥/٥.

123 19-11-2009.indd فىراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:27 PM

(١٢٢) انظر العزيز ٥١٨/٥، والشرح الكبير ٤١٩/١٥.
(١٢٣) انظر العزيز ٥١٨/٥، ومغنى المحتاج ٣٠٣/٢.
(١٢٤) انظر المغني ٤٥٩/٨، والشرح الكبير ٤١٩/١٥
(١٢٥) انظر العزيز ٥١٨/٥، والشرح الكبير ٤١٩/١٥.
(١٢٦) انظر العزيز ٥١٨/٥، ومغني المحتاج ٣٠٣/٢.
(١٢٧) انظر الشرح الكبير ٤١٩/١٥.
(١٢٨) انظر الشرح الكبير ٤١٩/١٥، والعزيز ٥١٨/٥.
(١٢٩) انظر بدائع الصنائع ١٢/٥، وتبيين الحقائق ٣٧٧/٦.
(١٣٠) انظر الإنصاف ٣٦٥/١٥، وكشاف القناع ١٣٧/٤.
(١٣١) تبين الحقائق ٣٧٧/٦، وانظر بدائع الصنائع ١٢/٥.
(١٣٢) انظر الشرح الكبير ٣٦٧/١٥.
(١٣٣) انظر البيان ١٢٩/٧، وروضة الطالبين ١٦٣/٤.
(١٣٤) انظر الإنصاف ٣٦٦/١٥.
(١٣٥) انظر المهذب ٤٤٩/٣.
(١٣٦) انظر البيان ١٢٩/٧، والمهذب ٤٤٩/٣.
(١٣٧) انظر المدونة ٢٤٧/٤، وبداية المجتهد ٢٥٩/٢.
(١٣٨) انظر بداية المجتهد ٢٥٩/٢.
(١٣٩) انظر المعونة ١٢٧٢/٢.
(١٤٠) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح، حديث رقم (٤٨٢٩) ١٩٦٨/٥ ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قران، حديث رقم (١٤٢٥) ٨٤٤/٢.
(١٤١) انظر الإعلام بفوائد عمدة الأحكام ٢٩٨/٨.
(١٤٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، حديث رقم (٢١٥٦)، ٧٩٥/٢، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، حديث رقم (٢٢٠١)، ١٣٧٨/٤، واللفظ لمسلم
(١٤٣) انظر معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء ٢٩٤
(١٤٤) انظر بدائع الصنائع ١٢/٥، والمبسوط ٧٩/١١، والأخير تضمن بسطاً لمذهب الحنفية ومخالفيهم في المسالة يحسن مطالعته.
(١٤٥) انظر المهذب ٤٥٢/٣، والبيان ١١٩/٧.
(١٤٦) انظر المغني ٤٨٤/٧، وكشاف القناع ١٥٩/٤.
(١٤٧) انظر بدائع الصنائع ٢٤/٥،وحاشية ابن عابدين ٣٣٢/٩ ،وهي رواية الحسن عن أبي حنيفة وعن محمد بن الحسن.
(١٤٨) انظر المهذب ٤٥٢/٣، والشرح الكبير ٤٧٩/١٥.
(١٤٩) انظر بدائع الصنائع ٢٥/٥، وحاشية ابن عابدين ٣٣٢/٩، وهي ظاهر رواية الأصل.
(١٥٠) انظر المراجع السابقة وتكملة شرح فتح القدير ٣٨٧/٩، وهذا التعليل مفهوم من عباراتهم لا بنصها.
(١٥١) انظر المبحث الرابع.
(١٥٢) انظر كشاف القناع ١٥٩/٤.

124 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:27 PM

(١٥٣) انظر المهذب ٤٥٢/٣، والشرح الكبير ٤٧٩/١٥، ومثل ذلك الضمانات البنكية المختلفة، والشيكات المؤجلة ونحوها.

(١٥٤) انظر الهداية ٣٥٦/٣، وتبيين الحقائق ٣٦٥/٦، والمعونة ١٢٨٢/٢، بداية المجتهد ٢٦٤/٢، روضة الطالبين ١٧٩/٤، مغني المحتاج ٣٠٤/٢، والمغني ٤٩٠/٧، الإنصاف ٤٨٨/١٥. وقد نص الفقهاء على أن البينة التي تقبل هنا شاهدان رجلان، أو شاهد ويمين، أو شهادة رجل وامرأتين، انظر المغني ٤٩٠/٧، والبيان ١٧١/٧. والظاهر أنه يلتحق بذلك كل وثيقة معتبرة اليوم كصكوك الشراء ونحوها فإن تضمنت قدر العوض كانت كافية في قطع النزاع.

(١٥٥) انظر تبيين الحقائق ٣٦٥/٦، والفتاوى الهندية ٢٣٠/٥.

(١٥٦) انظر الإنصاف ٤٨٩/١٥، والشرح الكبير ٤٩٠/١٥.

(١٥٧) انظر درر الحكام ٨١٢/٢ والفتاوى الهندية ٢٣٠/٥

(١٥٨) انظر المغني ٤٨٩/٧.ولعل مقصودهم بالخارج من ليس طرفاً في العقد، وهو هنا الشفيع.

(١٥٩) انظر روضة الطالبين ١٨٠/٤، ومغني المحتاج ٣٠٤/٢.

(١٦٠) انظر تبين الحقائق ٣٦٥/٦، والفتاوى الهندية ٢٣٠/٥.

(١٦١) انظر المرجعين السابقين.

(١٦٢) انظر بداية المجتهد ٢٦٥/٢.

(١٦٣) انظر روضة الطالبين ١٨٠/٤.

(١٦٤) انظر الإنصاف ٤٨٩/١٥.

(١٦٥) انظر البيان ١٧١/٧، وروضة الطالبين ١٨٠/٤.

(١٦٦) انظر المعونة ١٢٨٢/٢، وبداية المجتهد ٢٦٤/٢.

(١٧٠) انظر المغني ٤٨٩/٧، والإنصاف ٤٨٩/١٥.

(١٧١) والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، باب الخصومة في البئر والقضاء فيها، حديث رقم (٢٢٢٩) ٨٣١/٢، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار حديث رقم(١٣٨) ١١٣/١ والحديث من رواية ابن مسعود رضى الله عنه، واللفظ لمسلم. وصَبِّر بفتح الصاد وسكون الباء قال في النهاية ٨/٣: حديث ((من حلف على يمين صبر)) أي أُلزم بها وحبس عليها، وكانت لازمة لصاحبها من جهة الحكم.

(١٧٢) انظر الهداية ٣٥٦/٣، وتبيين الحقائق ٣٦٥/٦.

(١٧٣) انظر المعونة١٢٨٢/٢، وبداية المجتهد ٢٦٤/٢.

(١٧٤) انظر مختصر المزني ١٦٣، البيان ١٧١/٧

(١٧٥) انظر المغني ٤٨٩/٧، والإنصاف ٤٨٨/١٥

(١٧٦) انظر تبيين الحقائق ٣٦٥/٦، ودرر الحكام ٨١٢/٢.

(١٧٧) انظر المعونة ١٢٨٢/٢، وبداية المجتهد ٦٤٢/٢.

(١٧٨) انظر بداية المجتهد ٦٤٢/٢، ومغني المحتاج ٣٠٤/٢.

(١٧٩) انظر المغني ٤٨٩/٧، وكشاف القناع ١٦٠/٤.

(١٨٠) انظر المهذب ٤٦٩/٣، والمغني ٧ /٤٨٩.

(١٨١) انظر تبيين الحقائق ٣٦٥/٦، وبداية المجتهد ٢٦٤/٢.

(١٨٢) انظر الاستذكار، ٢٦٩/٢١، وبداية المجتهد ٢٦٤/٢، ولم يسميا من ذهب إليه من التابعين.

(١٨٣) انظر المرجعين السابقين.

125 19-11-2009.indd فىراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:27 PM

(١٨٤) المغني ٤٨٩/٧.

(١٨٥) انظر تبيين الحقائق ٣٦٥/٦، ودرر الحكام ٨١٢/٢. والبيان ١٧٣/٧، وروضة الطالبين ١٧٩/٤، والمغني ٤٩٠/٧، والشرح الكبير ٤٩١/١٥، والاستذكار ٢٦٨/٢١.

(١٨٦) انظر المهذب ٤٦٩/٣، الاستذكار ٢٦٨/٢١.

(١٨٧) انظر بدائع الصنائع ٣١/٥، والفتاوى الهندية ٢٣٤/٥.

(١٨٨) ولعلهم لم ينصوا على هذه المسألة بعينها اكتفاء بمسألة الاختلاف في المقدار لأن هذه المسألة تؤول إليها.

(١٨٩) انظر بدائع الصنائع ٣١/٥.

(١٩٠) انظر بدائع الصنائع ٣١/٥، والفتاوى الهندية ٢٣٠/٥، ويقال هنا ما قيل في المسألة السابقة من أن مقتضى قول بقية أئمة المذاهب في المسألة الأولى أن يقدم قول المشترى كذلك هنا فإن هذه المسألة تؤول إلى مسألة المقدار باعتبار الجنس الذي يزعمه الشفيع أقل في العادة مما يدعيه المشتري ولم أجد النص عليها بعينها في كتبهم.

فهرس المصادر والمراجع

١- **أحكام أهل الذمة**، محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) تحقيق صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

٢- **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٥هـ.

٣- **الاستذكار**، يوسف بن عبدالله بن عبدالبر، تحقيق د.عبد المعطي قلعجي، دار قتيبة بدمشق ودار الوعي بالقاهرة، ط١، ١٤١٤هـ.

٤- **الإعلام بفوائد عمدة الأحكام**، عمر بن علي الشافعي (ابن الملقن)، تحقيق عبدالعزيز المشيقح، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٢١هـ.

٥- **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية)، تحقيق مشهور آل سليمان، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٣هـ.

٦- **الأموال**، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق محمد خليل هراس،مكتبة الكليات الأزهرية ط٣، ١٤٠١هـ.

٧- **الإنصاف في معرفة الرّاجح من الخلاف**، مطبوع مع المقنع والشرح الكبير، علي بن سليمان المرداوي، تحقيق د.عبدالله التركي، دار هجر، ط١، ١٤١٥هـ.

٨- **أنيس الفقهاء**، قاسم القونوي، تحقيق: أحمد الكبيسي. دار الوفاء، جدّة، ط١، ١٤٠٦ هـ

٩- **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، علاء الدِّين أبي بكر بن مسعود الكاساني. دار الكتب العلمية، بيروت. ط٢، ١٤٠٦هـ.

١٠- **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، محمَّد بن رشد القرطبي. دار المعرفة. بيروت. ط٣، ١٤٠٥ هـ.

١١- **البيان**، يحيى بن سالم العمراني. تحقيق: قاسم النوري. دار المنهاج.

١٢- **التاج والإكليل لمختصر خليل**- بهامش مواهب الجليل، محمد بن يوسف (المواق)، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ.

١٣- **تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق**، عثمان بن علي الزيلعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

١٤- **تحرير ألفاظ التنبيه**، يحيى بن شرف النَّووي، تحقيق: عبد الغني الدقر. دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٨ هـ.

١٥- **التفريع**، عبيد اللّه بن الحسين بن الجلاب، تحقيق: حسين الدهماني. دار الغرب الإسلامي. ط١، ١٤٠٨ هـ.

١٦- **التنبيه في فقه الإمام الشافعي**، إبراهيم بن علي الشيرازي،تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الأرقم، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

١٧- **حاشية ابن عابدين**، محمد أمين، تحقيق عادل عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.

126 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:27 PM

١٨- **حاشية سعدي جلبي**- بهامش شرح فتح القدير، دار الفكر، ط٢.
١٩- **الحاوي**، علي بن محمد الماوردي، تحقيق د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.
٢٠- **الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار**، محمد علي الحصكفي، تحقيق عبدالمنعم إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.
٢١- **درر الحكام شرح مجلة الأحكام**، **علي حيدر**، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٢- **الدرّ النقيّ في شرح ألفاظ الخرقي**، يُوسف بن عبد الهادي الحنبلي، إعداد رضوان غريبة. دار المجتمع، جدّة. ط١، ١٤١١ هـ.
٢٣- **الذّخيرة**، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق محمد أبو خبزة، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٤م.
٢٤- **روضة الطّالبين**، **يحيى بن شرف النَّووي**، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعليّ معوّض. دار الكتب العلميّة، بيروت.
٢٥- **الزاهر في غرائب ألفاظ الإمام الشَّافعيّ**، أبو منصور الأزهري، تحقيق: مسعد السعدني. دار الطلائع، القاهرة
٢٦- **شرح حدود ابن عرفة**، محمد الأنصاري الرصاع، تحقيق محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣م.
٢٧- **شرح العناية على الهداية**، محمد بن محمود البابرقي، مطبوع بهامش شرح فتح القدير، دار الفكر، بيروت، ط٢.
٢٨- **شرح فتح القدير**، محمد عبدالواحد السيواسي، دار الفكر، بيروت، ط٢.
٢٩- **الشرح الكبير**، عبد الرَّحمن بن قدامة المقدسي، مطبوع مع المقنع والإنصاف، دار هجر، ط١، ١٤١٥هـ.
٣٠- **الصحاح**، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ط١، ١٤١٩ هـ
٣١- **صحيح البخاري**، محمَّد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى البغا. دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، ط٥، ١٤١٤ هـ.
٣٢- **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجّاج النيسابوري. دار ابن حزم، ومكتبة المعارف، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ.
٣٣- **العزيز شرح الوجيز**، عبد الكريم الرافعي الشَّافعيّ. تحقيق: عليّ معوّض، وعادل عبد الموجود. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ.
٣٤- **الفتاوى الهندية**، الشيخ نظام، ضبطها عبداللطيف حسن عبدالرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.
٣٥- **الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**، أحمد البنا، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٦- **كشاف القناع عن متن الإقناع**، منصور بن يونس البهوتي، عالم الكتب، بيروت.
٣٧- **اللباب في شرح الكتاب**، عبدالغني الدمشقي، دار الكتاب العربي، بيروت، تحقيق محمود النواوي.
٣٨- **لسان العرب**، محمَّد بن مكرم بن منظور. دار صادر، بيروت.
٣٩- **المبسوط**، شمس الدِّين السرخسي. دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٩هـ.
٤٠- **المحلى**، علي بن حزم الأندلسي، تحقيق عبدالغفار البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ.
٤١- **مختصر خليل**، خليل بن إسحاق المالكي. دار الفكر. ط ١٤٠١ هـ.
٤٢- **مختصر المزنيّ**، إسماعيل بن يحيى المزنيّ، تحقيق: محمَّد شاهين. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ.
٤٣- **المدونة**، مالك بن أنس، تصحيح أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
٤٤- **المطلع على أبواب المقنع**، محمَّد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي. المكتب الإسلامي، دمشق، ط١، ١٣٨٥هـ.
٤٥- **معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء**، د. نزيه حمّاد، الدار العالمية، للفكر الإسلامي، ط٣، ١٤١٥.
٤٦- **المعونة على مذهب عالم المدينة**، عبد الوهاب البغدادي، تحقيق: د. حميش عبد الحقّ. مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٥ هـ.
٤٧- **المغني**، عبد اللّه بن أحمد بن قدامة، تحقيق: عبداللّه التركي و د. عبدالفتّاح الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، ط٣، ١٤١٧هـ.

127 19-11-2009.indd فىراطلا ةعمجا 1/4/2010 7:38:27 PM

٤٨- **مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج**، محمَّد الشربيني الخطيب، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ،مصر، ١٣٧٧ هـ.

٤٩- **المهذب في فقه الإمام الشافعي**، أبو إسحاق الشيرازي، تحقيق: محمَّد الزّحيلي. دار القلم، دمشق. الدار الشامية، بيروت. ط١، ١٤١٧ هـ.

٥٠- **مواهب الجليل لشرح مختصر خليل**، محمَّد بن محمد المغربي. دار الفكر. ط٢، ١٣٩٨هـ.

٥١- **الموطأ**، مالك بن أنس، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية.

٥٢- **النهاية في غريب الحديث والأثر**، مبارك بن محمد الجزري (ابن الأثير)، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ.

٥٣- **الهداية شرح بداية المبتدى**، علي بن أبي بكر المرغيناني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢١هـ.

128 19-11-2009.indd فىاطلا قعماح 1/4/2010 7:38:28 PM

٢

اللغة العربية وآدابها

19-11-2009.indd 129 فى الطراغ ماجستير 1/4/2010 7:38:28 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 130 1/4/2010 7:38:28 PM

سورة القمر - دراسة أسلوبية

د. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي

أستاذ مشارك

كلية التربية والآداب - تربة - جامعة الطائف

فى اطار المؤتمر الدولى الثالث 19-11-2009.indd 131 1/4/2010 7:38:28 PM

فى الطائرة 19-11-2009.indd 132 1/4/2010 7:38:28 PM

الملخص

يتناول البحث سورة القمر بالدراسة الأسلوبية التي يرجى من خلالها الكشف عن أسرار النظم القرآني في جوانبه الدلالية المعجمية والصوتية والصرفية والنحوية، ملتزما الأسس التالية:

١- تحديد الغرض العام للنص أو فكرته الأساسية.

٢- تقسيم النص إلى وحدات أو فقر تشتمل كل فقرة على فكرة أساسية تتلاحم فيما بينها لتشكل من خلال وحدتها الموضوعية موضوع النص وغرضه العام.

٣- تغطية كافة المستويات اللغوية الدلالية بالوقوف على أبرز مظاهر التطابق بين الفكرة والوسائل التعبيرية على كل من:

أ-المستوى المعجمي: وينظر فيه إلى الدلالة المعجمية للكلمة ومدى مناسبتها للسياق والمقام الذي وردت فيه.

ب-المستوى الصوتي: وينظر فيه إلى التركيب الصوتي للكلمة وسماتها الصوتية،ومدى مناسبة ذلك للسياق والمقام الذي وردت فيه.

ج-المستوى الصرفي: ينظر فيه إلى الصياغة الصرفية للكلمة من حيث كونها اسما أو فعلا أو حرفا، ومن حيث أقسام كلٍّ من الاسم والفعل ومدى مناسبة كلٍّ لسياقه ومقامه كذلك.

د-المستوى النحوي (التركيبي): وينظر فيه إلى الإسناد والتراكيب والأساليب من حيث المباحث البلاغية المختلفة ومناسبتها لسياقها ومقامها.

٤- يتم التحليل على أساس النظر في الإجراءات الأسلوبية من جهة الاختيار والعدول والتكرار ومدى مطابقة ذلك كلّه للمعاني والأفكار الواردة بالنص.

133 19-11-2009.indd فىراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:28 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 134 1/4/2010 7:38:28 PM

ثمة مزاعم لا أساس لها من الصحة أن القرآن الكريم لم يعد مجالا للدراسات الفنية أو البلاغية بحجة أن القرآن الكريم قد توفرّ عليه المفسرون القدامى والمحدثون وأولوه عناية فائقة لاسيما بلاغته ومعانيه وأساليبه، وقد كثرت الدراسات البلاغية في ذلك وتعددت بما لا يدع مجالا للزيادة عليها.

ونحن نشكك في هذه المقولة -بل نرفضها رفضًا قاطعًا- وهذا الرفض ليس عن هوى وعاطفة للقرآن الكريم بقدر ما هو نتيجة استقراء تام للدراسات البلاغية القديمة وما أسهمت به في الكشف عن جماليات النص القرآني.

ورغم تلك الجهود الجليلة في الدراسات البلاغية للقرآن الكريم؛ فإننا نستطيع أن نقرر -رغم ذلك- أن البلاغة العربية- لا سيما الجانب النظري منها- قد ظلمت الكلمة المفردة من جهة النظر البلاغي إلى حد كبير، وليس المقصود أن نصف الكلمة المفردة بالفصاحة أو البلاغة خارج سياقها؛ فهذا أمر مفروغ منه؛ فالكلمة خارج السياق لا توصف بفصاحة ولا بلاغة؛ وإنما المقصود هو الوقوف بالدراسة المتأنية أمام الطاقات الدلالية لهذه الكلمة داخل سياقها من كافة النواحي والمستويات (الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية والمقامية..) والأمر الذي نقرره لا يحتاج في إثباته إلا أن ننظر نظرة سريعة إلى مباحث علوم البلاغة الثلاثة ومقدمتها الفصاحة.

وإذا ما استثنينا الفصاحة التي اعتبرها البلاغيون بمثابة المقدمة السريعة للبلاغة، وليس علما مستقلاً بذاته [١] -حيث تخصص صفحات معدودة لدراسة الكلمة المفردة - فلا نكاد نجد في العلوم الثلاثة ما يستدرك النقص الذي أشرنا إليه.

فمباحث علم المعاني كلها تتعلق بالإسناد والتركيب.

ومباحث علم البيان وإن كان بها نظر إلى الدلالة المعجمية للكلمة واستعمالها من جهة الحقيقة والمجاز؛ فإنها قد اقتصرت على مباحث البيان المعروفة المعدودة (التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز)

أما الوقوف لاستجلاء ظلال الكلمة وإيحاءاتها إذا لم تكن تشبيها ولا استعارة ولا كناية ولا مجازا فلا تكاد تظفر فيه بشيء.

وعلم البديع قد يقف عند بعض السمات الصوتية كالسجع والجناس ونحو ذلك، غير أن استجلاء السمات الصوتية للكلمة لا يقف بالضرورة من الناحية الأسلوبية عند حدود مباحث علم البديع على كثرتها.

19-11-2009.indd 135 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:28 PM

وغني عن البيان أن نقرر أن دراسات البلاغيين القدامى وإن لم تكن باتساع الدراسة الأسلوبية في تحليل الكلمة والكلام فإنها لم تكن تضيق عن دراسة تلك المستويات جميعا حيث لم تكن الدراسة حينئذ تفرق بين ما هو أصوات وما هو صرف أو معجم أو نحو أو دلالة أو بيان..

فهذه الدراسات كانت تتواكب جميعها وتتلاحم في عمل الناقد أو البلاغي وتصدر عن رؤية واحدة، ونظرة واحدة إلى اللغة في التحليل للنصوص وهى استجلاء طاقاتها الكامنة على جميع المستويات اللغوية المعروفة.

كما أننا نقرر كذلك أن الدراسات التطبيقية في كتب المفسرين للقرآن الكريم وشراح الحديث النبوي، قد استدركت كثيرا مما فات البلاغيين التنظيريين في ذلك؛ وإن كانت لا تقدم في ذلك بطبيعة الحال ما يصلح أن يمثل نظرية متكاملة.

والآن، وقد استنارت الدراسات البلاغية الحديثة بتلك الرؤى الأسلوبية المعاصرة – التي تستجلي جميع بنى النص ومفرداته على كافة المستويات اللغوية – رأيت أن من الضروري أن أستجلي بعض معطيات النص القرآني الكريم في سورة "القمر" في كافة المستويات اللغوية التي سبق الإشارة إليها.

وقد قام منهج الدراسة الأسلوبية [٢] لهذا البحث على الأسس التالية:

١- تحديد الغرض العام للنص أو فكرته الأساسية.

٢- تقسيم النص إلى وحدات أو فقر تشتمل كل فقرة على فكرة أساسية، وتتلاحم هذه الأفكار فيما بينها لتشكل من خلال وحدتها الموضوعية موضوع النص وغرضه العام.

٣- تحليل الوسائل التعبيرية الموظفة في النص للتعبير عن أفكاره وذلك على مستوى المفردات والتراكيب لبيان مدى اتفاقها ومناسبتها للفكرة المعبرة عنها.

٤- تغطية كافة المستويات اللغوية الدلالية بالوقوف على أبرز مظاهر التطابق بين الفكرة والوسائل التعبيرية على كل من:

أ-المستوى المعجمي: وينظر فيه إلى الدلالة المعجمية للكلمة ومدى مناسبتها للسياق والمقام الذي وردت فيه، ويدخل في ذلك النظر إلى دلالة هذه الكلمة من حيث الحقيقة والمجاز لتشمل مباحث علم البيان المعروفة من حيث التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، كما يدخل في ذلك كثير من مباحث علم البديع التي تتأسس أو تتفرع على الدلالة المعجمية كالطباق والمقابلة والتورية والأسلوب الحكيم والمذهب الكلامي ونحو ذلك.

136 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:28 PM

ب-المستوى الصوتي: وينظر فيه إلى التركيب الصوتي للكلمة وسماتها الصوتية من حيث ما تتسم به حروفها من الترقيق أو التفخيم أو الهمس أو الجهر أو الانفتاح أو الإطباق أو الصفير أو التكرارية أو القلقلة أو الاستعلاء أو تجانس الحروف وتناغمها، أو تراكبها وتعاظلها ونحو ذلك، ومدى مناسبة ذلك للسياق والمقام الذي وردت فيه، ويدخل في ذلك الإفادة من بعض ما ذكره البلاغيون في مبحث الفصاحة من خلال نظرة أسلوبية وبلاغية معاصرة، كما يدخل في ذلك بعض مباحث علم البديع التي تتأسس أو تتفرع على التشكيل الصوتي للكلمة كالجناس أو السجع بأنواعهما.

ج-المستوى الصرفي: ينظر فيه إلى الصياغة الصرفية للكلمة من حيث كونها اسما أو فعلا أو حرفا، ومن حيث أقسام الاسم إلى اسم فاعل أو مفعول أو صيغة مبالغة أو مشتق من المشتقات أو اسم مرة أو هيئة أو مصدرا من المصادر أو غير ذلك، ومن حيث أقسام الفعل إلى ماض ومضارع وأمر وأفعال مطاوعة وصيغ المجرد والمزيد بأوزانها المختلفة وغير ذلك، ويستفاد في بعض ذلك مما ذكره البلاغيون والمفسرون من مباحث الإسناد من التفريق بين دلالتي كل من الاسم والفعل ونحو ذلك.

د-المستوى النحوي (التركيبي): وينظر فيه إلى الإسناد والتراكيب والأساليب من حيث مباحث علم المعاني المختلفة وتنوع الأساليب من حيث الخبرية والإنشائية، والإيجاز والإطناب، والفصل والوصل، ونحو ذلك وما يعرض للتركيب الإسنادي من حيث التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير، ونحو ذلك.

٥-يتم التحليل على أساس النظر في الإجراءات الأسلوبية من جهة:

أ-اختيار وسائل تعبيرية معينة.

ب-العدول عن وسيلة تعبيرية إلى وسيلة أخرى.

ج-التكرار الأسلوبي لوسيلة تعبيرية على مدار النص.

وقد تم النظر من جهة البحث في مدى تطابق ذلك الاختيار أو العدول أو التكرار ومناسبته لأغراض النص وأفكاره.

٦-بيان أهم السمات الأسلوبية لهذه السورة الكريمة وذلك في خاتمة البحث.

المقصد العام والمقاصد الأساسية:

نستطيع أن نحدد المقصد العام لهذه السورة من خلال القراءة الأولى لآياتها حيث تدور جميع هذه الآيات حول مقصد واحد هو:

137 19-11-2009.indd فيراطلا فغمراح 1/4/2010 7:38:28 PM

قضية الإيمان بالله تعالى وإثبات النبوة والبعث:

ويتكون هذا المقصد من عدد من المقاصد الفرعية التي تتلاحم فيما بينها في نسيج واحد للدلالة على هذا المقصد العظيم.

وذلك حيث تبدأ السورة بـ

١- تقرير البعث والجزاء وتأكيده:

وذلك في قوله تعالى:

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾.

٢ - ترهيب المكذبين بالبعث:

وذلك في قوله تعالى:

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

٣- بيان حال المكذبين من الأمم السابقة وسوء عاقبتهم:

أ - تكذيب قوم نوح:

وذلك في قوله تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

ب - تكذيب عاد:

وذلك في قوله تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

138 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:28 PM

ج - تكذيب ثمود:

وذلك في قوله تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

د - تكذيب قَوْمُ لُوطٍ:

وذلك في قوله تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

هـ - تكذيب قَوْمُ فرعون:

وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾.

٤- ترهيب الكافرين وتخويفهم بعاقبة المكذبين من قبلهم:

وذلك في قوله تعالى:

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

٥ - تقرير البعث وترهيب المكذبين به:

وذلك في قوله تعالى:

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

139 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:28 PM

٦- ترغيب وتبشير المؤمنين بالبعث المتقين لربهم:

وذلك في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾

التحليل الأسلوبي للسورة:

إذا نظرنا إلى مقاصد هذه السورة وجدنا أن جميع آياتها يدور حول مقصد واحد هو:

قضية الإيمان بالله تعالى وإثبات النبوة والبعث:

ويتكون هذا المقصد من عدد من المقاصد الفرعية التي تتلاحم فيما بينها في نسيج واحد للدلالة على هذا المقصد العظيم.

وذلك حيث تبدأ السورة بـ

المقصد الأول: تقرير البعث والجزاء وتأكيده:

وذلك في قوله تعالى:

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾.

حيث يؤكد الله تعالى أن الساعة التي يكذب بها هؤلاء الكافرون ويستبعدونها هي جدٌّ قريبة؛ حيث ظهرت إحدى آياتها الدالَّة عليها، وهي انشقاق القمر شقين، وانفلاقه فلقتين في صورة مادية واضحة للعيان، لا ينكرها إلا البهت والعميان.

ورغم ذلك فهؤلاء الكافرون معرضون جاحدون لأدلة الإيمان وبراهينه الساطعة.

وهذا هو شأنهم وديدنهم وطبيعتهم التي دأبوا عليها من الجحود والعناد والاستكبار ﴿ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾. وتكذيبهم وعنادهم هذا ليس عن أدلة وبراهين تعارض ما جاء به الرسل؛ وإنما هو اتباع لأهوائهم الزائغة عن الحق والمعرضة عنه؛ وذلك رغم وضوح الحق واستقرار أمره، ورغم ما جاءهم من الأنباء الزاجرة بأحوال المكذبين من قبلهم وما حلَّ بهم من العذاب والنكال في حكمة بالغة مؤثرة، ولكن ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون؟. أي: ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ مع هؤلاء الكفرة[٢].

التحليل الأسلوبي للوسائل التعبيرية المعبرة عن هذا المقصد:

يظهر التوظيف الأسلوبي للغة على كافة مستوياتها لتتضافر الدلالات اللغوية المختلفة في مناسبة هذا المقصد:

140 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:28 PM

١- على المستوى المعجمي:

نجد توظيف الكلمات ذات الدلالة المعجمية المتناغمة مع المقصد السابق كما في الكلمات:

(اقْتَرَبَتِ): اختيار الفعل (اقترب) دون نظائره في هذا السياق جاء مناسبا لمقابلة استبعادهم هذا اليوم كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[٤] مما يوحي بدنوِّ وقت الساعة التي يُكذِّب بها الكافرون.

(السَّاعَةُ): اختار التعبير بالساعة دون غيرها من أسماء القيامة الكثيرة، ودون التعبير باليوم مثلا ؛ وذلك لتقريب زمانها ؛ والإيحاء بسرعة أمرها، خلافا لما يعتقده المكذبون من استبعاد زمانها ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٥] وقوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[٦] ومن ثم تظهر النكتة بين التعبير على لسان الكافر المستبعد لها باليوم في قوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٧]. حيث عبر عن استبطاء زمان وقوعها بأمور منها:

١- السؤال الذي جاء للاستبعاد والتهكم.

٢- لفظ (أيَّان) للدلالة على استبعاد الزمان، مع ما فيه من دلالة المدِّ.

٣- لفظ (يوم) الذي يناسب طول الزمان واستبعاده دون لفظ (الساعة).

٤- لفظ (القيامة) الذي يدل على القيام بعد الرقود مما يناسب دلالة الاستبطاء والاستبعاد.

ومن ثم يظهر الإعجاز الأسلوبي للقرآن في اختيار لفظ (يوم القيامة) في الكلام على لسان المكذبين المستبعدين له، واختيار لفظ (الساعة) لبيان سرعة البعث في جواب المستبعدين له المستبطئين إياه.

(انْشَقَّ الْقَمَرُ): اختيار الفعل (انشق)- بما له من دلالة حسيَّة بصريَّة واضحة للعيان - جاء مناسبا للدلالة على وضوح هذه الآية البينة[٨].

كما أن التعبير بالقمر بما له من دلالة بصرية واضحة كذلك، وجعله مناط المعجزة لهو أقوى دليل على وضوح هذه الآية.

وأرى - والله أعلم - أن اختيار القمر مناطا لهذه المعجزة دون الشمس إنما هو لكونه أمكن في الرؤية من الشمس لإمكان النظر إليه والتحديق فيه مع أمن الأذى للبصر دون أن يرتد البصر خاسئا وهو حسير، وأيضا "فإن العرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وضح"[٩].

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ لا اختيار التعبير بـ(إن) الشرطية تفيد وقوع الإعراض منهم بمجرد حصول أدنى رؤية للآيات دون تحقق منهم واستبانة فثمة تلازم بين الرؤية والإعراض.

141 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:28 PM

كما أن التعبير بالآية يدل على أنها علامة ظاهرة ودليل واضح على الحق، ومع ذلك فهم معرضون عن هذه الآيات.

كما أن التعبير بالإعراض يدل على مدى النفور والكراهية للحق والتولّي عنه." والإعراضُ عن الشيء: الصدُّ عنه"[١٠].

﴿ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾: ادعاؤهم في القرآن بأنه سحر يتناسب مع ما يدعونه فيه من الكذب والتمويه.

"**السِّحْرُ: الأخذة التي تأخذ العين حتى تظن أن الأمر كما يرى**"[١١]، كما أنه يتناسب بلا وعي منهم مع التعبير عن أثر هذا القرآن في نفوسهم، وأنه يفعل فيها فعل السحر من حيث كونها مأخوذة بأسر بيانه وإعجاز.

"وللعرب في السحر خيال واسع وهو أنهم يزعمون أن السحر يقلب الأعيان ويقلب القلوب ويطوع المسحور للساحر ولذلك كانوا يقولون إن الغول ساحرة الجن ولذلك تتشكل للرائي بأشكال مختلفة" [١٢]

ويناسب ذلك وصف هذا السحر بأنه مستمرّ؛ إما من الاستمرار لبيان دوام أثره وعدم انقطاعه ؛ لأن السحر يكون دوامه بدوام أثره ؛ فإذا انتهى أثره بطل عمله وانقطع فعله، قال أبو حيان:"ويقولوا: (سحر مستمر): أي دائم، ومنه قول الشاعر:

ألا إنما الدنيا ليال وأعصر وليس على شيء قويم بمستمر

لما رأوا الآيات متوالية لا تنقطع، قالوا ذلك[١٣] وإما من المرّة أي القوَّة كما في قوله تعالى في وصف جبريل عليه السلام: ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾[١٤] أي ذو قوة ؛ فوصفوا هذا السحر بأنه سحر متمكن قوي فلا يسهل حلّه أو إبطاله[١٥]، وهذا أيضا يفيد دوامه واستمراره، ومن ثم ترجح اختيار هذه الكلمة على نظائرها لهذا السياق نحو (قوي، أو شديد) ونحوهما؛ وذلك لأن هذه الكلمة جمعت في معناها بين معني القوة ودوام الأثر وغيرها من المعاني[١٦].

﴿ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾: أتبع وصفهم بالتكذيب الوصف بأنهم قد اتبعوا أهواءهم بيانا لعلَّة هذا التكذيب، وأنه ليس عن برهان أو دليل معارض ؛ ولكن لمجرد الهوى.

وعبّر بـ(اتبعوا أهواءهم) ليصورهم في صورة الأسير الذليل المنقاد للهوى المستسلم له دون بصيرة أو رويّة، وهي صورة فنية رائعة (استعارة مكنية) تجعل الهوى قائدا لهم وهم منقادون له في ذلَّة وصغار، كم أنها (كناية) كذلك عن وصفهم بالعمى والبهيمية والاستسلام والانقياد الأعمى لرغباتهم وأهوائهم.

فى اطلا قع م اح 19-11-2009.indd 142 1/4/2010 7:38:29 PM

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾: اختار التعبير بـ(مُسْتَقِرٌّ) للدلالة على ثبات الأمر ووضوحه فليس في الأمر اضطراب يدعو للشك أو القلق والتردد ؛ بل (كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ) أمر الإيمان بما يشتمل عليه من الحقائق الثابتة المستقرة، وأمر الكفر بما يشتمل عليه من الكذب والبهتان المستقر بطلانه وضلاله كذلك[١٧].

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾: أتى باللام وقد للتوكيد والتحقيق.

وعبر بالأنباء دون الأخبار: إما للإشارة إلى ورودها بطريق النبوة ؛ فهي أكثر وثوقا، وإما لعظمها وعلوّ شأنها لاشتقاق النبأ من "النَّبِيء: الطريقُ الواضِحُ، والمكانُ المُرْتَفِعُ" [١٨]

وعبر بـ(مُزْدَجَرٌ) لأن الزجر أدل على معنى الصرف لأنه يأتي بمعنى حسي هو الطرد والمنع **الزَّجْر: طَرْدٌ بصَوْت ثم يُسْتَعْمَل في الطَّرْد تارةً وفي الصَّوت أُخْرَى. وقولُه تَعَالَى** ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴾ **أي الملائكة التي تَزْجُرُ السَّحَابَ أي تَسُوقُه سَوْقاً وهو مَجَاز. وقولُه تَعَالى:** ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي طَرْدٌ ومَنْعٌ من ارْتِكَاب المَآثِم.[١٩]

﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾: وصف آيات الذكر التي جاءتهم بتلك الأنباء بأنها (حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ) أي بالغة إلى القلوب مؤثرة في النفوس، فهي من البلوغ، ومنه اشتقت البلاغة فقيل "رجل بليغ، وبَلْغ، وبِلْغ: حسن الكلام فصيحه، يبلغ بعبارة لسانه كُنه ما في قلبه."[٢٠]

وعبر بالنُّذُر لأنها من النِّذارة، وهي التخويف؛ ومن ثم فهي أنسب لزجرهم[٢١].

١- على المستوى الصوتي:

نلاحظ تناغم الحروف والحركات والكلمات وتلاؤمها وتناسبها فيما بينها دون تنافر أو ثقل في النطق، وهذا عام في السورة كلها فلا نحتاج لإعادته في كل موضع.

كما نلاحظ كذلك مجيء جميع الآيات على فاصلة واحدة، هي الراء، وهذا أيضا عام في السورة كلها، وسوف نقف لتحليله وتعليل تكرر الفاصلة الرائية في السورة كلها في خاتمة البحث في حديثنا عن السمات الأسلوبية في هذه السورة.

أما على مستوى اللفظة المفردة فنجد إيماءات صوتية، وإيحاءات فنية تتناغم مع الدلالات المعجمية للكلمات كما في الكلمات:

(اقتربت - الساعة - انشق - سحر - مستمر)

حيث نلمح في قلقلة القاف الساكنة في (اقتربت) إيحاء بشيء يتقلقل ويقترب شيئا فشيئا، كما نلمح هذا الاقتراب كذلك في الانتقال من أقصى الحلق حيث مخرج القاف إلى مقدمة الفم

143 19-11-2009.indd فى اطل اقع م اح 1/4/2010 7:38:29 PM

حيث مخرج الباء الشفوية، ومخرج التاء الأسنانية.ويتناسب ذلك كلّه مع الإيحاء باقتراب أمر الساعة ؛ فهي جد قريبة كقرب الانتقال بين هذين المخرجين ؛ وإن كان أحدهما أول المجال والآخر آخره ؛ ولذا صورت هذه السورة هذا القرب بأنه كلمح البصر أو هو أقرب.

كما نلمح هذا التقريب لأمر الساعة بالتعبير عنه بلفظ (**الساعة**) دون غيره وهو يتناغم صوتيا كذلك مع دلالته المعجمية للإيحاء بالقرب ؛ حيث نتستشعر ذلك في خفة حروف الكلمة وقلتها وما توحي به دلالة الهمس في السين من الخفاء واللطف.

كما نحس بصوت الشق وأثره في كلمة (**انشق**) في حرفي الشين والقاف اللذين يتركب الشق منهما، تستشعر ذلك عند النطق بالشين بما فيها من التفشي والتشويش الذي تكاد تسمع فيه صوت شيء ينهال أويشقق.

كما نستشعر ذلك الصوت بصورة أقوى أثرا وحسّا في صوت القاف المشددة أي المكررة التي تشعرك بتكرر ذلك التشقق وتسمعك صوته بصورة مفخمة منبعثة من سمة التفخيم في هذا الحرف.

وفي كلمة (**سحر**) نستشعر الدلالة على ما في هذا السحر من لطف وخفاء في هذا الهمس وتلك الرقة في حرفي السين والحاء المرققين بتأثير الكسر في السين والسكون في الحاء ؛ إضافة إلى خفاء الحاء المنبعث من بعد مخرجها في أقصى الحلق، بما يشعر بخفاء هذا السحر وبعد أثره وقوته، ولذا أتبعوه بهذا الوصف (**مستمر**) بما يشتمل عليه من الدلالة على دوامه وبعد أثره وقوته الذي يدل عليه زيادة المبنى في هذه الكلمة.

٢- على المستوى الصرفي:

نجد جمال التوظيف الفني للصيغ الصرفية المختلفة لتحقيق التناسب التام بين هذه الصيغ والمعاني التي تعبر الآيات عنها.

نجد ذلك على سبيل المثال في صيغ الكلمات التالية: (**اقتربت – انشق – مستمر – أهواءهم – مستقر – الأنباء – مزدجر – النذر**)

حيث جاء الفعل (**اقتربت**) على وزن (**افتعل**) دالا على المبالغة في الاقتراب: قال ابن الأثير: " لا شك أن افتعل أبلغ من فعل ".

ويزيد من قوة الفعل كونه فعلا ماضيا يفيد التحقيق مما يدل على شدّة اقتراب الساعة.

كما نلمح في الفعل (**انشق**) انفعاله واستجابته ومطاوعته لأمر الله ولذا اختير من أفعال المطاوعة، حيث تقول: (**شقَّه فانشقَّ**) وهذا أدلّ على كون ذلك آية من آيات الله، لا تكون إلا بأمره وتقديره وتسخيره للشيء بقوله كن فيكون.

144 19-11-2009.indd فيراطلا فغمراح 1/4/2010 7:38:29 PM

نلاحظ كذلك توظيف صيغ الجمع إما للدلالة على الكثرة كما في (الأنباء) حيث دلّ الجمع على كثرة تلك الأنباء عن أحوال المكذبين قبلهم رجاء اتعاظهم وارتداعهم ؛ وإما للدلالة على التنوع كما في جمع (الأهواء) للدلالة على تعدد تلك الأهواء وتنوعها في صدهم عن الإيمان بالبعث وبما جاء به الرسول – صلَّى الله عليه وسلم.

"وجمع الأهواء دون أن يقول واتبعوا الهوى كما قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ (الأنعام:١١٦)، حيث إن الهوى اسم جنس يصدق بالواحد والمتعدد، فعدل عن الإفراد إلى الجمع لمزاوجة ضمير الجمع المضاف إليه، وللإشارة إلى أن لهم أصنافاً متعددة من الأهواء: من حب الرئاسة، ومن حسد المؤمنين على ما آتاهم الله، ومن حب اتباع ملة آبائهم، ومن محبة أصنامهم، وإلف لعوائدهم، وحفاظ على أنفتهم"[٢٣].

نلاحظ كذلك استخدام اسم الفاعل من الأفعال السداسية استثمارا لزيادة المبنى في الدلالة على زيادة المعنى ؛ وذلك كما في: (**مستقر – مستمر**) للدلالة على قوة الحق وتمكن استقراره في الأول، وقوّة السحر المدَّعى وتمكنه في الثاني.

"**والمُزدجر**: مصدر ميمي، وهو مصاغ بصيغة اسم المفعول الذي فعله زائد على ثلاثة أحرف. ازدجره بمعنى زجره، ومادة الافتعال فيه للمبالغة. والدال بدل من تاء الافتعال التي تبدل بعد الزاي"[٢٤].

٣- على المستوى النحوي (التركيبي):

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ أسند الاقتراب إلى الساعة نفسها لا إلى زمانها مبالغة في إثبات القرب لها، وعطف على اقتراب الساعة انشقاق القمر، وهو آية من آيات اقترابها، فكأنه من باب ذكر الشيء مشفوعا بدليله وبرهانه.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ إخبار عن حالهم فيما مضى بعد أن أخبر عن حالهم في المستقبل بالشرط الذي في قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾[٢٥]: أي من شأنهم وحالتهم أنهم متى رأوا ما يدل على صدق الرسول الله ﷺ من الآيات الباهرة أعرضوا عن الإيمان به وبتلك الآية.

وجاءت الجملة شرطية ليدل على أنهم في الاستقبال على مثل حالهم في الماضي[٢٦].. ومقابلة ذلك بهذا فيه شبه احتباك كأنه قيل: وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا: سحر، وقد رأوا الآيات وأعرضوا وقالوا: سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهوائهم وسيكذبون ويتبعون أهواءهم.

145 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:29 PM

وعَطْف (واتبعوا أهواءهم) عطفُ العلة على المعلول لأن تكذيبهم لا دافع لهم إليه إلا اتباعُ ما تهواه أنفسهم من بقاء حالهم على ما ألفوه وعهدوه واشتهر دوامه.[٢٧]

"والتنكير في الآية للتعظيم أي إن يروا آية قوية أو عظيمة يعرضوا"[٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ "هذا تذييل للكلام السابق من قوله: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَهْوَآءَهُمْ ﴾(القمر: ٢، ٣)، فهو اعتراض بين جملة (وكذبوا) وجملة ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ ﴾ (القمر: ٤)، والواو اعتراضية وهو جار مجرى المثل"[٢٩].

"وقوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ استئناف مسوق للرد على الكفار في تكذيبهم ببيان أنه لا فائدة لهم فيه ولا يمنع علو شأنه ﷺ، أو لإقناطهم عما علقوا به أمانيهم الفارغة من عدم استقرار أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا: ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ (القمر: ٢) ببيان ثبوته ورسوخه أي وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة ومن جملتها أمر النبي ﷺ فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيته وعلو شأنه، وللإشارة إلى ظهور هذه الغاية لأمره عليه الصلاة والسلام لم يصرح بالمستقر عليه "[٣٠]

"أي كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقرّ عليها، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق، أو باطل وسيظهر لهم عاقبته. أو وكل أمر من أمرهم وأمره مستقر، أي: سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا، وشقاوة أو سعادة في الآخرة"[٣١]

"و(كل) على هذا يجوز أن يرتفع بالابتداء والخبر محذوف، كأنه قال: وكل أمر مستقر في أم الكتاب كائن".

"ويجوز أن يرتفع بالعطف على الساعة، المعنى: اقتربت الساعة وكل أمر مستقر، أي اقترب استقرار الأمور يوم القيامة."[٣٢]

والمراد بالاستقرار الذي في قوله: (مستقر) الاستقرار في الدنيا.

وفي هذا تعريض بالإيماء إيماء إلى أن أمر دعوة محمد ﷺ سيرسخ ويستقر بعد تقلقله.[٣٣]

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾

عطف على جملة ﴿ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾(القمر: ٣) أي جاءهم في القرآن من أنباء الأمم ما فيه مزدجر لهؤلاء، أو أريد بالأنباء الحجج الواردة في القرآن، أي جاءهم ما هو أشد في الحجة من انشقاق القمر. و (من الأنباء) بيان ما فيه مزدجر قدم على المبين و (من) بيانية.. وجعل الازدجار مظروفاً فيه مجازاً للمبالغة في ملازمته له على طريقة التجريد كقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب: ٢١) أي هو أسوة.[٣٤]

فيراطلا ةعماج 19-11-2009.indd 146 1/4/2010 7:38:29 PM

ومجيء هذه الجملة فعلية ماضية مؤكدة باللام وقد، معطوفة على جملتي: (كذبوا واتبعوا أهواءهم) تظهر مفارقة واضحة بين ما هم عليه من التكذيب واتباع الأهواء وما تقتضيه تلك الأنباء الزاجرة والحكمة البالغة من الاتعاظ والتذكر.

"و(حكمة بالغة) بدل من (مَا)، أي جاءهم حكمةٌ بالغة.... وفرع عليه قوله: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي جاءهم ما فيه مزدجر فلم يُغن ذلك، أي لم يحصل فيه الإقلاع عن ضلالهم. و(ما) تحتمل النفي، أي لا تغني عنهم النذر بعد ذلك. وهذا تمهيد لقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ (القمر: ٦)، فالمضارع (تغني) للحال والاستقبال، أي ما هي مغنية، ويفيد بالفحوى أن تلك الأنباء لم تغن عنهم فيما مضى بطريق الأحرى...

ويحتمل أن تكون (مَا) استفهامية للإنكار، أي ماذا تفيد النذر في أمثالهم المكابرين المصرين، أي لا غناء لهم في تلك الأنباء، ف (ما) على هذا في محل نصب على المفعول المطلق ل (تغن)، وحذف ما أضيفت إليه (ما). والتقدير: فأي غناء تغني النذر."[٣٥]

وفي الآية أيضا حذف مفعول الفعل (تغني) لدلالة العموم على القول بأنها نافية، أي فما تغني شيئا.

المقصد الثاني: ترهيب المكذبين بالبعث:

وذلك في قوله تعالى:

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾.

في الآيات السابقة: جاء قوله تعالى:(فما تغني النذر) تمهيدا للأمر بالتولي والإعراض عنهم في هذه الآيات، بعدما ثبت من حالهم أنهم لا ينتفعون بالآيات والنذر والحكم البالغة؛ فلم يبق إلا تخويفهم وتهديدهم بسوء العاقبة التي تنتظرهم جزاء تكذيبهم بالبعث؛ ومن ثم راحت الآيات تصفُ لهم بعض مشاهد البعث، وتصوِّر لهم حالهم في هذا اليوم الفظيع وما ينتظرهم فيه من الأهوال.

التحليل الأسلوبي للوسائل التعبيرية المعبرة عن هذا المقصد:

يظهر التوظيف الأسلوبي للغة على كافة مستوياتها لتتضافر الدلالات اللغوية المختلفة في مناسبة هذا المقصد:

١- على المستوى المعجمي:

نجد توظيف الكلمات ذات الدلالة المعجمية المتناغمة مع المقصد السابق كما في الكلمات: (نُكُرٍ - خُشَّعًا - الأَجْدَاثِ - مُهْطِعِينَ - عَسِرٌ).

147 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:29 PM

فكلمة (نكر) صفة نادرة تأتي للتعبير عن الشيء الفظيع المستنكر الذي لا مثيل له "قال الخليل: النكر نعت للأمر الشديد، والوجل الداهية، أي تنكره النفوس لأنها لم تعهد مثله، وهو يوم القيامة".

قال مالك بن عوف النضري:

أقدم محاج أنه يوم نكر... مثلي على مثلك يحمي ويكر[٣٦]

فلذلك وقع الاختيار على هذه الكلمة الغريبة لتعبر عن هذا اليوم العجيب.

واختار لوصف الأبصار (**خُشَّعا**) تقريرا للذلة والخضوع عند معاينة الأهوال وذلك لأن "الخُشُوع في الصوْتِ والبصر كالخضوع في البدن. واخْتَشعَ: طَأْطَأَ رأسَه رامياً ببصرِه إلى الأرض"[٣٧].

وآثر التعبير بـ(**الأجداث**) على القبور لأن الجدث إنما يطلق على الحفرة التي يكون الميت فيها؛ فكأن في ذلك إشعارا بحقارة أمره وما يؤول إليه؛ فيناسب سياق التبكيت لهؤلاء الكفرة، والجدث "المَنْجُوف: المحفور من القبور عرضا غير مضرح، قال أبو زبيد:

.....إلى جَدَث كالغار منجوف

وقيل: هو المحفور أي حفر كان." [٣٨]

"والأجداثُ: جمع جَدث وهو القبر، وقد جعل الله خروج الناس إلى الحشر من مواضع دفنهم في الأرض، كما قال: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾(طه: ٥٥) فيعاد خلق كل ذات من التراب الذي فيه بقية من أجزاء الجسم وهي ذرات يعلمها الله تعالى"[٣٩].

والقبر يطلق على ما فيه تكريم للإنسان "ففي الصحاح": القَبْرُ: واحد القُبور. والمَقْبَرَةُ والمَقْبُرَةُ بفتح الباء وضمها: واحدة المقابِر. وقد جاء في الشعر المَقْبَرُ. وقال عبد الله ابن ثعلبة الحنفي:

لكلِّ أناس مَقْبَرٌ بفنائهم... فهم ينقُصونَ والقُبورُ تَزيدُ

وهو المَقْبَرِيُّ والمَقْبُرِيُّ. وقَبَرْتُ الميتَ أَقْبُرُهُ قَبْراً، أي دفنته. وأَقْبَرْتُهُ، أي أمرت بأن يُقْبَر.

قال ابن السكيت: أَقْبَرْتُهُ، أي صيّرت له قَبْراً يدفن فيه، وقوله تعالى: " ثم أماتَهُ فأَقْبَرَهُ "، أي جعله ممن يُقْبَر، ولم يجعله يلقى للكلاب. وكأنَّ القبر مما أُكرم به بنو آدم." [٤٠]

وعبر بـ(مُهْطِعينَ) للدلالة على شدة الخوف والفزع والهلع في ذلك اليوم، من قولهم: "هَطَعَ وأهطعَ فهو هاطِع ومُهْطِع، إذا أقبل مسرعاً خائفاً، لا يكون ذلك إلا مع خوف؛ كذا يقول أبو عبيدة في قوله جلّ وعزّ: "مُهْطِعينَ الى الدّاع"[٤١] ويقال: "هَطَعَ الرجل، إذا أقبل ببصره على الشيء

148 19-11-2009.indd فى اطل اقع م اح 1/4/2010 7:38:29 PM

لا يُقلع عنه، يَهْطَعُ هُطوعاً. وأهْطَعَ، إذا مدَّ عنقه وصوَّب رأسه. وبعيرٌ مُهْطِعٌ: في عنقه تصويبٌ خِلْقَةً. وأهْطَعَ في عدوه، أي أسرع." (٤٢)

قال الألوسي: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ مسرعين إليه قال أبو عبيدة: وزاد بعضهم مادّي أعناقهم، وآخر مع هز ورهق ومدّ بصر.

وقال عكرمة: فاتحين آذانهم إلى الصوت، وعن ابن عباس ناظرين إليه لا تقلع أبصارهم عنه وأنشد قول تبع:

تعبدني نمر بن سعد وقد أرى ونمر بن سعد لي «مطيع ومهطع»

وفي رواية أنه فسره بخاضعين وأنشد البيت، وقيل: خافضين ما بين أعينهم، وقال سفيان: شاخصة أبصارهم إلى السماء، وقيل: أصل الهطع مد العنق، أو مد البصر، ثم يكنى به عن الإسراع، أو عن النظر والتأمل" (٤٣).

وعبر بـ(عسر) لما فيه من دلالة واضحة على صعوبة هذا اليوم وعسره، ومعلوم أن العسر ضد اليسر، فهو عسر لا يسر فيه."كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (المدثر: ٩، ١٠) يعني له عسر لا يسر معه(٤٤).

٢- على المستوى الصوتي:

نلاحظ تناغم الحروف والحركات والكلمات وتلاؤمها وتناسبها فيما بينها دون تنافر أو ثقل في النطق ،كما نلاحظ كذلك استمرار فاصلة الراء المستمرة، والتي أرجأنا التعليل لها إلى آخر السورة

أما على مستوى اللفظة المفردة فنجد إيماءات صوتية، وإيحاءات فنية تتناغم مع الدلالات المعجمية للكلمات كما في:

(**نُكُرٍ - خُشَّعًا - مُهْطِعِينَ**)

حيث نلمح غرابة التركيب وصعوبة النطق في (**نكر**) لتحاكي صعوبة هذا اليوم وغرابته.

كما نلمح أثر الهمس في الخاء والشين في (**خُشَّعًا**) يحاكي خشوع الخاضعين في هذا اليوم.

أماكلمة (**مُهْطِعِينَ**) فنجد أنها تحاكي ذلك الانهطاع عند النطق بها؛ بسبب الانتقال من الميم الشفوية إلى الهاء الحنجرية التي يلجئك النطق بها إلى مدِّ عنقك كأنك تحكي ذلك الفعل.

٣- المستوى الصرفي:

نجد جمال التوظيف الفني للصيغ الصرفية المختلفة لتحقيق التناسب التام بين هذه الصيغ والمعاني التي تعبر الآيات عنها.

149 19-11-2009.indd فيراطلا قعمراج 1/4/2010 7:38:29 PM

نجد ذلك على سبيل المثال في صيغ الكلمات التالية: (**نُكُر - خُشَّعًا - مُهْطِعِينَ - عَسِرٌ**)

نُكُرٍ: "قرأ الجمهور: (**نكر**) بضم الكاف، وهو صفة على فُعل، وهو قليل في الصفات، ومنه رجل شلل: أي خفيف في الحاجة، وناقة أجد، ومشية سجح، وروضة أنف."(٤٥)

فكأن الاختيار قد وقع على هذه الصيغة الغريبة مناسبة لغرابة هذا اليوم، أي لما كان اليوم غريبا عجيبا كان وصفه غريبا كذلك.

قال الرازي: " ألا ترى أنه قال في سورة اقتربت الساعة: ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ (القمر: ٦) فثقل لأن آياتها مثقلة، وقال في موضع آخر: ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ (الطلاق: ٨) وأجمع القراء على تثقيل الأول وتخفيف الثاني ليوافق كل منهما ما قبله." (٤٦)

خُشَّعًا: "(خُشَّعاً) جمع خاشع" (٤٧) وهي اسم فاعل، وكذلك (مُهْطِعِينَ) وعبَّر باسم الفاعل للدلالة على الثبوت مما يدل على ثبوت هذه الصفات ودوامها.

(**عسر**): "صفة مشبهة من العُسر وهو الشدة والصعوبة" (٤٨). مما يناسب أهوال هذا اليوم وشدته.

المستوى النحوي (التركيبي):

"(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) الفاء للسببية.... والسبب عدم الإغناء" (٤٩)

(يَوْمَ يَدْعُو)"ولا يكون العامل في: (يَوْمَ يَدْعُو) يخرجون بل اذكروا، أو: (فَمَا تُغْنِى النذر) كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر: ٤٨) ويكون يخرجون ابتداء كلام"(٥٠)

(**خُشَّعاً أبصارهم**) حال من الخارجين فعل للأبصار(٥١) أي "حال من فاعل (يُخْرِجُونَ) أي يخرجون (مّنَ الأجداث) أي القبور أذلة أبصارهم من شدة الهول أي أذلاء من ذلك، وقدم الحال لتصرف العامل والاهتمام"(٥٢) أي قدم على الأبصار للاهتمام ببيان هذا الحال الذي هو دليل الذلة والانكسار.

و(**مُهْطِعِينَ**) حال كذلك من الخارجين، وكلا الحالين الأولى والثانية ترسم صورة هؤلاء الخارجين للحشر وما هم عليه من الفزع والهلع والخوف الشديد مع ماهم فيه من الذلة والانكسار.

"وجملة: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير (مهطعين)، والرابط مقدر، أو مستأنفة جواب سؤال مقدّر؛ كأنه قيل: فماذا يكون حينئذ؟"(٥٣)

"ووصف اليوم بـ(**عسر**) وصف مجازي عقلي باعتبار كونه زماناً لأمور عسرة شديدة من شدة الحساب وانتظار العذاب".

150 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:29 PM

المقصد الثالث:

بيان حال المكذبين من الأمم السابقة وسوء عاقبتهم:

بدأت السورة الكريمة بتأكيد البعث وتقريره، وثنت بذكر بعض مشاهد البعث وحال المكذبين في ذلك اليوم ترهيبا لهم، ثم عرضت السورة بعد ذلك في هذا المقصد لأحوال المكذبين بالبعث من الأمم السابقة وما نزل بهم من العذاب والنكال في الدنيا قبل الآخرة حتى يكون في ذلك عبرة لهؤلاء المكذبين في زمان النبي ﷺ ومن بعدهم، فعددت ما حدث لقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون، وقد كانوا أشد منهم وأكثر قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، وذلك كله لا يخرج عن الخط الأساسي لهذه السورة الكريمة في تقرير قضية الإيمان بالله تعالى ورسله وتقرير قضية الحساب والجزاء والبعث والرجوع إلى الله تعالى؛ فهي تارة تبين ذلك بذكر الآيات الدالة عليه كانشقاق القمر، وتارة ترهب المكذبين به بما ينتظرهم في الآخرة، وفي هذا السياق ترهيب لهم بما ينتظرهم في الدنيا؛ وذلك لأن سنة الله في إهلاك المكذبين والمعاندين لرسله لا تتخلف أبدا، وهذا ما يؤكده الله تعالى في ختام هذا العرض لأحوال المكذبين؛ حيث يقول في حق المكذبين في زمان النبي ﷺ:

في المقصد الرابع:

ترهيب الكافرين وتخويفهم بعاقبة المكذبين من قبلهم:

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

ومن ثم يعود في **المقصد الخامس:**

إلى: تقرير البعث وترهيب المكذبين به:

وذلك في قوله تعالى:

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

وينهي سياق السورة كذلك بتتميم حسن غير بعيد عن السياق وهو:

المقصد السادس:

ترغيب وتبشير المؤمنين **بالبعث** المتقين لربهم:

وذلك في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾.

151 19-11-2009.indd فى اطل اقع م اح 1/4/2010 7:38:29 PM

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ التحليل الأسلوبي للوسائل التعبيرية في الآيات السابقة:

يظهر التوظيف الأسلوبي للغة على كافة مستوياتها لتتضافر الدلالات اللغوية المختلفة في مناسبة المقاصد السابقة:

١ -على المستوى المعجمي:

نجد توظيف الكلمات ذات الدلالة المعجمية المتناغمة مع المقاصد السابقة كما في الكلمات: (**عبدنا - ازدجر- فتحنا - أبواب السماء - منهمر - ضلال وسُعُر- ألقي- أشِر - مستمر - بطشتنا - عزيز - مقتدر - يولون الدبر - أدهى وأمرُّ - سقر - كلمح**).

كلمة (**عبدنا**) في قوله تعالى: (**فكذَّبوا عبدنا**) تدل على دلالات ومعان بليغة تستفاد من دلالتها المعجمية، فكونه ﷺ عبدا لله – والله تعالى هو الذي يقرر له هذه العبودية، ويضيفها إلى ذاته العظيمة، بالإضافة إلى (**نا**) التي للتعظيم – كلُّ هذا يدلُّ على ضرورة الإيمان به وعدم تكذيبه ؛ لأنه عبد لله تعالى لا يأتي بشيء من قبل نفسه.

وأيضا فإن كونه عبدا لله يقتضي كونه في قبضته يستحيل عليه الافتراء على الله ثم لا يأخذه بجريرته.

وأيضا فإن كونه عبدا لله تعالى مطيعا له مرسلا برسالة من قبله، وقد كذبه هؤلاء ؛ فإن هذا يقتضي غضب الله وسخطه وغيرته لعبده والانتصار له ؛ ففيها تعريض باستحقاق العقوبة التالية التي ستقرع مسامعهم في الآيات التالية ﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾﴿يَقُولُ

(**ازدجر**) " الزجر هو الانتهار وقد يكون بالشتم والضرب والوعيد ونحوه، قال الزمخشري: "(وازدجر) أي: وانتهروه بالشتم والضرب والوعيد بالرجم في قولهم ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ (الشعراء: ١١٦) وقيل: هو من جملة قيلهم، أي: قالوا هو مجنون، وقد ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه وطارت بقلبه."(٥٤)

واختير لفظ الزجر لما يدل عليه من أنواع من الأذي الحسي والمعنوي يشتمل الزجر عليها، بيانا لما أصاب نبي الله ﷺ من إيذاء قومه له.

ماء منهمر: قال الزمخشري: "ماء منهمر، وهمره: صبّه. وسحاب هامر. وهمرت عينه بالدمع وهملت، ومن المجاز: همر في كلامه: أكثر. وخطيب مهمر. وفلان مهذار مهمار"(٥٥).

فمن ثم اختير التعبير بهذه اللفظة منهمر لدلالتها على كلٍّ من الصبِّ والكثرة ؛ فدلت على أنه ماء كثير ينصبُّ صبًّا.

152 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:30 PM

ويساعد على معنى الكثرة كذلك التعبير بقوله (**فتحنا**) وقوله (**أبواب السماء**) فهي أبواب مفتوحة ينصب منها الماء صبًّا.

قال الرازي في هذا الموضع:

"المسألة الأولى: قال في السماء: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (القمر: ١١) لأن السماء ذات الرجع وما لها فطور، ولم يقل: وشققنا السماء، وقال في الأرض: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ ﴾ (القمر: ١٢) لأنها ذات الصدع.

الثانية: لما جعل المطر كالماء الخارج من أبواب مفتوحة واسعة، ولم يقل في الأرض وأجرينا من الأرض بحاراً وأنهاراً، بل قال: (عُيُوناً) والخارج من العين دون الخارج من الباب ذكر في الأرض أنه تعالى فجرها كلها، فقال: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ ﴾ لتقابل كثرة عيون الأرض سعة أبواب السماء فيحصل بالكثرة ههنا ما حصل بالسعة ههنا [٥٦]."

ضلال وسُعُر: وردت هاتين الكلمتين في هذه السورة مرتين:

ففي الموضع الأول: "(**انا إذا لفى ضلال**) أي ذهاب عن الصواب (**وسعر**) أي جنون، من قولهم: ناقة مسعورة، أي كأنها من شدة نشاطها مجنونة، ذكره ابن عباس.

قال الشاعر يصف ناقته:

تخال بها سعرا إذا السفر هزها ذميل وإيقاع من السير متعب [٥٧]

وفي الموضع الثاني: (ان المجرمين في ضلال وسعر) أي في حيدة عن الحق و (سعر) أي احتراق [٥٨].

"وفي قوله تعالى:(وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ ضَلاَلاً) قيل: معنى: (إِلاَّ ضَلاَلاً) إلاّ عذاباً: كذا قال ابن بحر، واستدلّ على ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ (القمر: ٤٧). وقيل: إلاّ خسراناً. وقيل: إلاّ فتنة بالمال والولد. وقيل: الضياع. وقيل: ضلالاً في مكرهم[٥٩]."

فنلاحظ في هاتين الآيتين المشاكلة بين قوله تعالى على لسان المجرمين: "**إنا إذا لفي ضلال وسعر**"، وقوله تعالى: عن عذاب المجرمين في الآخرة "**إن المجرمين في ضلال وسعر**".

فالألفاظ واحدة ولكن المعنى مختلف بين ما وصفوا به أنفسهم لو اتبعوا رسولهم عليه السلام، وبين ما نزل بهم من العذاب في الآخرة بسبب تركهم اتباع نبيهم.

فقد وصفوا أنفسهم بأنهم يكونون على الضلال بمعنى مجانبة الحق والصواب، وأنهم في جنون لو اتبعوا رسولهم الذي وصفوه بالجنون والضلال ؛ فأثبت الله لهم الضلال والسعر بسبب

153 19-11-2009.indd فى اطل اقع م اح 1/4/2010 7:38:30 PM

ترك اتباع نبيهم؛ فكان ذلك تكذيبا لهم وردًّا لكلامهم، فهم في ضلال وسعر في الآخرة، وهو العذاب والحريق؛ بسبب ما كانوا فيه من ضلال وسعر في الدنيا، وهو مجانبة الحق والتخبط والضلال.

وهذا الوصف – جاء أيضا – انتصارا لنبيهم الذي قالوا عنه "**مجنون وازدجر**"

كما نلمح كذلك تكرر كلمة (**أشر**) ومعناها تكبر وبطر عن الحق ،لأن "الأَشَرُ: البَطَرُ. [٦٠]" وقد تكررت على سبيل المجازاة والمعاقبة بين:

قوله تعالى: ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾

وقوله تعالى: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾

فوصفهم الله تعالى بما وصفوا به نبيهم على سبيل المجازاة والمعاقبة لأنهم أولى بهذا الوصف وأحق به من نبيهم، وهو بريء منه تمام البراءة، بل هو مستحيل عليه.

وقوله تعالى: أألقي: "قولهم أألقي بدل أأنزل وفيه إشارة إلى ما كانوا ينكرونه من طريق المبالغة وذلك لأن الإلقاء إنزال بسرعة"[٦١]

فاختير الفعل (ألقي) كأن من بين المستنكر في زعمهم كون الوحي إلقاء سريعا، أو كأنهم استنكروا سرعة إعلانه بنزول الوحي عليه ؛ فلذا عدوه إلقاء سريعا غير معهود لدى الرسل السابقين ثم راحوا يستنكرون ذلك منه.

(**مستمر**): الكلمة واضحة من جهة الدلالة المعجمية على الاستمرار والثبوت، وتتآزر معها في الدلالة على الاستمرارية والثبوت كلٌّ من الدلالة الصوتية والصرفية والنحوية، وسيأتي بيانه في حينه.

قال الرازي: "ما معنى (مُّسْتَمِرٌّ) ؟ نقول فيه وجوه الأول: ممتد ثابت مدة مديدة من استمر الأمر إذا دام، وهذا كقوله تعالى: ﴿ فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ (فصلت: ١٦) لأن الجمع يفيد معنى الاستمرار والامتداد، وكذلك قوله: ﴿ حُسُومًا ﴾(الحاقة: ٧) الثاني: شديد من المرة كما قلنا من قبل في قوله: ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾(القمر: ٢) وهذا كقولهم أيام الشدائد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ ﴾(فصلت: ١٦) فإنه يذيقهم المر المضر من العذاب" [٦٢].

"(**بطش**) البَطْش التناول بشدة عند الصَّوْلة والأَخذُ الشديدُ في كل شيء"[٦٣]

فإذا كان البطش هو الأخذ الشديد، وكان هذا البطش منسوبا إلى الله تعالى بضمير العظمة دلَّ ذلك على شدَّة هذا الأخذ المنسوب إلى ذي القوة والجبروت.

154 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:30 PM

طمسنا: (فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ) "أي: صيرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شقّ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفي عليها من التراب. وقيل: أذهب الله نور أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم، فلم يروا الرسل" (٦٤).

وهذا يدل على شدة ما نزل بهم من العذاب.

عزيز – مقتدر: جمع سبحانه في وصف ذاته العلية في بيان شدَّة أخذه لهم بين العزَّة والقدرة.

"العَزِيزُ من صفات الله عز وجل وأَسمائه الحسنى قال الزجاج هو الممتنع فلا يغلبه شيء وقال غيره هو القوي الغالب كل شيء وقيل هو الذي ليس كمثله شيء ومن أَسمائه عز وجل المُعِزُّ وهو الذي يَهَبُ العِزَّ لمن يشاء من عباده والعِزُّ خلاف الذُّلِّ... والعِزُّ في الأَصل القوة والشدة والغلبة والعِزُّ والعِزَّة الرفعة والامتناع، والعِزَّة لله وفي التنزيل العزيز ولله العِزَّةُ ولرسوله وللمؤمنين أَي له العِزَّة والغلبة سبحانه".

وإذا كان العزيز هو القوي الغالب كل شي، فالجمع بينه وبين المقتدر يفيد تمام القدرة والغلبة ،وفي هذا من الترهيب لهؤلاء المكذبين ما فيه، أن يحلَّ بهم مثل ما حلَّ بأسلافهم.

يولون الدبر: الجمع بين التولي والإدبار يبين مدى ما نزل بهم من الخوف والفزع، فإتباع التولي بالإدبار إنما هو بمثابة التوكيد لمعنى الفرار والإدبار.

سَقَرَ: "السِّقْرُ: أَنْ تَوَشعَ بالحَطَب على رَحْلِكَ وتُزَمِّلَها للمَنْع منه." (٦٥) "والسَّقْر، يقال منه: سَقَرَته الشمسُ تسقُره سَقْراً، إذا حَمِيَت على دماغه فآلمته. وقد حُكي صقرته، بالصاد؛ ومنه اشتقاق اسم سَقَرَ، والله أعلم" (٦٦)

فمن ثم اختير التعبير بهذا اللفظ للدلالة على شدَّة إحماء هذه النار واشتداد لهيبها.

أدهى وأمرُّ: جمع في وصف الساعة بين الدهاء والمرارة ؛ فهي داهية ما بعدها داهية، ولصعوبتها وشدَّة أهوالها وكثرتها وصفها فوق ذلك بالمرارة ؛ فكأن لعذاب هذا اليوم طعما شديد المرارة يجده الكافر من شدَّة عذاب ذلك اليوم.

كلمح بالبصر: يقال: "لَمَحَهُ وأَلْمَحَهُ، إذا أبصره بنظر خفيف. والاسم اللَّمْحةُ. ولَمَحَ البرقُ والنجمُ لَمْحاً، أي لمع. تقول: رأيت لَمْحَةَ البرقِ"(٦٧).

وهذا كلُّه يدلُّ على سرعة أمر الله تعالى في مجيء هذا اليوم، مما يزيد في وعيدهم وترهيبهم من سوء العاقبة.

19-11-2009.indd 155 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:30 PM

وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ:

"أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً (على ذَاتِ ألواح وَدُسُرٍ) قال: الألواح: ألواح السفينة، والدسر: معاريضها التي تشد بها السفينة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله: (وَدُسُرٍ) قال: المسامير." (٦٨)

عبر بذات ألواح ودسر كناية عن السفينة؛ فهي كناية عن موصوف، ولعل الغرض من التعبير بهذه الكناية بيان حقارة السبب الذي أنجاهم الله به؛ ليظهر أثر القدرة الإلهية، وأن نجاة نوح ومن معه كانت بتلك القدرة المقتدرة لا بتلك الأسباب الواهية.

٢- على المستوى الصوتي:

نلاحظ تناغم الحروف والحركات والكلمات وتلاؤمها وتناسبها فيما بينها دون تنافر أو ثقل في النطق، كما نلاحظ كذلك استمرار فاصلة الراء المستمرة، والتي أرجأنا التعليل لها إلى آخر السورة.

أما على مستوى اللفظة المفردة فنجد إيماءات صوتية، وإيحاءات فنية تتناغم مع الدلالات المعجمية للكلمات كما في:

(صرصرا - يُسْحَبُونَ - مَسَّ - سَقَرَ - مستمر)

(صرصرا): يظهر الإعجاز في اختيار هذه الكلمة الموحية بشدَّة البرد في هذه الريح الباردة العقيم ؛ حتى لكأنك تسمع فيها صرير الأسنان وحركاتها المتتالية، يوحي بها هذا التكرار والتضعيف في مقطعي الكلمة (صر – صر) الذي يوحي لك بصرير كلِّ شيء من حركة هذه الرياح وشدَّتها.

(يُسْحَبُونَ - مَسَّ - سَقَرَ)

حينما نتأمل السمات الصوتية لحرف السين بماله من طبيعة احتكاكية تبدو واضحة عند النطق به نستشعر مدى مناسبة هذا الصوت الاحتكاكي المهموس لسياق الآية ومعناها حيث يتهكم بالكافرين حينما تأكل النار أجسادهم بمجرد المماسة لها ويأتي حرف السين بما فيه من احتكاك وصفير كأنه حكاية لصوت احتكاك تلك النيران بأجساد هؤلاء الكافرين، بل إننا لنستشعر عند النطق بهذه السينات المتتالية في **"مس سقر"** حكاية صوت الشيء الذي يشيط ويحترق عند تسليط النيران عليه.

وسوف نقف على السمات الصوتية ودلالاتها الفنية في هذه الآيات بالتفصيل في حديثنا عن ظاهرة التكرار في هذه السورة على العموم.

فى اطلاع 19-11-2009.indd 156 1/4/2010 7:38:30 PM

مستمر: حيث نلاحظ في همس السين وسكونه إطالة زمن النطق بالكلمة لتحقيق الهمس والسكون، مع السكون العارض للراء لكونه رأس آية، مع ما في الراء من سمة التكرارية التي تفيد إطالة زمن النطق بالكلمة كذلك، كلُّ ذلك يتناغم مع كلٍّ من الدلالة المعجمية والصرفية والنحوية للكلمة في دلالتها على الثبوت.

٣- المستوى الصرفي:

نجد جمال التوظيف الفني للصيغ الصرفية المختلفة لتحقيق التناسب التام بين هذه الصيغ والمعاني التي تعبر الآيات عنها.

نجد ذلك على سبيل المثال في صيغ الكلمات التالية:

(ازدجر- منهمر - مستمر- منقعر - مدَّكر - مُقْتَدِر- جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ - صرصرا - كَذَّابٌ - أَشِرٌ - ارْتَقِبْهُمْ - وَاصْطَبِرْ - تنزع - فَتَعَاطَى - صَيْحَةً وَاحِدَةً)

ازدجر "قيل إنما قال: (وازدجر) بلفظ ما لم يسم فاعله لانه رأس آية." (٦٩)

والحق أن التعليل برعاية الفواصل دون بيان المناسبة للمعنى ليس مما تقتضيه البلاغة، والمحققون من البلاغيين على رفضه ؛ فلا بد إذا من التعليل بغيره ؛ فالأولى – والله أعلم – أن يقال إنه أريد به العموم أوالإبهام، أي ازدجر من كلٍّ من مكذبي قومه، أو ازدجر لا من شخص بعينه، وهذا أيضا يدل على كثرة الزاجرين وتعددهم.

هذا على القول بأن المقصود أنه قد ازدجر من قومه، أما على القول الآخر الذي يذهب إلى إصابته بالمس والجنون من الجن؛ فكأن الفاعل قد حذف – على هذا القول – لشيوع العلم به.

توظيف اسم الفاعل كما في:

مُقْتَدِر - منهمر - مستمر- منقعر - مدَّكر - جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ

مقتدرٌ "معنى اقتدر أقوى من معنى قدر قال الله تعالى: " فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر " فمقتدر هنا أبلغ من قادر، وإنما عدل إليه للدلالة على تفخيم الأمر وشدة الأخذ الذي لا يصدر إلا عن قوة الغضب، أو للدلالة على بسطة القدرة، فإن المقتدر أبلغ في البسطة من القادر،وذاك أن مقتدرا اسم فاعل من اقتدر، وقادر اسم فاعل من قدر، ولا شك أن افتعل أبلغ من فعل.

على هذا ورد قول أبي نواس:

فعفوت عني عفو مقتدر حلت له نقـــم فألفاهـــا

أي عفوت عني عفو قادر متمكن القدرة لا يرده شيء عن إمضاء قدرته، وأمثال هذا كثيرة"(٧٠).

157 19-11-2009.indd فىراطلا ةغمراج 1/4/2010 7:38:30 PM

والتعبير باسم الفاعل عموما أقوى من التعبير بالفعل ؛ فهو وإن كان فيه من الفعلية الدلالة على الحدث ؛ فإن فيه كذلك دلالة الاسم التي تفيد الثبوت ؛ ومن ثم اختير التعبير باسم الفاعل للدلالة على الثبوت في كلٍّ من: (**منهمر – مستمر– منقعر – مدَّكر – جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ**)

فمنهمر: أفاد ثبوت انهمار الماء ودوامه فهو صبٌّ كثير دائم متصل.

ومستمر: أفادت استمرار ذلك النحس ودوامه بكلٍّ من الدلالة المعجمية، والصوتية ،والصرفية، والنحوية كما سبق بيان كلٍّ في موضعه، وقد كان ذلك على سبيل المشاكلة والمعاقبة لوصفهم ما جاء به نبيهم بأنه (**سحر مستمر**)

ومنقعر: أفادت ثبوت ذلك الانقعار ودوامه كذلك.

ومدَّكر: أفادت طلب التذكر على الدوام والثبوت عليه ؛لأن هذا هو ما ينفع العبد على الحقيقة ؛ لأن قليل التذكر لا ينفع ؛ ولهذا لم ينف سبحانه قليله عن الكافرين والمكذبين فقال في حقهم: (قليلا ما تذكرون)[٧١].

جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ: وصف الكافرون أنفسهم وحزبهم بأنهم جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ؛ فعبروا باسم الفاعل لزعمهم ثبوت ذلك الانتصار لجمعهم ودوامه.

صرصرا: جاءت هذه الصيغة للاسم الرباعي المضعف ،وهو عبارة عن مقطعين مكررين، مما يفيد تتابع هذه الرياح بما تشتمل عليه من الصفق والضرب لكلِّ شيء ،ويظهر الإعجاز في اختيار هذه الكلمة الموحية بشدَّة البرد في هذه الريح الباردة العقيم ؛ حتى لكأنك تسمع فيها صرير الأسنان وحركاتها المتتالية، يوحي بها هذا التكرار والتضعيف في مقطعي الكلمة (صر – صر) الذي يوحي لك بصرير كلِّ شيء من حركة هذه الرياح وشدَّتها.

كَذَّابٌ أشِر: جاءت الكلمة الأولى على صيغة المبالغة (فعال) التي تدلُّ على المبالغة في وصف نبيِّهم بالكذب، تلتها الصفة المشبهة (فعل) التي تفيد الثبوت والدوام على تلك الصفة صفة الأشر والبطر ومجانبة الحق ؛ ولذا فقد ردَّ الله تلك الصفات عليهم فقال: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

ارْتَقِبْهُمْ – وَاصْطَبِرْ: جاءت الكلمتان على صيغة (افتعل) التي تفيد تكلف الشيء وحمل النفس عليه، ففيها تصبير للنفس في ارتقاب ما ينزل بهؤلاء الكافرين من سوء الجزاء، وحمل النفس على الصبر على سوء صنيعهم مما يحتاج إلى كلفة في حمل النفس على تحمل ما يسوء، ولكن مما يهون ذلك عليها ارتقاب عقابهم وجزائهم.

تنزع: عبر بالفعل المضارع لبيان استمرارية ذلك النزع وتكرره مما يزيد في بيان هول ما نزل بهم من العذاب.

158 19-11-2009.indd فىراطلا ةغماح 1/4/2010 7:38:30 PM

(فتعاطى): "هو مطاوع عاطى، وكأن هذه الفعلة تدافعها الناس وعاطاها بعضهم بعضاً، فتعاطاها قدار[٧٢] وتناول العقر بيده."[٧٣]

صَيْحَةً وَاحِدَةً: عبَّر باسم المرَّة الذي يفيد الوحدة، وزاد على ذلك بتوكيده بـ(واحدة) مما يفيد عظمة قدرة الله تعالى حتى إن صيحة واحدة من ملك من ملائكة الله تعالى جعل هذه القرية كهشيم المحتظر.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ "أي: إنذاري. قال الفراء: الإنذار والنذر مصدران،...، وقيل: نذر جمع نذير، ونذير بمعنى الإنذار كنكير: بمعنى الإنكار."[٧٤]

٤- المستوى النحوي (التركيبي):

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ قبل قومك. ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ نوحاً عليه السلام وهو تفصيل بعد إجمال، وقيل معناه كذبوه تكذيباً على عقب تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب، أو كذبوه بعدما كذبوا الرسل. (وَقَالُوا مَجْنُونٌ) هو مجنون. (وازدجر) وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية، وقيل إنه من جملة قيلهم أي هو مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته[٧٥].

قال الزمخشري: "فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: (فَكَذَّبُوا) بعد قوله: (كَذَّبَتْ)؟ قلت: معناه: كذبوا فكذبوا عبدنا أي: كذبوه تكذيباً على عقب تكذيب، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب. أو كذبت قوم الرسل فكذبوا عبدنا، أي: لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوّة رأساً، كذبوا نوحًا؛ لأنه من جملة الرسل"[٧٦]

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾يَقُولُ

نلاحظ الربط بين هذه الجمل بالفاء التي تفيد التعقيب والسرعة؛ فعلى القول بأن الفاء للترتيب في قوله (**فَكَذَّبُوا**) فيكون المقصود أنهم كذبوا نبيهم بمجرد دعوته إياهم.

وكذلك يكون المعنى في قوله (**فَدَعَا**) أي حينما بلغ التكذيب مبلغه دعا ربه فكانت الإجابة على وجه السرعة: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾، وعطف الجمل التي بعدها عليها بالواو لأنها مشتركة معها في الحكم وزمن الوقوع ؛ فالواو للدلالة على الجمع والاقتران ؛ فلذا قال: ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾يَقُولُ

159 19-11-2009.indd فىاطلا قعماج 1/4/2010 7:38:30 PM

وجملة: (**تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا**) نعت لإظهار مدى العناية الإلهية في حفظ تلك السفينة.

و(**جَزَاءً لِّمَنْ كَانَ كُفِرَ**) مفعول لأجله أي فعل ذلك (**جزاء لمن كان كفر**)"أي جعلنا ذلك ثوابا وجزاء لنوح على صبره على أذى قومه وهو المكفور به، فاللام في (لمن) لام المفعول له، وقيل: (كفر) أي جحد، ف (من) كناية عن نوح.

وقيل: كناية عن الله والجزاء بمعنى العقاب، أي عقابا لكفرهم بالله تعالى.

وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد (جزاء لمن كان كفر) بفتح الكاف والفاء بمعنى: كان الغرق جزاء وعقابا لمن كفر بالله." (٧٧)

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ "أي: إنذاري... والاستفهام للتهويل والتعجيب، أي: كانا على كيفية هائلة عجيبة لا يحيط بها الوصف، وقيل: نذر جمع نذير، ونذير بمعنى الإنذار كنكير: بمعنى الإنكار." (٧٨) فيكون المعنى: فكيف كان إنكاري وانتقامي؟.

﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

قال الرازي: "وفي قوله تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾ مسائل:

المسألة الأولى: زيداً ضربته وزيد ضربته كلاهما جائز والنصب مختار في مواضع منها هذا الموضع وهو الذي يكون ما يرد عليه النصب والرفع بعد حرف الاستفهام، والسبب في اختيار النصب أمر معقول وهو أن المستفهم يطلب من المسئول أن يجعل ما ذكره بعد حرف الاستفهام مبدأ لكلامه ويخبر عنه، فإذا قال: أزيد عندك معناه أخبرني عن زيد واذكر لي حاله، فإذا انضم إلى هذه الحالة فعل مذكور ترجح جانب النصب فيجوز أن يقال: أزيداً ضربته وإن لم يجب فالأحسن ذلك فإن قيل: من قرأ ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾ كيف ترك الأجود؟ نقول: نظراً إلى قوله تعالى: (فَقَالُوٓاْ) إذ ما بعد القول لا يكون إلا جملة والاسمية أولى والأولى أقوى وأظهر.

المسألة الثانية: إذا كان بشراً منصوباً بفعل، فما الحكمة في تأخر الفعل في الظاهر؟

نقول:..إن البليغ يقدم في الكلام ما يكون تعلق غرضه به أكثر وهم كانوا يريدون تبيين كونهم محقين في ترك الاتباع فلو قالوا: أنتبع بشراً يمكن أن يقال نعم اتبعوه وماذا يمنعكم من اتباعه، فإذا قدموا حاله وقالوا هو نوعنا بشر ومن صنفنا رجل ليس غريباً نعتقد فيه أنه يعلم ما لا نعلم أو يقدر مالا نقدر وهو واحد وحيد وليس له جند وحشم وخيل وخدم فكيف نتبعه، فيكونون قد قدموا الموجب لجواز الامتناع من الاتباع، واعلم أن في هذه الآية إشارات إلى ذلك أحدها: نكروه حيث قالوا (أَبَشَراً) ولم يقولوا: أنتبع صالحاً أو الرجل المدعي النبوة أو غير ذلك من المعرفات والتنكير تحقير.

160 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:30 PM

ثانيها: قالوا أبشراً ولم يقولوا أرجلاً.

ثالثها: قالوا (مِنَّا) وهو يحمل أمرين أحدهما من صنفنا ليس غريباً، وثانيهما (مِنَّا) أي تبعنا...

رابعها: (واحدا) يحتمل أمرين أيضاً أحدهما: وحيداً إلى ضعفه وثانيهما: واحداً أي هو من الآحاد لا من الأكابر المشهورين، وتحقيق القول في استعمال الآحاد في الأصاغر حيث يقال: هو من آحاد الناس هو أن من لا يكون مشهوداً بحسب ولا نسب إذا حدث عنه من لا يعرفه فلا يمكن أن يقول عنه قال فلان أو ابن فلان فيقول قال واحد وفعل واحد فيكون ذلك غاية الخمول، لأن الأرذل لا ينضم إليه أحد فيبقى في أكثر أوقاته واحداً فيقال: للأرذال آحاد.

وقوله تعالى عنهم: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكونوا قد قالوا في جواب من يقول لهم إن لم تتبعوه تكونوا في ضلال، فيقولون له: لا بل إن تبعناه نكون في ضلال.

ثانيهما: أن يكون ذلك ترتيباً على ما مضى أي حاله ما ذكرنا من الضعف والوحدة فإن اتبعناه نكون في ضلال وسعر أي جنون على هذا الوجه[٧٩].

فلأجل ما ذكر قدموا (بشرا) في سؤالهم ؛لأنه هو موضع استنكارهم وسبب كفرهم – على زعمهم.

وقوله تعالى: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾

قدم الفعل لأنه هو المستنكر المراد نفيه و"النفي بطريق الاستفهام أبلغ لأن من قال: ما أنزل عليه الذكر ربما يعلم أو يظن أو يتوهم أن السامع يكذبه فيه فإذا ذكر بطريق الاستفهام يكون معناه أن السامع يجيبني بقوله: ما أنزل فيجعل الأمر حينئذ منفياً ظاهراً لا يخفى على أحد بل كل أحد يقول: ما أنزل "[٨٠]

﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ إضراب عن ما أنكروه بقولهم: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي لم ينزل الذكر عليه من بيننا بل هو كذّاب فيما ادعاه، بَطر متكبر[٨١].

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ يقول

استخدمت الفاء للربط بين الجمل لإفادة السرعة والترتيب والتعقيب، فكأن المعنى فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ مسرعين بذلك، فأسرع صاحبهم فَتَعَاطَى فَعَقَرَ فبمجرد تعاطيه السيف أسرع إلى عقر الناقة دون تدبر أو رويَّة.

161 19-11-2009.indd فىاطلا قعماح 1/4/2010 7:38:30 PM

وإزاء السرعة والتعجل في العصيان والمخالفة كانت السرعة في العقاب والمؤاخذة: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾فَعَقَرَ

"وقوله تعالى: (فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) إشارة إلى أن الأمر من جانب الرسل قد تم ولم يبق إلا جانب المرسل إليهم بأن كانوا منذرين متفكرين يهتدون بفضل الله فهل من مدكر مهتد، وهذا الكلام يصلح حثاً ويصلح تخويفاً وزجراً" (٨٢).

فهو استفهام إنشائي غرضه إما الحثّ على التذكر، أو بغرض التخويف والزجر.

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾فَعَقَرَ

ربط بين الجمل بالفاء كذلك للدلالة على السرعة والترتيب والتعقيب في كلٍّ مما ذكر.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾فَعَقَرَ

"وانتصب (أخذ عزيز مقتدر) على المفعولية المطلقة مبيناً لنوع الأخذ بأفظع ما هو معروف للمخاطبين من أخذ الملوك والجبابرة"(٨٣). وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾

يصح أن ينتصب (يوم) ظرفا لكونهم في ضَلالٍ وَسُعُرٍ، أو ظرفا لما يقال لهم ذلك اليوم (ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ).

والظاهر أن (يوم يسحبون في النار) طرف للكون في ضلال وسعُر على نحو قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ (النازعات: ٦ ٨)، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ (القصص: ٤٢)(٨٤).

ولعلَّ أهم السمات الأسلوبية المميزة في هذا المقطع الذي يبدأ ببيان حال المكذبين السابقين إلى آخر السورة هي ظاهرة التكرار وهذا هو ما سوف نلمحه في بياننا لأهم السمات الأسلوبية لهذه السورة.

أهم السمات الأسلوبية في السورة:

١- الاختيار الأسلوبي المناسب:

وذلك من حيث اختيار الوسائل التعبيرية المناسبة لمقاصد السورة على كافة المستويات اللغوية المعجمية والصوتية والصرفية والنحوية التي سبق التمثيل لها فيما سبق.

٢- العدول الأسلوبي المناسب:

وذلك من خلال العدول عن القاعدة السياقية أو اللغوية الشائعة لتحقيق غرض بلاغي على نحو ما رأينا أمثلته فيما سبق.

162 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:31 PM

٣- التكرار الأسلوبي المناسب:

وذلك على جميع المستويات اللغوية المعجمية والصوتية والصرفية والنحوية؛ حيث يعد التكرار في هذه السورة من أهم عناصر الإعجاز بها حيث تم توظيفه بطريقة متناغمة ومنسجمة مع الغرض العام الذي سيقت السورة لأجله.

إن الناظر في هذه السورة الكريمة يكاد يستشعر أن التكرار يكاد يمثل الغاية والوسيلة معا في هذه السورة، فالغاية أو الغرض من هذه السورة هو عرض صور النذارة المتكررة لإزعاج هؤلاء الغافلين. ومن ثم نستطيع أن نلمح صور التكرار في هذه السورة ممثلة في:

الصورة الأولى: تكرار الآيات الكونية المنذرة بقرب الساعة وعذاب الكافرين ممثلة في:

انشقاق القمر - الطوفان وسفينة نوح عليه السلام - ريح قوم عاد - ناقة ثمود - إهلاكهم بالصيحة - إهلاك لوط بالحاصب - الآيات التي جاء بها موسى لفرعون وقومه - إهلاك فرعون وقومه لما كذبوا بالآيات ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾

الصورة الثانية: تكرار الآيات السمعية ممثلا في: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ (القمر:٤) ذكر (القرآن) أربع مرات.

ذكر (الذكر) القمر:(٢٥) مرادا به ما أنزل على الرسل السابقين.

الصورة الثالثة: تكرار ذكر الرسل وبعثهم ونذارتهم لأقوامهم (قوم نوح وعاد وثمود ولوط وآل فرعون وأهل مكة).

الصورة الرابعة: تكرار التكذيب من الأمم السابقة لرسلهم.

قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾.

"فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: (فَكَذَّبُوا) بعد قوله: (كَذَّبَتْ)؟ قلت: معناه: كذبوا فكذبوا عبدنا أي: كذبوه تكذيباً على عقب تكذيب، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب. أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا، أي: لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوّة رأساً، كذبوا نوحًا؛ لأنه من جملة الرسل"(٨٥).

الصورة الخامسة: تكرار إنجاء المؤمنين من الأمم السابقة.

الصورة السادسة: تكرار الامتنان علي العباد بنعمة تيسير القرآن للذكر أربع مرات.

الصورة السابعة: تكرار الحض على التذكر والاتعاظ مرارا "فهل من مدكر" ذكرت ست مرات.

الصورة الثامنة: تكرار النذارات إلى العباد بصورها المختلفة وقد تكررت كلمة (النذر) بلفظها في هذه السورة عشر مرات، كما تكررت النذارة بمادتها ومعناها أكثر من ذلك.

163 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:31 PM

الصورة التاسعة: تكرار لفظ العذاب سبع مرات منسوبا ـ في ست منها ـ إلى الله تعالى (عذابي)، وتكرار الإذاقة للعذاب مرارا حيث تكرر لفظ "فذوقوا عذابي ونذر" مرتين، وتكرر لفظ (ذوقوا) ثلاث مرات بعد قوله تعالى "ذوقوا مس سقر".

الصورة العاشرة: تكرر لفظ (الزجر) بمادته مرتين (مزدجر) آية: ٤ (وازدجر) آية: ٩.

الصورة الحادية عشر: تكرار مصارع المكذبين من الأمم السابقة.

ولذا تكرر لفظ الأخذ بمادته مرتين في ﴿ فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (٤٢).

الصورة الثانية عشر: تكرار المشاكلة:

وذلك كما سبق بيانه في المشاكلة بين قوله تعالى على لسان المجرمين: **(إنا إذا لفي ضلال وسعر)**، وقوله تعالى: عن عذاب المجرمين في الآخرة ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾﴿فَعَقَرَ

فالألفاظ واحدة ولكن المعنى مختلف بين ما وصفوا به أنفسهم لو اتبعوا رسولهم عليه السلام، وبين ما نزل بهم من العذاب في الآخرة بسبب تركهم اتباع نبيهم.

فقد وصفوا أنفسهم بأنهم يكونون على الضلال بمعنى مجانبة الحق والصواب، وأنهم في جنون لو اتبعوا رسولهم الذي وصفوه بالجنون والضلال؛ فأثبت الله لهم الضلال والسعر بسبب ترك اتباع نبيهم؛ فكان ذلك تكذيبا لهم وردًّا لكلامهم، فهم في ضلال وسعر في الآخرة، وهو العذاب والحريق؛ بسبب ما كانوا فيه من ضلال وسعر في الدنيا، وهو مجانبة الحق والتخبط والضلال.

وهذا الوصف – جاء أيضا – انتصارا لنبيهم الذي قالوا عنه **(مجنون وازدجر)**.

كما نلمح كذلك هذا النوع من تكرار المشاكلة والمعاقبة كما في وصف الكافرين لما جاء به نبيهم بأنه: **(سحر مستمر)**

فعاقبهم الله على ذلك بـ**(يوم نحس مستمر)**.

كما نلمح كذلك تكرر كلمة **(أشر)** ومعناها الكبر والبطر عن الحق، وقد تكررت على سبيل المجازاة والمعاقبة بين:

قوله تعالى: ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾(٢٥).

وقوله تعالى: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾(٢٦).

فوصفهم الله تعالى بما وصفوا به نبيهم على سبيل المجازاة والمعاقبة لأنهم أولى بهذا الوصف وأحق به من نبيهم، وهو بريء منه تمام البراءة، بل هو مستحيل عليه.

هذا التحليل السابق لأهم صور التكرار في سورة القمر نستطيع أن نتخذه مفتاحا للوصول إلى سر التكرار الصوتي الذي اشتملت عليه فواصل هذه السورة الكريمة حيث تكرر صوت الراء

164 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:31 PM

بصورة مطردة في جميع فواصل هذه السورة الخمسة والخمسين بلا استثناء، كما قد تكررت بعض الأحرف والحركات في هذه السورة لأغراض بلاغية بعيدة المدى. وإذا صح ما قلناه آنفا من أن هذه السورة الكريمة قد اتخذت التكرار وسيلة وغاية في الوقت نفسه، فالغرض هو تكرير الحجج والآيات والبينات والزواجر علي مسامع هؤلاء الغافلين، حتى لقد تكرر التكرار في هذه السورة بصور شتَّى.

إن هذه السورة إذا هي سورة التكرار ؛ ومن ثم فليس ثمة حرف أنسب لفواصل هذه السورة من حرف الراء لاشتماله علي سمة التكرارية كسمة لازمة له في طبيعة النطق به ؛ ومن ثم يأتي هذا الحرف بهذه السمة الصوتية متناغما تمام التناغم مع سياق هذه السورة ومقامها وغرضها البلاغي.

وثمة مظاهر أخر للتكرار الصوتي في هذه السورة الكريمة تتمثل في تكرار الحركات وتواليها في كلمات هذه السورة كما في تكرار الضم (**النُذُر – نُكُر – الزُبُر – الدُبُر – سُعُر – دُسُر**) وكما في تكرار الفتح وتواليه في (**القمر – عقر – سحر– شكر – أمر – سقر – قدر – نهر**)

كما تبدو مظاهر التكرار الصوتي كذلك في تكرر بعض حروف هذه السورة إما بصورة متتابعة كما في تكرار السين في (**مسّ سقر**) أو بصورة منفصلة كما في تكرار السين في (**نحس مستمر**) ويمكننا أن نقف هنا عند بعض مظاهر هذا التكرار لتأمل ما فيه من الأسرار.

فعلى سبيل المثال في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ (القمر: ٤٨).

كمثال لتوالى الحرف وتكراره على التتابع والانفصال معا حيث تكررت السين أربع مرات في (**يسحبون – مس – سقر**) وتكررت على التوالي ثلاث مرات في (**مس سقر**) باعتبار الحرف المشدد في (مس) كما تكررت حركات الفتح على التوالي في أحرف (**سقر**) وحينما نتأمل السمات الصوتية لحرف السين بماله من طبيعة احتكاكية تبدو واضحة عند النطق به نستشعر مدى مناسبة هذا الصوت الاحتكاكي المهموس لسياق الآية ومعناها حيث يتهكم بالكافرين حينما تأكل النار أجسادهم بمجرد المماسة لها ويأتي حرف السين بما فيه من احتكاك وصفير كأنه حكاية لصوت احتكاك تلك النيران بأجساد هؤلاء الكافرين، بل إننا لنستشعر عند النطق بهذه السينات المتتالية في "مس سقر" حكاية صوت الشيء الذي يشيط ويحترق عند تسليط النيران عليه، ويمكن أن نتذوق ذلك بأنفسنا بتكرار تلك السينات وتأمل هذا المعنى عند النطق بها في هذا السياق.

ويأتي هذا الصوت الاحتكاكي في هذه السينات المتتالية متجاوبا ومتناغما مع صوت الاحتكاك المتجاوب في أول الآية من السين المعبرة أيضا تمام التعبير عن حكاية صوت السحب وما فيه من احتكاك واضح في قوله (**يسحبون**).

165 19-11-2009.indd فىاطلا ةغماج 1/4/2010 7:38:31 PM

ومن ثم يتجاوب الاحتكاك المنبعث في أول هذه الآية مع الاحتكاك المتتابع في آخرها. كما يأتي هذا التتابع للاحتكاك والمس في إذاقة العذاب متجاوبا مع توالي الحركات المفتوحة في (سقر) التي تدل كذلك بتكرر حركات الفتح فيها على توالي العذاب، وسرعة غليان تلك النيران وتقلبها بأهلها فهي تفور بهم كما تفور القدر بالحب، ومن ثم يأتي توالي الحركات هنا محاكيا تمام المحاكاة لذلك الفوران والغليان، وإذا كنا قد

استشعرنا ذلك من توالي حركات الفتح في مثل (**سقر**) فإننا نكاد نستشعر كذلك مدى تلهف هذه النار على التهام أهلها وضمهم إليها في توالي الضم وتكراره في نحو (**سعر**) التي جاءت متجاوبة مع (**سقر**) في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ فَعَقَرَ

166 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:31 PM

هوامش البحث ومصادره:

(١) اللهم إلا محاولات بعض البلاغيين التي لم تصل إلى حد كبير من النضج والتعمق الأسلوبي بحسب طبيعة عصرها، وذلك كمحاولة الطيبي سنة ٧٤٣هـ في كتابه (التبيان في المعاني والبيان)، حيث جعل الفصاحة علما مستقلا قسيما للبلاغة، وليس مقدمة لها، ولا قسما منها، وقد بينت ذلك تفصيلا في تحقيقي للكتاب، طبعة مؤسسة نزار الباز- مكة، وفي رسالتي للماجستير عن الطيبي وجهوده البلاغية- ط مؤسسة نزار الباز.

(٢) انظر في تعريف الأسلوب والأسلوبية: د/عبد السلام المسدى – الأسلوبية والأسلوب – الدار العربية للكتاب – تونس ١٩٧٧ ص ٥٧، وانظر/ برند شبلنر/ علم اللغة والدراسات الأدبية/ ترجمة د/ محمود جاد الرب ص ٨١،و انظر د/ أحمد درويش – النص البلاغى فى التراث العربى والأدبى – ط مكتبة النصر – داخل جامعة القاهرة، مقال فى الأسـلوب – جورج بوفون ص ١٨٩–١٩٤، وأنظر مقالة بعنوان الأسلوب والأسلوبية، فى فصول١/٨٤، ص ٦٠، وانظر:أحمد الشايب – الأسلوب ص ٣٦ – مكتبة النهضة المصرية – ٩ ش عدلى بالقاهرة ط٣.

(٣) أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان – البحر المحيط – مطبعة السعادة بمصر، طبعة مصورة ط دار الفكر – بيروت ١٠/١٧٤.

(٤) سورة المعارج.

(٥) النحل:٧٧

(٦) القمر:٥٠

(٧) القيامة:٦

(٨) قال الطبري في تفسيره في هذه الآية:"وقوله(وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) يقول جلّ ثناؤه: وانفلق القمر، وكان ذلك فيما ذُكر على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة، قبل هجرته إلى المدينة، وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية، فآراهم ﷺ انشقاق القمر، آية حجة على صدق قوله، وحقيقة نبوّته؛ فلما أراهم أعرضوا وكذبوا، وقالوا: هذا سحر مستمرّ، سحرنا محمد، فقال الله جلّ ثناؤه﴿ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾(٥٢)

وينحو الذي قلنا في ذلك جاءت الآثار، وقال به أهل التأويل.

* ذكر الآثار المروية بذلك، والأخبار عمن قاله من أهل التأويل:

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة " أن أنس بن مالك حدثهم أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرّتين ".(انظر: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، (جامع البيان في تفسير القرآن)، المطبعة الخيرية بمصر ١٣٣٠، طبعة مصورة.

(٩) البحر المحيط ١٠/١٧٣

(١٠) محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي – مختارالصحاح: عرض – الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت ط، ١٤١٥ هـ– ١٩٩٥م – تحقيق: محمود خاطر.

(١١) ابن سيده المرسي الضرير أبو الحسن علي بن إسماعيل – المحكم والمحيط الأعظم / تح د عبد الحميد هنداوي / دار الكتب العلمية ١٤٢١هـ – مادة: سحر.

(١٢) محمد الطاهر بن عاشور – التحرير والتنوير ط الدار التونسية ١/٤٠٤.

(١٣) البحر المحيط ١٠/١٧٣

(١٤) النجم: ٦

(١٥) قال الطبري في تفسيره في هذه الآية:"وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يوجه قوله (مُسْتَمِرٌّ) إلى أنه مستفعل من الإمرار من قولهم: قد مرّ الجبل: إذا صلب وقوي واشتدّ وأمررته أنا: إذا فتلته فتلا شديدا، ويقول: معنى قوله(وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ): سحر شديد."

19-11-2009.indd 167 فىاطلا ةغمراح 1/4/2010 7:38:31 PM

(١٦) قال الرازي في تفسير (مستمر): "فيه وجوه أحدها: دائم فإن محمداً ﷺ كان يأتي كل زمان بمعجزة قولية أو فعلية أرضية أو سماوية، فقالوا: هذا سحر مستمر دائم لا يختلف بالنسبة إلى النبي عليه السلام بخلاف سحر السحرة، فإن بعضهم يقدر على أمر وأمرين وثلاثة ويعجز عن غيرها وهو قادر على الكل وثانيها: مستمر أي قوى من حبل مرير الفتل من المرة وهي الشدة وثالثها: من المرارة أي سحر مر مستبشع ورابعها: مستمر أي مار ذاهب، فإن السحر لا بقاء له."الرازي أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين – تفسيره: مفاتيح الغيب (ج ١٤ / ص ٤٧٤).

(١٧) قال الرازي:"وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ فيه وجوه أحدها: كل أمر مستقر على سنن الحق يثبت والباطل يزهق، وحينئذ يكون تهديداً لهم، وتسلية للنبي ﷺ، وهو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم﴾ (الزمر: ٧) أي بأنها حق ثانيها: وكل أمر مستقر في علم الله تعالى: لا يخفى عليه شيء فهم كذبوا واتبعوا أهواءهم، والأنبياء صدقوا وبلغوا ما جاءهم، كقوله تعالى: (لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَىْء) (غافر: ١٦)، وكما قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ (القمر: ٥٢، ٥٣)، ثالثها: هو جواب قولهم: (سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) أي ليس أمره بذاهب بل كل أمر من أموره مستقر. تفسير الرازي – (ج ١٤ / ص ٤٧٥)

(١٨) الفيروزآبادي محمد بن يعقوب – القاموس المحيط – ط الرسالة: نبأ

(١٩) المرتضى الزبيدي – تاج العروس من جواهر القاموس – ط دار إحياء التراث العربي – بيروت – مادة: زجر

(٢٠) المحكم والمحيط الأعظم: بلغ

(٢١) ومنه "(تناذر) القوم أنذر بعضهم بعضا شرا خوف بعضهم بعضا منه"

(٢٢) ابن الأثير أبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي – المثل السائر /تحقيق د.بدوي طبانة وزميله ط دار نهضة مصر–الفجالة–القاهرة ١/ ١٦٩

(٢٣) التحرير والتنوير ٢٢٥/١٤

(٢٤) التحرير والتنوير (ج ١٤ / ص ٢٢٧)

(٢٥) التحرير والتنوير ٢٢٥/١٤

(٢٦) البحر المحيط:١٠/١٧٣

(٢٧) التحرير والتنوير ٢٢٥/١٤

(٢٨) تفسير الرازي – (ج ١٤ / ص ٤٧٤)

(٢٩) التحرير والتنوير (ج ١٤ / ص ٢٢٥)

(٣٠) الألوسي: شهاب الدين محمود ابن عبدالله الحسيني الألوسي – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – ط دار إحياء التراث العربي – بيروت (ج ٢٠ / ص ٥٣)

(٣١) جار الله الزمخشري:ابو القاسم محمود بن عمر /الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل /مصطفى الحلبي القاهرة ١٣٩٢ هـ – (ج ٦ / ص ٤٤٩)

(٣٢) القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله – الجامع لأحكام القرآن – دار احياء التراث العربي (ج ١٧ / ص ١٢٨)

(٣٣) التحرير والتنوير (ج ١٤ / ص ٢٢٥)

(٣٤) التحرير والتنوير (ج ١٤ / ص ٢٢٧)

(٣٥) التحرير والتنوير (ج ١٤ / ص ٢٢٧)

(٣٦) البحر المحيط:١٠/١٧٤

(٣٧) المحيط في اللغة – (ج ١ / ص ٨)

(٣٨) المحكم والمحيط الأعظم (ج ٣ / ص ٣٠٩)

168 19-11-2009.indd فىاطلا قعماح 1/4/2010 7:38:31 PM

(٣٩) التحرير والتنوير (ج ١٤ / ص ٢٢٩)
(٤٠) الصحاح في اللغة – (ج ٢ / ص ٥٨)
(٤١) ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن – جمهرة اللغة – تحقيق: رمزي البعلبكي – عدد الاجزاء: ٣ الطبعة رقم: ١ الناشر: دار العلم للملايين – (ج ٢ / ص ١٤)
(٤٢) الصحاح في اللغة – (ج ٢ / ص ٢٥٢)
(٤٣) تفسير الألوسي (ج ٢٠ / ص ٥٩)
(٤٤) تفسير الرازي – (ج ١٤ / ص ٤٨٠)
(٤٥) البحر المحيط:١٠/١٧٤
(٤٦) تفسير الرازي:١٦/٢٧٢
(٤٧) تفسير القرطبي – (ج ١٧ / ص ١٣٠)
(٤٨) التحرير والتنوير (ج ١٤ / ص ٢٢٩)
(٤٩) تفسير الألوسي (ج ٢٠ / ص ٥٧)
(٥٠) تفسير الرازي – (ج ١٤ / ص ٤٧٩)
(٥١) الكشاف – (ج ٦ / ص ٤٥٠)
(٥٢) تفسير الألوسي (ج ٢٠ / ص ٥٨)
(٥٣) الشّوكاني محمّد بن علي بن محمّد – فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير – ط٣، مصورة ١٩٧٣م – (ج ٧ / ص ٨٩)
(٥٤) الكشاف – (ج ٦ / ص ٤٥١)
(٥٥) أساس البلاغة – (ج ٢ / ص ٥)
(٥٦) تفسير الرازي – (ج ١٤ / ص ٤٨٨)
(٥٧) تفسير القرطبي – (ج ١٧ / ص ١٣٨)
(٥٨) فتح القدير – (ج ٧ / ص ٩٨)، تفسير القرطبي – (ج ١٧ / ص ١٤٧)
(٥٩) السابق – (ج ٧ / ص ٣١٧)
(٦٠) الصحاح في اللغة – (ج ١ / ص ١٤)
(٦١) تفسير الرازي – (ج ١٥ / ص ٣)
(٦٢) السابق – (ج ١٤ / ص ٤٩٦)
(٦٣) لسان العرب – (ج ٦ / ص ٢٦٧)
(٦٤) فتح القدير – (ج ٧ / ص ٩٦)
(٦٥) المحيط في اللغة – (ج ١ / ص ٤٤٨)
(٦٦) جمهرة اللغة – (ج ١ / ص ٣٩٠)
(٦٧) الصحاح في اللغة – (ج ٢ / ص ١٤٨)
(٦٨) فتح القدير – (ج ٧ / ص ٩٢)
(٦٩) تفسير القرطبي – (ج ١٧ / ص ١٣١)
(٧٠) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – (ج ١ / ص ١٦٩)
(٧١) الأعراف: ٣، النمل:٦٢، الحاقة:٤٢
(٧٢) هو قدار بن سالف عاقر الناقة – انظر تفسير البحر المحيط – (ج ١٠ / ص ١٨٢)
(٧٣) تفسير البحر المحيط – (ج ١٠ / ص ١٨٢)

169 19-11-2009.indd فىراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:31 PM

(٧٤) فتح القدير – (ج ٧ / ص ٩٠)
(٧٥) البيضاوي ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر بن محمد – أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ط الحلبي.
(٧٦) الكشاف – (ج ٦ / ص ٤٥١)
(٧٧) تفسير القرطبي – (ج ١٧ / ص ١٣٣)
(٧٨) فتح القدير – (ج ٧ / ص ٩٠)
(٧٩) تفسير الرازي – (ج ١٥ / ص ١)
(٨٠) تفسير الرازي – (ج ١٥ / ص ٣)
(٨١) التحرير والتنوير (ج ١٤ / ص ٢٤٤)
(٨٢) تفسير الرازي – (ج ١٤ / ص ٤٨٩)
(٨٣) التحرير والتنوير (ج ١٤ / ص ٢٥٧)
(٨٤) التحرير والتنوير (ج ١٤ / ص ٢٦٢)
(٨٥) الكشاف – (ج ٦ / ص ٤٥١)

فيراطلا ةغمراح 19-11-2009.indd 170 1/4/2010 7:38:31 PM

الخلاف في جواز تقديم جواب الشرط على الفعل والأداة
عرض ودراسة

د. علي بن الحسن بن هاشم السرحاني

الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية

كلية المعلمين - جامعة الطائف

171 19-11-2009.indd فى اطل اقع م اح 1/4/2010 7:38:31 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 172 1/4/2010 7:38:31 PM

الملخص

هذا البحث يتناول مسألة من مسائل الجملة الشرطية، وهي: تقديم جواب الشرط على الفعل والأداة، ويذكر مذاهب العلماء في هذه المسألة، وقد صنّف البحث مذاهب العلماء في هذه المسألة إلى أربعةمذاهب:

- المنع مطلقًا، وهو مذهب جمهور البصريين.
- الجواز مطلقًا، وهو مذهب الكوفيين ومَنْ وافقهم من البصريين.
- مذهب المازني، وهو يجيز التقديم إذا كان جواب الشرط مضارعًا، ويمنعه إذا كان ماضيًا.
- مذهب بعض البصريين، وهو جواز التقديم إذا كان فعل الشرط ماضيًا.

وقد تناول البحث هذه المذاهب بالدراسة والتحليل، وبيّن منشأ الخلاف والأصل الذي اعتمده كل فريق في تقرير مذهبه، وناقش أدلة كل فريق وحججهم، وعرضها على كتب المتأخرين من النحاة،وبعض الدراسات الحديثة، وذكر اختيارات المتأخرين من النحاة وأدلتهم، وناقش هذه الاختيارات مناقشة علمية، فأيّد بعضها، ورد بعضها، واختار الباحث ما يراه أقرب للصواب، وما تؤيده الأدلة.

وخُتم البحث بخاتمة تبين أهم النتائج التي توصل إليها الباحث.

173 فىراطلا ةغماج 19-11-2009.indd 1/4/2010 7:38:31 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 174 1/4/2010 7:38:31 PM

المقدمة

الحمد لله حمدًا يكافئ سابغ نعمه، وأستديم به رضاه وعظيم مننه، والصلاة والسلام على مصطفاه من خلقه، وشفيعنا يوم القيامة، سيدنا محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فقد أكثر نحاتنا الأوائل- عليهم رحمة الله - من الحديث عن الجملة الشرطية، فتناولوها من عدة جوانب، فتارةً يتحدثون عن مرتبة الجزاء من الشرط، وأيهما حقه التقديم على الآخر، ونراهم - تارة أخرى - يطيلون الحديث فيما يعمل في كل منهما[١]، ويختلفون كثيرًا في تقرير هذه المسائل، إضافة إلى مسائل فرعية ترتبط بهذا الأسلوب - أعني أسلوب الشرط والجزاء- كخلافهم في تقديم المفعول بالجزاء على حرف الشرط[٢]، وخلافهم في جواز تقديم اسم مرفوع أو منصوب في جملة جواب الشرط[٣]، وخلافهم في عامل الرفع في الاسم المرفوع بعد (إن) الشرطية[٤]، وغيرها من المسائل المتعلقة بهذا الأسلوب مما تراه مبثوثًا في كتب النحو.

ومما اختلفوا فيه من مسائل هذا الأسلوب ما إذا تقدم أداة الشرط جملة تصلح أن تكون جوابًا، ثم ذكر فعل الشرط ولم يذكر له جواب؛ كقولهم: (أقومُ إن قُمْتَ) و (أنت ظالم إن فعلت) فهل هذه الجملة المتقدمة جواب الشرط أوهي دليل على الجواب المحذوف؟ غير أنّ هذه المسألة لم تعط حقها من البحث والدراسة - فيما اطلعت عليه - فقد خلت منها مسائل ابن الأنباري في الخلاف بين المدرستين، ولم يتعرض لها إلا يسيرًا في ثنايا المسائل التي أشرت إليها فيما قدمت،وكذلك جاء الحديث عنها فيما اطلعت عليه من الدراسات الحديثة التي تناولت جملة الشرط يدور حول ذكر المذهبين المشهورين في توجيه هذه المسألة دون الخوض في تأصيل هذين الرأيين -أعني المذهبين المنسوبين للبصريين والكوفيين- ولا غيرهما من الآراء إلا يسيرًا،وفي مواضع متفرقة، لاتجلي هذه المسألة، فتجمع متفرقها،وتبسط خلافها، وتناقش آراءها، وتحتج لها، وهي - في نظري - أحقّ أن تبحث وأن تناقش؛ إذ هي الأصل الذي تنبثق منه تلك المسائل؛فلو حُرّرت هذه المسألة لأغنت عن غيرها من المسائل، فأحببت أن أجمع شتات هذه المسألة في هذا البحث،وأتتبع أقوال العلماء وحججهم وأدلتهم، وأقوم بمناقشتها ودراستها دراسة علمية، محايدة، لا تنتصر لمذهب على آخر، ولا لعالم بعينه، بل تحتكم إلى الحجة والبرهان، وتختارماتؤيده الأدلة والشواهد.

والله أسأل أن أوفق إلى ما أردت، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

19-11-2009.indd 175 فيراطلا ةغمجا 1/4/2010 7:38:31 PM

آراء العلماء في جواز تقديم جواب الشرط على الفعل والأداة:

عُني النحاة بمباحث الجملة الشرطية، فلا تكاد ترى كتابًا في النحو يخلو من إشارة إلى المسائل الخلافية، في هذا الأسلوب، بل إن ابن الأنباري قد ذكر أربع مسائل خلافية بين البصريين والكوفيين؛كما أشرت إليه آنفًا في مقدمتي، أمّا مسألتنا هذه فلم يفرد لها بحثًا يخصها، وكذلك وردت في أغلب كتب النحو مفرقة،ويشار إليها إشارة العابر، وهذا البحث يتناول المسألة المشار إليها آنفًا فيفصل الخلاف فيها ويشرحه، ويبين أدلة كل فريق، فأقول مستعينًا بالله:

اختلفت عبارات العلماء في تخريج الجملة التي تتقدم على أداة الشرط - فعلية كانت أو اسمية - وتصلح أن تكون جوابًا، لا سيما إذا ذكر بعدها فعل الشرط ولم يذكر له جواب، ولهم في تخريج مثل هذا الأسلوب مذاهب أربعة ذكرها أبو حيان في ارتشاف الضّرَب:(٥)

أحدها: مذهب جمهور البصريين، أنه لا يجوز تقديم الجواب على الشرط، وأن هذا المتقدم دليل على الجواب المحذوف.

الثاني: مذهب الكوفيين، وأبي زيد، والأخفش، والمبرّد، جواز أن يكون هذا المتقدم جواب الشرط.

الثالث: مذهب المازنيّ أنه إن كان ماضيًا فلا يجوز تقديمه - يعني فعل الجواب - نحو: (قمتُ إن قام زيدٌ) و (قمتُ إن يقمْ زيدٌ)، وإن كان مضارعًا جاز نحو (أقومُ إن قام زيدٌ) و(أقومُ إن يقم زيدٌ).

الرابع: مذهب بعض البصريين أنه يجوز إن كان فعل الشرط ماضيًا نحو: (أقومُ إنْ قمتَ)، أو كانا معًا ماضيين نحو: (قمتُ إن قُمت).

أدلة المانعين:

أما الذين قالوا بعدم جواز تقديم الجواب على الشرط - وهم جمهور البصريين- فجعلوا هذا المتقدم دليلاً على الجواب المحذوف،وقدّروا الجواب من لفظ هذه الجملة المتقدمة، قال ابن السّراج - بعد ذكره قول الفراء من أنّ نية الجزاء على تقديم الفعل نحو: أقومُ إن قمتَ -:" وهذا الذي ذكره الفراء مخالف لمعنى الكلام وما يجب من ترتيبه، وللاستعمال، وذلك أن كلّ شيء يكون سببًا لشيء أو علةً له، فينبغي أنْ تقدم فيه العلة على المعلول؛ فإذا قلت: إن تأتني أُعْطِك درهمًا؛ فالإتيان سبب للعطية؛به يستوجبها، فينبغي أن يتقدم...فأمّا قولهم: أجيئك إن جئتني، وآتيك إن تأتني، فالذي عندنا أن هذا الجواب محذوف، كفى عنه الفعل المقدَّم، وإنما يستعمل هذا على جهتين: إمّا أن يُضطر إليه الشاعر فيقدم الجزاء للضرورة، وحقه التأخير، وإمّا أن

19-11-2009.indd 176 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:31 PM

تذكر الجزاء بغير شرط ولا نيّة فيه، فتقول: أجيئك، فيعدك بذلك على كلّ حال، ثم يبدو له ألاّ يجيئك بسبب فتقول: إن جئتني، ويستغني عن الجواب بما قدّم، فيشبه الاستثناء[٦]".

وقال ابن جني:" ولا يجوز تقديم الجواب على المجاب، شرطًا كان أو قسمًا أو غيرهما، ألا تراك لا تقول: أَقُمْ إن تَقُمْ، فأمّا قولك: أقومُ إن قمتَ؛ فإن قولك: أقوم ليس جوابًا للشرط، ولكنّه دالٌّ على الجواب، أي: إن قمتَ قمتُ، ودلّت أقومُ على قمتُ، ومثله: أنت ظالم إن فعلتَ، أي: إن فعلت ظلمتَ، فحذفت ظلمت ودلّ قولك: (أنت ظالم) عليه...[٧]".

وقال ابن الحاجب:"ولمّا كان الشرط كالاستفهام في الإنشاء ووجود الحرف الدال على ذلك وجب له صدر الكلام الذي هو فيه؛ فلم يَجُزْ: عمرٌو إن تضرب أضرب ولا أشباه ذلك"[٨] وبمثل قوله قال الرضي في شرح الكافية، معتلاً بما ذكره ابن الحاجب من أن للشرط صدر الكلام[٩].

وخلاصة القول عند هؤلاء ممن يمنعون تقدم جواب الشرط على الفعل والأداة أن سبب ذلك أن (إنْ) الشرطية وسائر أدوات الشرط لها صدر الكلام فلا ينبغي أن يتقدم عليها ما بعدها، وأن مرتبة الجزاء تالية لمرتبة الشرط وكذلك الجزاء مسبَّب عن الشرط وعلّة له، فحقٌّ ما كان كذلك أن تكون رتبته التأخير؛ إذ المسبَّب لا يتقدم على مسببه، وكذلك المعلول لا يتقدم على علته.

وقد نصّوا على أنه لا يجوز تقديم ما هو جواب في المعنى إلا إذا كان فعل الشرط ماضيًا، لفظًا أو معنًى، وذلك أن الأداة لا تعمل في الشرط لفظًا، كما لم تعمل فيما هو كالجزاء عندهم، ولا يجيء مضارعًا - عندهم - إلا في الشعر.

قال الرضي:"واعلم أنّه إذا تقدم على الشرط ما هو جواب في المعنى، فالشرط لا يكون حينئذٍ إلا ماضيًا لفظًا أو معنًى نحو:" أضربُك إن ضربتني، وأضربك إن لم تعطني، وإنما جاز ذلك حتّى لا تعمل الأداة في الشرط لفظًا كما لم تعمل فيما هو كالجزاء عند البصرية..."[١٠].

وقال ابن هشام:" وحيث حُذف الجواب اشتُرط في غير الضرورة مضيّ الشّرط، فلا يجوز أنت ظالم إن تفعل، ولا والله إن تقم لأقومنّ "[١١].

أدلة المجيزين ومناقشة هذه الأدلة:

أما أصحاب المذهب الثاني - وهم أهل الكوفة ومن وافقهم من البصريين - فقد أجازوا أن يكون هذا المتقدم جوابًا للشرط، فأما الكوفيون فقالوا:"الأصل في الجزاء أن يكون مقدّمًا على (إنْ)؛ كقولك: أضربُ إن تضربْ، وكان ينبغي أن يكون مرفوعًا، إلا أنه لما أُخّر انجزم بالجوار، وإن كان من حقه أن يكون مرفوعًا"[١٢]

177 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:32 PM

واستدلوا على ذلك بقول الشاعر[١٣]:

يا أقرعُ بنَ حابسٍ يا أقرعُ إنّك إن يُصرعْ أخوك تُصْرَعُ

قالوا التقدير: إنّك تصرعُ إن يصرعْ أخوك، ولولا أنه في نية التقديم لوجب أن يكون مجزومًا، واستدلّوا - أيضًا - بقول زهير[١٤]:

وإن أتاه خليلٌ يوم مسألةٍ يقولُ لا غائب مالي ولا حَرِمُ

قالوا هو على نية التقديم، وتقديره: يقول إن أتاه خليل، ومثله قول الآخر[١٥]:

فلمّ أرْقِه إنْ يَنْجُ منها وإن يَمُتْ فطعنـــةٌ لاغُسٌّ، ولا بِمُغَمـــرِ

والتقدير فيه: إنْ يَنْجُ فَلَمّ أرْقِه.

هذا ما أورده ابن الأنباري في احتجاج الكوفيين على جواز تقديم المفعول بالجزاء على حرف الشرط[١٦]، وهو صالح للاحتجاج به في مسألتنا هذه، كما ترى.

وأجاب عن قول الكوفيين: إن الأصل في الجزاء أن يكون مقدمًا على الشرط بعكس ما ذكروا، فقال: إن مرتبة الجزاء تلي مرتبة الشرط؛ إذ الشرط سبب في الجزاء، والجزاء مسبَّب عنه، وتقديم المسبَّب على السبب محالٌ.[١٧]

وأجيب عن البيت الأول بأن التقديم من أجل الضرورة الشعرية، وهذا لا حجة فيه، أما البيت الثاني فإنما رُفع لأن فعل الشرط ماضٍ، وفعل الشرط إذا كان ماضيًا لا يظهر فيه الجزم، ففعل الجزاء أولى بعدم الجزم، فيبقى على أول أحواله وهو الرفع.

وأجيب عن الثالث بأن هذا المذكور دليل على جواب الشرط المحذوف[١٨]، وهو موضع الخلاف في مسألتنا هذه.

وقد وافق المبرّد الكوفيين على جواز تقديم الجواب على الفعل والأداة في النثر، غير أنه لم يستدل بما استدلوا به من أن الأصل في الجواب أن يتقدم على الشرط، وهو مرفوع إلا أنه انجزم لمّا جاور فعل الشرط؛ لأن هذا مذهب الكوفيين فيما يعمل في جواب الشرط، وقد خالفهم البصريون في ذلك، فذهب الأكثرون منهم إلى أن العامل في فعل الشرط وجوابه هو حرف الشرط، وذهب آخرون إلى أن حرف الشرط وفعل الشرط يعملانِ في الجواب، وذهب آخرون إلى أن العامل في فعل الشرط هو حرف الشرط، وفعل الشرط يعمل في الجواب، واختار ابن الأنباري أن يكون العامل في جواب الشرط هو(إنْ) بواسطة فعل الشرط[١٩]، ولم أقف على من نسب هذا المذهب إلى المبرد، ولم يرد في كلام المبرد الاحتجاج بالأبيات المذكورة عند الكوفيين، بل ظاهر كلامه أنه إنما يجوز تقدّم الجواب إذا كان فعل الشرط ماضيًا، قال المبرّد:" أما ما

19-11-2009.indd 178 1/4/2010 7:38:32 PM

يجوز في الكلام فنحو آتيك إن أتيتني، وأزورك إن زرتني، ويقول القائل: أتعطيني درهمًا ؟ فأقول: إن جاء زيدٌ، وتقول: أنت ظالم إن فعلتَ، فإن قلت: آتي من أتاني، وأصنع ما تصنع، لم يكن ههنا جزاء، وذلك أن حروف الجزاء لا يعمل فيها ما قبلها... فإذا كان الفعل ماضيًا بعد حرف الجزاء جاز أن يتقدم الجواب؛ لأنّ (إنْ) لا تعمل في لفظه شيئًا، وأما ما لا يجوز إلا في الشعر فهو: إن تأتني آتيك، وأنت ظالم إن تأتني؛ لأنها قد جزمت، ولأنّ الجزاء في موضعه، فلا يجوز في قول البصريين في الكلام..."[٢٠].

فهذه عبارته - عليه رحمة الله - وهي لا تشبه مذهب الكوفيين؛ إذ الكوفيون - سوى الفراء- يجيزون حذف جواب الشرط، وفعل الشرط مستقبل قياسًا على المضي، فقد أجازوا: أنت ظالم إن تفعل، نصّ على ذلك أبو حيّان في الارتشاف[٢١].

فالاحتجاج مختلف، والاستدلال مختلف، وهو لا يوافقهم إلا في مطلق الجواز؛ ولذلك كان حقًا على أبي حيان - رحمه الله - أن يضعه مع أصحاب المذهب الرابع، وهو مذهب بعض البصريين؛ إذ كلامه أشبه بكلامهم.

وممّن وافق الكوفيين الأخفشُ؛ كما نصّ على ذلك أبو حيّان وغيره[٢٢]، ولم أقف على نصّ الأخفش الذي يؤيّد هذه النسبة، وهل هو موافق لهم في الجواز فقط، أو هو موافق لهم فيما احتجوا به، وإن كنت أستبعد موافقته لهم في الاستدلال؛ لأن ابن الأنباري لم يذكر موافقته لهم في الاستدلال على العامل في الجواب ولا غيره من المسائل التي سبق أن أشرت إليها.

أما أبو زيد الأنصاري فقد نسب إليه القول بالجواز جماعة من العلماء منهم ابن جني، وابن مالك، وأبو حيّان، والأزهريُّ صاحب التصريح[٢٣].

ونقلوا عنه قوله بأن المتقدم على الشرط نفس الجواب، قال ابن مالك في شرح التسهيل:" واحتجّ أبو زيد على أن المتقدم هو نفس الجواب بمجيئه مقرونًا بالفاء كقوله[٢٤]:

فلمْ أرْقِهِ إنْ يَنْجُ منها وإن يَمُتْ فطعنةٌ لاغُسٌّ، ولا بِمُغَمَّرِ "[٢٥]

وقد رُدّ مذهب الكوفيين ومَنْ وافقهم بأمور، سوى ما قدمت من كلام ابن الأنباري آنفًا، منها:

- أنّ حرف الشرط دال على معنى في الشرط والجزاء، وهو الملازمة بينهما، فيجب تقديمه عليهما، كما يجب تقديم سائر حروف المعاني على ما فيه معناه، ذكره ابن مالك في التسهيل[٢٦].
- أنه لا يصح جعل هذا المتقدم جوابًا صناعةً؛ إما لكونه جملةً اسمية مجردةً من الفاء في نحو: أنت ظالمٌ إن فعلتَ، وكان حقّ هذه الجملة الاسمية أن تقترن بالفاء لوكانت جوابًا كما هو معروفٌ مشهورٌ عند جميع النحويين، وإمّا لكونه جملةً فعلية منفية مجزوم فعلُها بـ(لم)

179 19-11-2009.indd فىاطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:32 PM

كالبيت السابق وهي مقترنة بالفاء، والجواب المنفي بـ(لم) لا تدخل عليه الفاء، وإما لكونه فعلاً مضارعًا مرفوعًا، وهذا ينافي جعلَه جوابًا؛ إذا الجواب مجزوم[٢٧].

- ومنها ما ردّ به ابن مالك احتجاج أبي زيد بالبيت السابق؛ إذ قال:" وليس بشيء لأنّ تقدير معطوف عليه خيرٌ من تقديم الجزاء على الشرط وتصدير حرف العطف"[٢٨].

وقد أجيب عن الأول - وهو عدم دخول الفاء - بأن الفاء إنما لم تدخل؛ لأنها لا تناسب الصّدر، وهي خلف عن العمل، ولا عمل مع التقديم، وعن الثاني بأن الفاء قد تدخل على المنفي بـ(لم)، فقد أجاز الزمخشري في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾[٢٩] الآية أن يكون التقدير: إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم.

وأجيب عن الثالث بأن رفع المضارع؛ لضعف الحرف أن يعمل مؤخرًا، ذكر ذلك الأزهري في التصريح[٣٠].

وقد نص الأزهريّ - رحمه الله - على أن الكوفيين ومَنْ وافقهم أجابوا عن هذه الاعتراضات بما ذكر، وفيما ذكره نظرٌ من وجهين:

أحدهما: ما ذكره من دخول الفاء على المنفي بـ(لم) واحتجاجهم بقول الزمخشري في الآية؛ والزمخشري متأخّر، لا تقوم بقوله حجة، إلا أن يقال: إن هذا الرد قيل على لسان محتجّ لهم، والجواب عنه ما قدمت من تأخر الزمخشري.

والآخر: ما ذكره في الجواب الثالث لا يصلح جوابًا عند الكوفيين؛ لأنهم يقولون إن مرتبة الجزاء قبل الشرط، وحقّه التقديم والرفع، وأنه إنما ينجزم لمجاورته لفعل الشرط، وهذا سبق بيانه في تأصيل مذهبهم.

وممّن اختار مذهب الكوفيين من المتأخرين عبد القاهر الجرجاني فيما نقله عنه صاحب التخمير، وابن القيم في البدائع، ولم أقف على ذلك في كتبه التي بين يديّ، بل الذي في المقتصد يدل على خلاف ما نقلاه[٣١]، وإليك عبارتَه بحروفها:" الدليل على أنّك إذا قلت: آتيك إن أتيتني كان الشرط متصلاً بآتيك، وأنّ الذي يجري في كلامهم من أنه لابُدّ من إضمار الجزاء ليس على ظاهره، ولكن لو توقفنا على أن الشرط متقدم في النفي على الجزاء،أنّا إن عملنا على هذا الظاهر صار إلى تبيين ابتداء كلام ثانٍ، واعتقاد ذلك يؤدي إلى إبطال ما اتفق عليه العقلاء في الأيمان من أنّ افتراق الحكم بين أن يصل الشرط في نطقه وبين أن يقف ثم يأتي بالشرط، وأنّه إذا قال لعبده: أنت حُرٌّ إن شاء الله، فوصل لم يُعتق، وإذا قال: أنت حُرٌ، ووقف، ثم قال:إن شاء الله فإنه يُعتق "[٣٢] أ.هـ

180 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:32 PM

ومنهم ابن القيم في البدائع؛ إذ يقول بعد ذكر اختلاف البصريين والكوفيين في مسألتنا هذه، وبعد نقله كلام ابن السراج الذي قدمته في القول الأول: وقول الكوفيين هو الصواب، وهو اختيار الجرجاني، ثم ذكر قول الجرجاني المتقدم، وتعقبه بقوله: "ولم يكن به حاجة في تقرير الدليل إلى الوقف بين الجملة الأولى وجملة الشرط؛ فالدلالة قائمة ولو وصل؛ فإنه إذا قال: أنت حرّ، فهذه جملة خبرية ترتب عليها حكمها عند تمامها، وقوله: إن شاء الله، ليس تعليقًا لها عندكم؛ فإن التعليق إنما يعمل في الجزاء، وهذه ليست بجزاء، وإنما هي خبر محض، والجزاء عندكم محذوف، فلمّا قالوا: إنه لا يعتق دلّ على أنّ المتقدم نفسه جزاء معلّق، هذا تقرير الدلالة"[٣٣] أ.هـ

ردّ ابن القيم على أدلة المانعين:

قال ابن القيم -رحمه الله- بعد اختياره مذهب الكوفيين، رادا ما احتج به ابن السراج: "أما قول ابن السراج: إنه قصد الخبر جزمًا ثم أعقبه بالجزاء فليس كذلك، بل بنى كلامه على الشرط؛ كما لو قال: له عليّ عشرةٌ إلا درهما، فإنه لم يُقِرّ بالعشرة ثم أنكر درهمًا، ولو كان كذلك لم ينفعه الاستثناء" (٣٤).

ورد ما احتج به ابن السراج من أنّ هذا التقديم لا يقع إلا في ضرورة الشعر، فقال: ليس الأمر كما قال، فقد جاء في أفصح الكلام بكثرة، كقوله تعالى: ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[٣٥]، وقوله: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾[٣٦]، وقوله: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٣٧]، قال: فالصواب المذهب الكوفي؛ إذ التقدير لايصار له إلا إذ لم يتم الكلام إلا به، فإذا تم الكلام فلا حاجة بنا إلى التقدير.[٣٨]

وقد احتج ابن القيم لاختياره مذهب الكوفيين بأمور:

أحدها: أنّ تقديم الجزاء ليس بدون تقديم الخبر والمفعول والحال ونظائرها، فكما جاز تقديم هذه الأشياء فيجوز تقديم الجزاء على شرطه.

ثانيها: أنّ الشرط والجزاء جملتان قد صارتا بأداة الشرط جملة واحدة، وصارت الجملتان بالأداة كأنهما مفردان؛ فأشبها المفردين في باب الابتداء والخبر، والخبر لا يمتنع تقديمه على المبتدأ فكذلك الجزاء هنا.

ثالثها: أنّ الجزاء هو المقصود والشرط قيدٌ فيه، وتابعٌ له، فهو من هذا الوجه رتبته التقديم طبعًا، ولهذا كثيرًا ما يجيء الشرط متأخرًا عن المشروط؛ لأن المشروط هو المقصود، وهو الغاية، والشرط وسيلة، فتقديم المشروط هو تقديم الغايات على وسائلها، وتقدم الغاية على وسيلتها أقوى، فإذا وقعت في موقعها فأيّ حاجة إلى تقديرها متأخرة؟

19-11-2009.indd 181 فىراطلا ةغمراح 1/4/2010 7:38:32 PM

وأجاب عن قول البصريين بأنّ الشرط له صدر الكلام، وتقديم الجزاء يُخلّ بتصدره، بقوله: هذه هي الشبهة التي منعت القائلين من تقديم الجواب، " وجوابها أنكم إن عنيتم بالتصدير أنّه لا يتقدم معموله عليه، والجزاء معمول له؛ فيمتنع تقديمه، فهو نفس المتنازع فيه؛ فلا يجوز إثبات الشيء بنفسه، وإن عنيتم به أمرًا آخر لم يلزم منه امتناع التقديم"[٣٩].

وممن مال إلى مذهب الكوفيين في جواز تقديم الجواب واستحسنه الرازيّ في تفسيره عند الكلام على قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[٤٠] فجعل قوله (وهَمّ بها) هو الجواب، واستدلّ على ذلك بما تراه في ذلك الموضع من تفسيره.[٤١]

وقال أبو حيان عند حديثه عن جواب الشرط في آية يوسف السابقة: "... ولا نقول: إنّ جواب (لولا) متقدم عليها، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها... "[٤٢].

فأبو حيان – عليه رحمة الله – لا يرى مانعًا يمنع من تقديم الجواب على الشرط، وإن كان اختار مذهب جمهور البصريين في هذه المسألة.

وقال عبّاس حسن في النحو الوافي بعد أن قرّر مذهب الكوفيين، وذكر أنهم لا يشترطون كون فعل الشرط ماضيًا، بل يجيزونه في الماضي والمضارع على حدّ سواء، وذكر بعض أدلتهم: " والأخذ برأي الكوفيين –وإن كان ليس بالأعلى هنا – أنسب وأيسر؛ بسبب الشواهد القوية الكثيرة التي تؤيدهم، وبسبب ما يراه أكثر المحققين، وهو أنّ جواب الشرط قد يكون غير مترتّب على فعل الشرط "[٤٣].

وممن رجح مذهب الكوفيين من المعاصرين الدكتور سمير شريف؛ إذ يقول وهو يتحدث عن التقديم والتأخير ضمن العمليات التحويلية في جملة الشرط:" تبيّن لنا من استقراء النصوص أن الجواب قد يتقدم تركيبًا ودلالة، حتى عندما يكون الجواب المتقدم غير مقترن بالفاء، وهو الأمر الذي يرفضه كثيرون من النحاة، ونرى أنه صحيح..."[٤٤]

واستدلّ على ذلك بقوله تعالى ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[٤٥] ثم ذكر رأي البصريين من أن جواب (إِنْ) في هذه الآية محذوف دل عليه ما قبله، كما هو المشهور من مذهبهم، فيكون أصل التركيب في نظرهم: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم، وذكر رأي الكوفيين من أن جواب الشرط في هذه الآية متقدمٌ لفظًا ودلالة، ولا يكون محذوفًا من التركيب حتى وإن وجد في التركيب ألفاظ دالة عليه، وانتهى إلى أن رأي الكوفيين أقوى حجة[٤٦]

182 19-11-2009.indd فيراطلا ةغمراح 1/4/2010 7:38:32 PM

ثم قال: " ومهما يكن من أمر، فإن ما ذهب إليه البصريون خلاف الأولى، فقد وردت نصوص كثيرة واضح فيها وجه التقدم، وهو أولى بالاعتبار من القول بالحذف في النصوص التي قالوا بوجود الحذف لا التقديم فيها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[٤٧]، فقد جاء المشروط (إن عصيت ربي) محصورًا بين جزأي تركيب واحد، وهما: (إني أخاف)، و(عذاب يوم عظيم)، فتكون الآية بذلك، على إيقاع: إن عصيت ربي فإني أخاف عذاب يوم عظيم، وأما على تقدير جمهور البصريين، فتقدير هذه الآية يكون على النحو التالي: إني أخاف عذاب يوم عظيم، إن عصيت ربي فإني أخاف عذاب يوم عظيم، وفي هذا من الاعتساف والتكلف ما يربو على وصفه"[٤٨].

وقال الدكتور إبراهيم الشمسان بعد ذكر المذهبين، وذكر ما احتج به ابن السراج على الفراء ورده مذهبه بما سبق ذكره في ثنايا هذا البحث: " إنَّ الخلاف الذي دار بين البصريين والكوفيين في حال توسط الأداة حول ماهية الكلام السابق عليها ليس خلافا حول تركيب واحد، وإنما هو خلاف ناتج عن اختلاف في التركيب موضوع الجدل، فيبدو أن كل مدرسة تتحدث عن تركيب يختلف عن التركيب الذي تتحدث عنه المدرسة الأُخرى"[٤٩].

وفرّق بين التركيبين بأن التركيب الذي يدور كلام البصريين عليه هو تركيب الجمل الشرطية الجزائية، ومثال ذلك (إن يدرس زيد ينجح) فهذه الجملة مركبة من عبارتين، عبارة شرطية وهي (إن يدرس زيد) وعبارة جوابية (ينجح)، ولا تعبر إحداهما عن معنى كامل في حال إنفرادها، أما التركيب الذي يدور كلام الكوفيين عليه فهو الجملة الخبرية المشروطة، وهذه الجملة مركبة من جملة خبرية بسيطة + عبارة شرطية، كقولك (سيحضر زيدٌ إن يُدرك القطار)، والفرق بين التركيبين، أن التركيب الأول لا يمكن فيه الاستغناء عن جزء من مكونات الجملة، أما التركيب الثاني فيمكن الاستغناء عن العبارة الشرطية، وتبقى الجملة الخبرية البسيطة ذات فائدة، ولكنها تكون قد فقدت المعنى الذي تؤديه العبارة الشرطية [٥٠].

إذًا فالكلام عند الدكتور الشمسان عبارة عن نمطين:

النمط الأول: الجملة الشرطية الجزائية، **والنمط الثاني**: الجملة الخبرية المشروطة.

غير أنه لاحظ أن النمط الأول قد يلتبس بالنمط الثاني في بعض الأحوال، وذلك حينما يقتضي سياقٌ ما تقديم العبارة الجوابية على العبارة الشرطية، وبهذا يصبح مشابهًا من حيث ترتيب أجزائه للنمط الثاني، ورأى قصر هذا على الشعر تبعًا لابن السراج، كما هو ظاهر عبارته[٥١].

183 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:32 PM

هذا ملخص ماذكره الدكتور الشمسان، ولي معه وقفتان:

الوقفة الأولى: أنّ هذا التفريق الذي ذكره لم يقل به أحد من العلماء من قبل؛ إذ هم مجمعون على أنّ النمطين أسلوبا شرط، ولهذا وجّهوا الجملة المتقدمة على الأداة بتوجيه لا يخرجها عن كونها جواباً،أوسادّة مسد الجواب ودليلاً عليه.

الوقفة الثانية: النمط الثاني الذي ذكره فيه نظر ظاهر،وذلك أنّ هذا الأسلوب يكون في الجملة الإنشائية كما يكون في الجملة الخبرية، وقد مضى الاستشهاد بنحو قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٥٢]، وهذا كثير في القرآن العظيم ؛كما نصّ على ذلك ابن القيم فيما تقدّم[٥٣]، وفيه الردّ على قصر هذا الأسلوب على الشعر.

مذهب المازنيّ:

أما ما ذكره أبو حيّان من مذهب المازني وهو القول الثالث في هذه المسألة فلم أقف عليه عند غير أبي حيّان، وهو مخالف لمذهب البصريين من أنّ هذا التقديم لا يجوز إلا إذا كان فعل الشرط ماضيًا، ومخالف للجميع في جواز نحو: أنت ظالم إن فعلت.

القائلون بجواز التقديم إذا كان فعل الشرط ماضيًا:

المذهب الرابع – وهو مذهب بعض البصريين – كما ذكر ذلك أبو حيّان وأشرنا إليه في أول البحث، وهو ينص على جواز تقديم الجواب إذا كان فعل الشرط ماضيًا، وسواء كان الجواب مضارعًا أم ماضيًا، ولم يشر إلى تقدم الجملة الاسمية من نحو قولهم: أنت ظالم إن فعلت، ولم يذكر أبو حيّان أحدًا من أصحاب هذا القول، وقد أشرت فيما تقدم من كلامي في القول الثاني أنّ المبّرد خيرُ مَنْ يمثل هذا القول، وقد سقت عبارته هناك، وبينت أنّ كلامه لا يشبه كلام الكوفيين إلا في عموم جواز تقديم الجواب على الشرط.

ومن أصحاب هذا القول الصيمريّ صاحب التبصرة؛ إذ يقول:" وتقول آتيك إن أتيتني، وأكرمك إن أكرمتني؛ فتقدم الجواب وترفعه؛ لأنّ حرف الشرط لا يعمل فيما قبله، ولا يجوز في الكلام: آتيك إن تأتني، وأُكرمك إن أكرمتني؛ لأن (إنْ) إذا عملت في الشرط فلابُدّ لها من جواب تعمل فيه أيضًا، فإذا قلت: أكرمُك إن أكرمتني حَسُنَ؛ لأن (إنْ) لم تعمل في لفظ الشرط، وإنما عملت في موضعه..."[٥٤].

ومنهم – أيضًا – صاحب التخمير، وهذه عبارته:"اعلم أنّ الجواب إذا تقدم حرف الشرط فإنه لا يعمل فيه وإن كان مضارعًا؛ وهذا لأن الحروف ضعيفة لا تعمل فيما قبلها، ولأحسن إذا قدّمت الجواب أن يكون ما بعد (إنْ) فعلاً ماضيًا؛ ليتجاوب الجواب والشرط في إبائهما على حرف الشرط..."[٥٥].

184 19-11-2009.indd فيراطلا ةغمراح 1/4/2010 7:38:32 PM

الترجيح:

وبعد: فهذه أقوال العلماء في جواز تقديم جواب الشرط على الفعل والأداة، قد سقتها بأدلتها ومآخذها، والذي أميل إليه، وأراه أقرب للصواب هو القول الرابع، وهو قول لبعض البصريين ومنهم المبّرد، والصيمري، وصاحب التخمير، وقد سقت من كلامهم ما يدل على هذا القول، وهو قول الفراء من الكوفيين، وهو أعدل الأقوال؛ لسلامته من المآخذ التي أخذت على الأقوال الأخرى، والذي دفعني إلى اختياره أمورٌ منها:

- أنّ قول البصريين بالمنع مطلقًا أمر لا يعضده الدليل، كما نصّ على ذلك أبو حيّان في كلامه على آية (يوسف).
- أنّ مذهب الكوفيين بالجواز مطلقًا، سواء كان ماضيًا أم مضارعًا لا يستند إلى السماع القوي الذي يمكن أن يقاس عليه، أما الماضي فلا نزاع في جوازه، وأمّا المضارع فلم يرد فيه إلا القليل، وهو مخصوص بالشعر، وما كانت هذه حاله فلا سبيل إلى القياس عليه، أما الماضي فكثير جدًّا ومنه قوله تعالى:﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٥٦]، وقوله:﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٥٧]، وهذا كثير جدًا في القرآن العظيم[٥٨].
- ما ذكره ابن القيّم من أنّ الجزاء هو المقصود، والشرط قيدٌ فيه وتابع له، فرتبته التقديم طبعًا، ويدل على ذلك مجيء الشرط متأخرًا عن المشروط، لأن المشروط هو المقصود، وهو الغاية، والشرط وسيلة إليه، فتقديمه هو تقديم للغايات على وسائلها، وقد سقت كلامه هذا في الاحتجاج للمذهب الكوفي.
- أنّ الخلاف بين المدرستين أمر لفظيّ؛ فهم مجمعون على أن هذا المتقدم هو الجواب في المعنى، والخلاف في تسميته اللفظية أهو جواب الشرط أم سادّ مسدّه ودليل عليه؟ وإذا كان الأمر كذلك فالقول ما قاله المجيزون؛ لأن المانع يقدّر الجواب محذوفًا، ومعلوم أنّ ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير لاسيما أن تقدير البصريين في غاية التكلف كما مرّ معنا في هذا البحث.

19-11-2009.indd 185 فى اطل اقع م اح 1/4/2010 7:38:32 PM

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخرًا، أحمده على توفيقه، وأشكره على ما يسّر لي من إتمام هذا البحث، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد بن عبدالله إمام المتقين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين.

وبعد:

فقد ظهر لي خلال بحثي هذا بعض النتائج أُجملها فيما يأتي:

- كثرة المباحث التي دارت حول الجملة الشرطية، واختلاف العلماء من المدرستين حول قضايا غير يسيرة مما يتعلق بهذا الأسلوب، كالخلاف في العامل في الشرط والجواب، والخلاف في جواز تقديم معمول الجزاء أو الشرط على الأداة وغير ذلك من المباحث، والتي منها هذه المسألة التي جعلت البحث خالصًا لها.
- جُلّ مسائل هذه الجملة نوقشت بإسهاب عند ابن الأنباري في الإنصاف وغيره، إلا مسألتنا هذه، فقد كان الخلاف يلمسها لمسًا رفيقًا جدًّا، إلا ما ذكره أبو حيّان في الارتشاف، من ذكر أقوال العلماء في هذه المسألة، وجعلها أربعة مذاهب، قول للكوفيين وثلاثة للبصريين.
- أن الخلاف في هذه المسألة قديم جدًّا، ومنزع كل فريق يختلف عن الآخر، فجمهور البصريين يمنعون تقديم الجواب أو غيره على أداة الشرط؛ بحجة أنّ هذه الأدوات لها الصدر كالاستفهام فلا يتقدم عليها ما كان في حيزها، وأهل الكوفة لا يرون ذلك فيجيزون التقديم، ولهم في ذلك حجج أهمها أن الأصل في الجواب أن يكون متقدمًا مرفوعًا، فإذا تأخر عن الشرط جُزم للمجاورة لفعل الشرط المجزوم، أما إذا تقدم فقد وقع في موقعه.
- أنّ الخلاف في هذه المسألة أقرب إلى الخلاف اللفظي؛ إذا الجميع مجمعون على أنّ هذا المتقدم هو الجواب في المعنى، غير أن البصريين يرونه دليلا على الجواب ويقدرون الجواب من لفظ هذا المتقدم، وأهل الكوفة يرونه هو الجواب بعينه، فلا يحتاجون لتقدير محذوف.
- يشترط البصريون في جواز هذا التقديم أن يكون فعل الشرط ماضيًا لا تعمل فيه الأداة؛ لأنّ الأداة إذا عملت في الشرط فلا بُدّ لها من جواب تعمل فيه، ولم يخالف في ذلك إلا المازني؛ إذ أجاز هذا التقديم مع كون فعل الشرط مضارعًا.
- أهل الكوفة - سوى الفراء - يرون ذلك جائزًا، سواء كان فعل الشرط ماضيًا أم مضارعًا، وهذا ما أضعف مذهبهم؛ فقياس المضارع على الماضي يحتاج إلى سماع لإثباته.

186 19-11-2009.indd فىاطلا قعماح 1/4/2010 7:38:32 PM

- تبين لي أن جعل المبرد موافقًا لمذهب الكوفيين من كُلّ وجه أمرٌ غير سديد، فهو موافق لهم في مطلق جواز تقديم الجواب في مثل مسألتنا هذه، فالمبرّد مذهبه هو المذهب المنسوب إلى بعض البصريين.
- الفراء يخالف أهل الكوفة في جواز التقديم إذا كان فعل الشرط مضارعًا، وهو موافق لمذهب بعض البصريين، ومنهم المبرّد والصيمري، فينبغي أن ينسب مذهب الكوفيين إلى جمهورهم؛ إذ الفراء إمام من أئمة هذه المدرسة وهو مخالف لهم.
- أنّ المذهب الرابع وهو المذهب المختار - في نظري - مذهب خلا من تكلّف القول بالحذف والتقدير كما في مذهب جمهور البصريين، وكذلك خلا مما في مذهب جمهور الكوفيين من قياس المضارع على الماضي في الجواز، وهو قياس مع الفارق.
- كثرة الآيات الواردة التي تؤيد كون فعل الشرط ماضيًا في مثل مسألتنا هذه، وقد اكتفيت بالإشارة إلى (دراسات لأسلوب القرآن الكريم) للشيخ عبد الخالق عضيمة؛ طلبًا للاختصار.
- تبيّن لي ضعف دليل المنع عند المانعين؛ فهم يعتمدون في ردّ هذا الأسلوب على الدليل العقلي والمنطقي، وهو بعيد عن واقع اللغة، أما المجيزون فقد اعتمدوا على كثرة الشواهد الواردة، وابتعدوا عن التأويل والتقدير.

هذا ما ظهر لي، والله تعالى أعلم.

187 .indd 19-11-2009 فىراطلا ةغمراح 1/4/2010 7:38:33 PM

الهوامش والإحالات:

(١) ينظر: الإنصاف ٦٠٢/٢ فما بعدها، المسألة رقم(٨٤).
(٢) المصدر السابق ٦٢٣/٢، المسألة (٨٧).
(٣) المصدر السابق ٦٢٠/٢، المسألة (٨٦).
(٤) المصدر السابق ٦١٥/٢، المسألة (٨٥).
(٥) ارتشاف الضرب ١٨٧٩/٤.
(٦) الأصول ١٨٧/٢.
(٧) الخصائص ٣٨٨،٣٨٧/٢.
(٨) الإيضاح في شرح المفصل ٢٥٥/٢.
(٩) ينظر: شرح الكافية ٢٥٧/٢.
(١٠) شرح الكافية ٢٥٨/٢، هذا مع (إنْ) أما إذا وقع غير ماضٍ مع (ما) أو (من) أو (أي) فيجب في السعة جعلها موصولات، وإعطاؤها حكم الموصول فنقول: أعط مَنْ يُعطى زيدًا، وأحببْ ما يحُبه، وأكرم أيّهم يحبك، برفع الفعل والمجيء بالعائد، وكون الجملة لا محلّ لها، كذا قال الصبان في حاشيته على الأشموني ١١/٤، وقال المبرد: في المقتضب ٦٩/٢؛ ولو قلت آتي من أتاني للزمك أن يكون منصوبًا بالفعل الذي قبلها، وهذا لا يكون؛ لأنّ الجزاء منفصل كالاستفهام، ولو قلت: آتيك متى أتيتني، أو أقوم أين قمت، على أن تجعل(متى) و(أين) ظرفين لما بعدهما كان جيدًا.
(١١) أوضح المسالك ٢٢١/٤.
(١٢) الإنصاف ٦٢٣/٢.
(١٣) الرجز لجرير بن عبد الله البجليّ في الكتاب ٦٧/٣، وشرح أبيات سيبويه ١٢١/٢، ولسان العرب (بجل)، وله أو لعمر بن خثارم العجلي في خزانة الأدب ٢٠/٨، وبلا نسبة في شرح عمدة الحافظ /٣٥٤، وشرح المفصل لابن يعيش ١٥٨/٨.
(١٤) البيت لزهير في ديوانه /١٥٣، والكتاب ٦٦/٣، وشرح أبيات سيبويه ٥٨/٢، وشرح شواهد المغني ٨٣٨/٢، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٢٠٧/٤، وهمع الهوامع ٦٠/٢.
(١٥) البيت لزهير بن مسعود في نوادر أبي زيد الأنصاري /٧٠، ولسان العرب (غسس) وبلا نسبة في الخصائص ٣٨٨/٢، قال أبو زيد الأنصاري: الغُسّ: الضعيف، والمُغَمّر: الغُمْرُ، وهو الذي لم يجرب الأمور، كذا قال في اللسان(غمر).
(١٦) ينظر: الإنصاف ٦٢٣،٦٢٦/٢.
(١٧) ينظر: الإنصاف ٦٢٧/٢.
(١٨) ينظر: المصدر السابق ٦٢٧،٦٢٨/٢.
(١٩) ينظر: الإنصاف ٦٠٢،٦٠٨/٢.
(٢٠) المقتضب ٦٨/٢ فما بعدها.
(٢١) ارتشاف الضرب ١٨٨٠/٤.
(٢٢) ينظر: ارتشاف الضرب ١٨٧٩/٤، والمساعد ١٥٠/٣.
(٢٣) ينظر: الخصائص ٣٨٨/٢، وشرح الكافية الشافية ١٦١٠/٣، وارتشاف الضرب ١٨٧٩/٤، وشرح التصريح ٢٥٢/٢ فما بعدها.

188 19-11-2009.indd فيراطلا ةغمراح 1/4/2010 7:38:33 PM

(٢٤) تقدم تخريجه في الحاشية (١٥).

(٢٥) شرح التسهيل ٨٦/٢، وكذلك جاء عنه في شرح الكافية الشافية ١٦١٠/٣، فما بعدها، وقد جاء عن ابن مالك ما يدل على استحسانه لقول أبي زيد هذا في الكافية الشافية؛ إذ يقول:

وماهو الجواب معنًى إن سَبَقْ فشاهدًا أبداه من به نَطَقْ
وهو الجواب نفسه عند أبي زيدٍ ومن والاه ليس بالغبي

شرح الكافية الشافية ١٦٠٢/٣.

(٢٦) شرح التسهيل ٨٦/٢.

(٢٧) ينظر: شرح المفصل ٧/٩، وشرح التصريح ٢٥٢/٢ فما بعدها.

(٢٨) شرح التسهيل ٨٦/٢.

(٢٩) جزء من آية (١٧) سورة الأنفال، وتخريج الزمخشري لها على ما ذكروا في الكشاف ٢٠٧/٢، والفاء هي الفصيحة التي تفصح عن جواب شرط مقدر.

وقال أبوحيّان في البحر ٤٧١/٤: " وليست الفاء جواب شرط محذوف كما زعم، وإنما هي للربط بين الجمل؛ لأنه لمّا قال: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ – آية (١٢) من سورة الأنفال – كان امتثال ما أمروا به سببًا للقتل، فقيل (فَلَمْ تقتلوهم) أي: لستم مستبدين بالقتل..."

(٣٠) شرح التصريح ٢٥٢/٢، فما بعدها.

(٣١) ينظر: المقتصد في شرح الايضاح ١١٠٣/٢ فهو هناك يقررّ مذهب البصريين.

(٣٢) التخمير ١٥٠/٤، وبدائع الفوائد ٥٠/١.

(٣٣) بدائع الفوائد ٥٠/١.

(٣٤) المصدر السابق نفسه.

(٣٥) البقرة /١٧٢.

(٣٦) الأنعام /١١٨.

(٣٧) آل عمران /١١٨.

(٣٨) ينظر: بدائع الفوائد ٥١/١.

(٣٩) ينظر: بدائع الفوائد ٥٢،٥١/١.

(٤٠) يوسف /٢٤.

(٤١) ينظر: تفسير الرازي ٩٤/١٨ فما بعدها.

(٤٢) البحر المحيط ٢٩٤/٥ فما بعدها.

(٤٣) النحو الوافي ٤٥٥/٤.

(٤٤) الشرط والاستفهام/٦٩.

(٤٥) البقرة/٩١.

(٤٦) الشرط والاستفهام/٧٠،٦٩.

(٤٧) يونس/١٥.

(٤٨) الشرط والاستفهام/٧٠.

(٤٩) الجملة الشرطية/ ١٧٨.

(٥٠) المصدر السابق /١٧٨، ١٧٩.

189 19-11-2009.indd فىاطلا قعماح 1/4/2010 7:38:33 PM

(٥١) المصدر السابق /١٧٩، ١٨٠.
(٥٢) البقرة/ ١٧٢.
(٥٣) ص١٢ من هذا البحث.
(٥٤) التبصرة والتذكرة ٤١٢/١.
(٥٥) التخمير ١٤٦/٤.
(٥٦) آل عمران /١١٨.
(٥٧) البقرة /٩١.
(٥٨) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٢٤٨/٣، ٢٤٩ وقد ذكر ما يربو على مائة وعشرين موضعًا، وقد ذكرها تحت عنوان حذف جواب الشرط لتقدم الدليل عليه، وهو موطن الخلاف في هذه المسألة.

المصادر والمراجع

- ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسي، تحقيق د. رجب عثمان محمد،و د. رمضان عبد التواب، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- الأصول في النحو، ابن السراج، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، ط٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الإنصاف في مسائل الخلاف، ابن الأنباري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- الإيضاح في شرح المفصل، ابن الحاجب النحوي، تحقيق د. موسى بناي العليلي، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الجمهورية العراقية، إحياء التراث الإسلامي.
- البحر المحيط، أبو حيان، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، و آخرين، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، مكتبة الرياض الحديثة.
- التبصرة و التذكرة، الصيمري، تحقيق د. فتحي أحمد علي الدين، ط١، من مطبوعات مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- التفسير الكبير - مفاتيح الغيب- الرازي، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الجملة الشرطية عند النحاة العرب، د. إبراهيم الشمسان، ط١، ١٤٠١هـ، مطابع الدجوي، القاهرة.
- حاشية محمد بن علي الصبان على الأشموني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- خزانة الأدب و لب لباب لسان العرب، البغدادي، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، ١٩٧٩م الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت.
- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة.
- شرح أبيات سيبويه، السيرافي، دار المأمون للتراث، ١٩٧٩م دمشق و بيروت.
- شرح التسهيل، ابن مالك، تحقيق د.عبد الرحمن السيد، و د.محمد بدوي المختون، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، هجر للطباعة و النشر.
- شرح التصريح على التوضيح، الشيخ خالد الأزهري، دار الفكر.

190 19-11-2009.indd فيراطلا ةغماج 1/4/2010 7:38:33 PM

- شرح ديوان زهير بن أبي سُلمى، أبو العباس ثعلب، ١٣٦٣هـ – ١٩٤٤م مطبعة دار الكتب المصرية.
- شرح شواهد المغني، السيوطي، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ، ابن مالك، تحقيق عدنان الدوري، الجمهورية العراقية، وزارة الأوقاف، إحياء التراث الإسلامي،، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م مطبعة العاني، بغداد.
- شرح الكافية الشافية، ابن مالك، تحقيق د. عبد المنعم أحمد هريدي، من مطبوعات جامعة أم القرى مركز البحث العلمي و إحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة – مكة المكرمة.
- شرح كتاب الكافية في النحو، رضي الدين الاستراباذي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- شرح المفصل، ابن يعيش، عالم الكتب، بيروت.
- شرح المفصل في صنعة الإعراب الموسوم بالتخمير، صدر الأفاضل القاسم بن الحسن الخوارزمي، تحقيق د. عبد الرحمن العثيمين، ط١، ١٩٩٠م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- الشرط والاستفهام في الأساليب العربية، د/ سمير شريف ستيتيّة، ط١، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م، دار القلم للنشر والتوزيع، الإمارات العربية، دبي.
- كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط١، ١٤١١هـ – ١٩٩١م، دار الجيل، بيروت.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، رتبه وصححه مصطفى حسين أحمد، ط٢، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، دار الريان القاهرة، دار الكتاب العربي بيروت.
- لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر، ودار صادر، بيروت.
- المساعد على تسهيل الفوائد، ابن عقيل، تحقيق د. محمد كامل بركات،من مطبوعات جامعة أم القرى،مركز البحوث و إحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة، ١٤٠٥هـ.
- المقتصد في شرح الإيضاح، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق د.كاظم بحر المرجان، منشورات وزارة الثقافة والإعلام الجمهورية العراقية، ١٩٨٢م دار الرشيد.
- المقتضب، المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.
- النحو الوافي، عباس حسن، ط٣، دار المعارف مصر.
- النوادر في اللغة ،أبو زيد الأنصاري، ط٢، ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م، دار الكتاب العربي، بيروت.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السيوطي، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم،، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م مؤسسة الرسالة.

191 19-11-2009.indd فى اطل اغم اح 1/4/2010 7:38:33 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 192 1/4/2010 7:38:33 PM

قناع عنترة
في الشعر السعودي المعاصر

د. محمد مشعل الطويرقي

أستاذ مشارك - جامعة الطائف

قناع عنترة في الشعر السعودي المعاصر.indd 193 19-11-2009 1/4/2010 7:38:33 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 194 1/4/2010 7:38:33 PM

الملخص

اقتنص الشعراء السعوديون الأبعاد الثرية التي تكتنزها شخصية عنترة، فوظفوها في أشعارهم وحملوها همومهم المعاصرة، واستثمروا مواقفها ليضيفوا لقصائدهم بعداً دراميا عن طريق التداخل وإلغاء عاملي التاريخ والجغرافيا، في حين لم يتنبه الشعراء العرب الآخرون لهذه الأبعاد ولم يستثمروا هذه الشخصية بما تستحقه،فجاءت صورتها لديهم محدودة ومشوهه، كما يتضح ذلك في أشعار أمل دنقل، ونزار قباني، وحبيب الصائغ.

لقد تضافرت جهود الشعراء السعوديين وتكاملت على تشكيل قناع عنترة، واتسع على يديهم ليعبر عن موضوعات متعددة ومتباينة مثل: الفروسية، والانكسار، والحب، والخيانة..... وهذا ما كشفت عنه هذه الدراسة.

19-11-2009.indd 195 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:33 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 196 1/4/2010 7:38:33 PM

مدخل

مفهوم القناع:

القناع تشكيل لغوي يتوالد من المزج بين شخصيتين، إحداهما شخصية الشاعر والأخرى شخصية القناع، وتنجب هذه العلاقة كائنا جديدا يكتسب من صفات الشخصيتين معا، لكنه لا يتطابق مع أي منهما. هذا الكائن الجديد كائن متلبس، يتكلم بأكثر من صوت، ويمتلك القدرة على اختراق الأزمنة، مما يتيح له حرية الحركة ويمنحه لغة توهم بأن ما يقوله حيادي ويمكن تحققه[١].

تعود الريادة لاستدعاء هذا المصطلح من الأدب الانجليزي إلى الأدب العربي للشاعرين عبدالوهاب البياتي[٢] وصلاح عبدالصبور[٣]، وقد سبقهما الدكتور إحسان عباس إلى التعاطي معه في دراسته «الصورة الأخرى في شعر البياتي»[٤] لكنه لم يصرح باسم القناع بل أطلق عليه الصورة الكبيرة أو الأخرى[٥].

بعد ذلك توالت الدراسات للقناع من حيث التنظير والتطبيق، وقد غلب عليها في الآونة الأخيرة الاستقصاء والتكرار، مما يشير إلى رسوخ مفهوم القناع وإجراءاته المنهجية والمعرفية، الأمر الذي يجعل الإفاضة في الحديث عنه تزيدا لا طائل وراءه[٦].

شخصية عنترة من الأثر إلى النص:

عنترة بن شداد من أشهر الشعراء الفرسان في الجاهلية[٧]، كان هجينا ابن أمة، ولم تشفع أبوة شداد له؛ فعُومل معاملة العبيد، وحالت كل من عبوديته ولونه دون حريته على الرغم مما كان يتوفر له من قوة ونبل وفروسية، ومع ذلك لم يخرج عنترة على القبيلة مثل كثير من الصعاليك، بل ظل يؤمن بقيمها وقوانينها، ولا يعني هذا أنه كان مستسلما للواقع وإنما كان يفضل النضال من خلال القنوات العرفية لقوانين ذلك المجتمع ليحصل على حريته وحقوقه.

لقد كان الدفاع عن القبيلة والحفاظ عليها عند عنترة فروسية وبسالة يحتل بها مكانة الأحرار في صفحات التاريخ، وتحقُّق هذا الفعل كان بمثابة المعادل الذي يبرئ سقم نفسه ويشفيها:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

وقد تضاربت الروايات حول هذه الشخصية التاريخية والأدبية، إذ يروى أنه شخصية أسطورية لا وجود لها[٨]، وتوغل الروايات في بيان وقوعه في الأسر ومصارعته الأسد، وقد كان شخصية قوية، لديها كل دوافع التمرد، وكان باستطاعته إعلان هذا منفردا أو في حشد من أمثاله، لكنه آثر أن يعمل في ظل قوانين القبيلة التي دأب على الإعلاء من شأنها، وقد يكون وراء ذلك رغبته المحمومة للظفر بحب عبلة[٩].

197 19-11-2009.indd فى اطل اقع اح 1/4/2010 7:38:33 PM

إننا أمام شخصية متعددة الأبعاد تجمع بين القوة والدعة، والفروسية والنبل، والرق والحرية، والشبع والجوع، والصحة والمرض، والشباب والشيخوخة، عزت به القبيلة ولم تهن عليه نفسه، عندما احتاجته القبيلة تعامل مع الموقف بأخلاق الفرسان ولم تزده جفوة القبيلة وقسوتها إلا إصرارا على الدخول في نسيجها.

هذه الشخصية التي ملأت الذاكرة الثقافية وألهبت المخيلة الشعبية لم تستثمر بما تستحقه من قبل الشعراء العرب المعاصرين غير السعوديين؛ ففي الوقت الذي احتفلوا فيه بالشخصيات الشعرية أمثال امرئ القيس، والشنفرى، وتأبط شرا، وقطري بن الفجاءة، وأبي نواس، ومهيار، ووضاح، والمتنبي... نجدهم يعزفون عن شخصية عنترة، فلم ترد هذه الشخصية عندهم محورا لقصيدة على الإطلاق[١٠]، ليس هذا فحسب بل إن حضورها جزئيا في بعض القصائد كان مشوها وباهتا؛ فقد أسقط نزار قباني على هذه الشخصية دلالات بعيدة عما هو معروف في تاريخها، فهي شخصية مستبدة حولت البلاد إلى شقة مفروشة تمارس فيها النقائص، يقول:

هذي البلاد شقة مفروشة
يملكها شخص يسمى عنترة
ويسكر طول الليل عند بابها[١١].

كما استحالت عند الشاعر الإماراتي حبيب الصانع إلى شخصية مطاردة تتسكع في البارات:

فهلا سألت
أيا عبلة الخيل عنه
أما زال في البار يشرب نخب الوصول[١٢].

وهو نفس السؤال الذي وجهه عنترة القديم لعبلة لكن الإجابة مختلفة، وهي إجابة تتسع لرصد التناقض بين عنترة القديم وعنترة المعاصر.

أما صوت عنترة عند أمل دنقل فهو صوت شخص موتور أسير لماضيه، غير معني بالقبيلة، يريد أن يقبض الثمن أولا حتى يكون الدفاع عن القبيلة مشروعا:

أنا الذي ما ذقت لحم الضأن
أنا الذي لا حول لي أو شأن
أنا الذي أقصيت عن مجالس الفتيان
أدعى إلى الموت ولم أدع إلى المجالسة[١٣].

وهذا لا يتجانس مع صوت عنترة التاريخي الذي يبيت على الطوى، ويغشى الوغى، ويعف عند توزيع المغانم.

198 19-11-2009.indd فيراطلا قناع م اج 1/4/2010 7:38:33 PM

وقد يعود السبب في ذلك إلى أن هؤلاء الشعراء، وهم في حالة اندفاع وثورة على ما أصاب الأمة من ضعف وهوان، لم يجدوا في شخصية عنترة ضالتهم ولم يروا فيه إلا شيخا مسالما لأعدائه، أعماه الحب عن المطالبة بحقوقه، وكأني بهم قد غفلوا عن الأبعاد الشعرية التي تكتنزها هذه الشخصية، التي أزعم أن الشاعر السعودي قد اقتنصها بكل اقتدار، وهذا ما ستكشف عنه هذه الدراسة بمشيئة الله.

199 19-11-2009.indd فيراطلا فغمراح 1/4/2010 7:38:33 PM

-١-

أبعاد القناع الموضوعية

إن ثراء شخصية عنترة وتعدد أبعادها مكّن الشعراء السعوديين من تحميلها همومهم المعاصرة فوظفوها في قصائدهم طرديا وعكسيا، واستثمروا مواقفها ليحققوا لقصائدهم بعدا دراميا عن طريق التداخل وإلغاء جغرافية الزمن، ولعل أبرز الأبعاد الموضوعية التي شكلت قناع عنترة في النصوص الشعرية السعودية التي اطلعت عليها ما يلي:

الانكسار والخيبة:

تجسد قصيدة محمد الثبيتى «أيا دار عبلة عمت صباحا» الهم العربي، ومأساة الأمة من خلال ما خلفته النكسات المتكررة، وكذلك الشعور بالقلق أمام التحولات الكبرى، مما أحدث هزة وخلخلة في البنى الاجتماعية والثقافية، فالإنسان العربي يحس بالخيبة والهوان أمام كل هذه الإخفاقات التي جعلته غير قادر على تمثل هويته الحضارية والاحتفاظ بأبعادها المشرقة.

كل هذه الأمور شكلت الخلفية التي كانت وراء استدعاء شخصية عنترة استدعاء عكسيا ليوازي بها حالة العجز الكلي الذي تحيا فيه الأمة، والشاعر المعاصر أحد أفرادها، وقد توشحت القصيدة بالمفردات السوداوية مثل: الليل، الهزائم، الجروح، الأشباح، الموت، المراثي، الجدري، ومسخت كل شيء إلى نقيضه:

غريق بليل الهزائم سيفي
ورمحي جريح
ومهري على شاطئ الزمن العربي
يلوك العنان
أعانق في جسدي شبحا
مثخنا بالجراح
ومرثية للكمى الذي ضاع من يده
الصولجان
وفي كل يوم
أموت على الطرقات
ويفترس الجدري ملامح عشقي
ويمسخ لوني

200 19-11-2009.indd فىراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:33 PM

كأن حصاني لم يعزف الموت
لحنا فريدا
وحربا عوان[١٤].

وفي ذات النسق تأتي قصيدة جاسم الصحيح «عنترة في الأسر» حيث يبدو السيف شاحب اللمعان منكسر الصليل، والحصان فارق الصهيل، أما عنترة نفسه فهو أسير فقير:

سيف هنالك شاحب اللمعان منكسر الصليل
ومُطْهم ذبلت على شدقيه رائحة الصهيل
وقصيدة مطعونة
بقيت على الرمضاء ينزف من جراحتها العويل
والفارس العبسي مغلول الملامح
في انهيار المستحيل[١٥].

وهذا الاستدعاء لا يفارق استدعاء الثبيتى بل إنه يقصر عنه في التفاصيل التي أرتنا صورة الفارس وأدواته تضيع من يديه، والجدري يفترس ملامح عشقه، ويمسخ لونه.....

الفارس المخلِّص:

«في إيقاعات متورمة» لسعد الحميدين يتأكد أن التورم خبيث، حيث يعم الفساد هذا العصر فتنحو الأشياء نحو الغرابة التي يمكن من خلالها تصور وقوع الخوارق بظهور الفارس المخلص «عنترة» وبإمكانات الفروسية والبسالة ممتطيا صهوة جواده، ممتشقا حسامه ليفعل شيئا «ما» من أجل تغيير هذا الواقع الغريب، يقول:

يا سيدي
هل عادت الخيول فوقها الفرسان
أكاد لا أشك
أن أشجع الشجعان
قد جاء شاهرا بتاره
ويعتلي شيخ الخيول الأبجر
لأن في زماننا يا سيدي
كل الأشياء تنحو للغرابة
وتتكي على بساط وافر من الفوارق
وخلفها الخوارق[١٦].

201 19-11-2009.indd فيراطلا ةغمراح 1/4/2010 7:38:34 PM

فالشاعر يخاطب عنترة بقوله «يا سيدي» ويبحث فيه عن السيد الفاعل المخلص في زمن عز فيه السادة، ويسم مرارة السخرية التي تستدعي عنترة بالخوارق ويجعلها صانعة لسر الاستدعاء.

أما علي عمر عسيري فيستعير حالة «عنترة» في النضال والدفاع عن القبيلة فيجريها على لسان شيخ يتكلم لغة جبلية، موازيا بين الجادين في حياتهم والكسالى الذين يركنون إلى الإحساس باللذة العابرة من تعاطيهم للقات، ولكن هيهات أن تكون هذه النشوة كتلك التي كانت تعتري عنترة من جراء بسالته ونضاله:

فنحس بنشوة عنترة العبسي
ولا نسكر[١٧].

حب الوطن

يستثمر أحمد الصالح في قصيدته «عندما يسقط العراف» حالة الحب بين عنترة وعبلة لكي تحمل دلالات القصيدة بجوار سائر الرموز التاريخية المحتشدة داخل هذا النص، يقول:

لا تحب الخيل عبلة
تعشق الفارس عنتر
تعرف الرمح
وأشعار أبي الطيب
والأرض لها طعم البكارة[١٨].

ولا يخفى أن توظيف الحب بين الشخصيتين (عنترة، عبلة) في جو طقوس الفروسية لا يعني هنا غير حب الوطن، سواء أكان هذا الوطن هو ما ضم من رفات الشاعر القديم ومحبوبته، أو القدس.

أما محمد الحربى فقد جعل قصيدته «العبسي يحاصر الذاكرة» معبرة عن الإنسان المعاصر في علاقته بالوطن، إذ تستغرقه شجاعة عنترة واضطهاده، والاعتراف بفروسيته وقت النزال وإنكاره فيما دون ذلك، والاشمئزاز من لونه الأسود، والتأكيد على عبوديته رغم تماهيه في القبيلة، وإعلانه لحب عبلة التي هي بعض منه، لا يفارقها ولا تفارقه لأنها وطنه وسكنه:

ملقى
وعبلة لا تفارقني
لكأن رأسي خدرها
ويدي أصابعها

202 19-11-2009.indd فىاطلا قعماح 1/4/2010 7:38:34 PM

...

خدرها وطن

وعيناها يدان[١٩].

لكن اللافت أن قصيدة الحربى لا تعبر عن الحالة الخاصة لظاهرة الحب بين عنترة وعبلة، وإنما هي تستخدمها للتعبير عن واقع معاصر يضم الشاعر ووطنه في اتحاد حلولي يجمع بين العاشق والمعشوق:

وارتعاشك بالحجاز الطائف الجبلي[٢٠].

ويستحيل الحب إلى رثاء وذرف للدموع في قصيدة احمد الوائي «حداء للسنين الهاربة»، حيث يقول:

أنا يا « عبل « تحملني إليك قصائد ثكلى

وليل جائع الأقدام في عيني لا يبلى

.....

أجئ إلى خيام القوم أحمل في يدي كفني

تجدف أرجلي زمني

كأشجع فارس أبلى

.....

وكانت ناقتي هزمت

وضاع السيف.... ذاك السيف في سفري

فبدلا من قصائد الحب التي تحمل إلى عبلة الأمل جاءت قصائد الرثاء محملة بحمولة الفقد الدائم مغمورة في تشهي الزمن المظلم، زمن الليل الذي لا يبلى أبدا في عيني الشاعر،الذي يربط نهايته بالموت حيث تصبح الشجاعة تراثا نظريا، وتاريخا لشخصية ضاع منها السيف وهزلت ناقتها من جراء السير قي الفيافي التي أكلت من شحمها ولحمها وهي تصارع الجفاف و التصحر.

الخيانة والاستبداد:

يبدو أن لغة نزار قباني المحملة باتهام عنترة بالخيانة قد تسللت إلى القصيدة السعودية، فقد أسقط أسامة عبدالرحمن في قصيدته «عنترة» أبشع صور الخيانة على عنترة بعد أن باع السيف والشرف والناقة والنخلة، وتخلى عن عبلة وباع قلادتها ووسادتها، يقول:

203 19-11-2009.indd فى اطل اقع م اح 1/4/2010 7:38:34 PM

عنترة
قد باع كرامته
قد باع شهامته
قد ضيع قوته
قد ضيع حوله
قد حالف كل مليشيات المحتل
وقد أصبح ظله[٢٢].

ولا يختلف الأمر كثيرا في قصيدة أحمد الصالح «ما لهذا الأمر» عندما يبيع عنترة عبلة، يقول:

اقلب الصفحة..!!
هذا «عنتر»؟!
قد باع في الماخور عبلة
ومشى في الشانزلزيه
كقرد.. رقصت من نقر طبلة[٢٣].

وهذه الصورة تؤول إلى ما تسلل إلى المخيلة الشعبية عن شخصية عنترة، وما حملته من عنترية وعدم التزام بالمبادئ، وهي صورة لا تنسجم مع ما عرف عن شخصية عنترة في مصادرها الأصلية.

انتقاد العادات والتقاليد:

رأى الشاعر عبدالله بن سالم الحميد في صمود عنترة وعدم استسلامه للعادات والتقاليد القبلية وجها ثريا من أوجه هذه الشخصية، فأخذ يحملها مهمة انتقاد بعض العادات التي تقيس الإنسان بلونه وشكله لا بمعدنه وأصله، يقول في قصيدته «وقفة عنترية على أطلال بني عبس»:

وثلة هناك طيبون!!
اللون في عيونهم مقياس
والشكل في اعتقادهم أساس
والعرف والعادات والأجناس
في عرفهم مقياس
والمعدن الأصيل لا يقاس
من يعرف المعادن الأصيلة؟
من يدرك القياس؟؟[٢٤].

204 19-11-2009.indd فيراطلا قعمراح 1/4/2010 7:38:34 PM

حالة المرأة العربية المعاصرة:

استثمرت أشجان هندي حالة عبلة في قرانها بعنترة، وهي حبيسة الخيام في مضارب القبيلة وأسقطتها على حالة المرأة العربية المعاصرة وهي سجينة التقاليد العتيقة رغم وجودها في المجتمع المعاصر، فكلتاهما تجلد بالسياط من قبل الصعاليك وتحرمها التقاليد ممارسة الحقوق:

أيا دار عبلة
مقفرة بعدك العين
وأنت إذا علق الليل زينته في شحوب الغيوم
تحوم تحوم
تحوم ويلهب رجليك سوط الصعاليك
والشنفرى
إذ يدب على أضلع الدار
يفتقها[٢٥].

وتتجاور في لغتها الأشياء المتناقضة وكأنما أرادت أن تقيم بناء لغويا يوازي حياتها، وهي لغة مسكونة بإرادة الحياة على الرغم من الصعوبات التي تواجهها، فالضحكة تخرج من ثنايا النار والحياة مستمرة على الرغم من محاولة اغتيالها على يد المغتصب:

ها.. صوت عبلة مختزن في هشيم الحطب
وضحكتها تمخر الصخر
تنشق عن عشبة يحتسيها اللهب
وحناؤها في كفوف الرمال
تشي ببقايا من النبض
يا للحياة تفتق في ساعد مغتصب
مخضبة بالغبار[٢٦].

وهكذا يتضح تعدد الأبعاد الموضوعية التي نطق بها قناع عنترة في الشعر السعودي المعاصر وتنوعها، الأمر الذي يكشف عن ثراء هذه الشخصية وسعتها..

205 19-11-2009.indd فيراطلا قمعم اج 1/4/2010 7:38:34 PM

-٢-

استراتيجيات التشكيل

تتجلى الأبعاد الفنية لقناع عنترة في الشعر السعودي من خلال العلاقة بين طرفي القناع، أنا القصيدة من جهة وشخصية عنترة من جهة أخرى، وما يرتبط بهما من عوالم وعلاقات، وقد تكشفت النصوص الشعرية عن عدد من الاستراتيجيات الفنية التي شكل بها الشاعر السعودي المعاصر قناع عنترة لعل أبرزها:

انصهار الثنائيات:

يلتزم محمد الثبيتى في قصيدته «أيا دار عبلة عمت صباحا» بتكنيك القناع بشكل متواصل، حيث يتداخل صوته مع صوت عنترة، وتنمحي الفواصل الزمانية والمكانية، وتتجاور المتناقضات، وتتوحد الشخصيتان لمواجهة الواقع العربي المبني على الهزائم المتكررة نتيجة لفرقة العرب وتشتتهم.

لقد جعل الثبيتى عنترة يتحدث مسترسلا من خلال ظروف عصرنا نحن وليس عصره، فهو ذلك الفارس العظيم الذي ذبح بسيف هزائمنا المتتابعة، إنه رمز من رموز الماضي الجميلة وقد مسختها المعطيات السيئة للحاضر[٢٧]:

غريق بليل الهزائم سيفي
ورمحي جريح
ومهري على شاطئ الزمن العربي
يلوك العنان
أعانق في جسدي شبحا
مثخنا بالجراح
ومرثية للكمى الذي ضاع من يده
الصولجان[٢٨].

لكن ليس هذا هو المستوى الوحيد الذي ينطق به القناع، فهناك مستوى آخر تشع منه الانتصارات والبطولات:

كتبت على صفحات البيارق
ملحمة من دمي

206 19-11-2009.indd فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:34 PM

وألبست أرصفة الوطن المتمرد
ثوبا قشيبا من الأرجوان[٢٩].

ويتلاشى التناقض الذي يتبدى لأول وهلة بين المستويين، وتتقارب المسافات حينما يتضح لنا أن هذه البطولات التي ينطق بها القناع إنما هي حالة تعيش في الذاكرة، يتكئ عليها البطل المعاصر المهزوم، وليست واقعا ملموسا يجب الاحتشاد له، إنها مجرد تغنٍ بأمجاد الزمن الماضي وبطولاته.

كما تتجاور الأمكنة في هذا العالم على الرغم من التنوع الجغرافي والتباعد فيما بين هذه الأمكنة؛ فالوطن وإن كان متمردا إلا أنه وطن واحد، والصحراء بقسوتها وشظفها ترتوي من ماء دجلة والنيل، وشمسها تروي تيما وزحلة والقيروان:

كأني لم ألق في ماء دجلة
والنيل
حزن الصحاري
ولم أسق من عرق الشمس
تيما..
وزحلة..
والقيروان[٣٠].

وهكذا فانمحاء الفواصل بين اتجاهات الزمن، ومستويات الأمكنة يؤدي إلى اندغام طرفي القناع في بعضهما، بحيث يتخلى كل طرف منهما عن بعض صفاته بل معظمها ؛ ليكتسب بعض صفات الطرف الآخر، لكن هناك صفات تظل عالقة بشخصية القناع، حتى إذا ما وجد الشاعر المعاصر فرصة لاستثمارها، بنى عليها بعض مقاطع قصيدته؛ إمعانا في الاتحاد والتلاحم، ففرقة العرب في الوقت الحاضر استدعت فرقة القبائل العربية قديما، وكما يكتوي الشاعر المعاصر بآثار هذه الفرقة يكتوي الشاعر القديم «عنترة» بالنيران المماثلة كما حدث في داحس والغبراء:

ترى يا ابنة العم
ماذا جرى
وهل حمد القوم عند الصباح السرى
وداحس ماذا دهاه
أما زال يحجل من كبوات الرهان
ويمسح آثامه في جبين الزمان[٣١].

207 .indd 19-11-2009 فيراطلا قعماج 1/4/2010 7:38:34 PM

تماهي الهوية بين الاحْتذاء والإبداع:

يبتدئ محمد الحربى قصيدته «العبسي يحاصر الذاكرة» من حيث انتهى محمد الثبيتى، الذي آل أمره إلى الصراخ والاستغاثة، بعد أن افترس الجدري ملامح وجهه وأصبح مرميا على الطرقات.

يقتنص الحربى حالة الضياع هذه فيفتتح قصيدته بكلمة «ملقى»، وهي كلمة شعرية ترتمي في أحضان الضياع وعدم الحاجة إلى هذا الكائن أو التأثر بفقده، لكن المفارقة أن الحربى لم يستسلم ولم يصرخ بل أقام عالما خياليا يطامن به حدة السوء الذي يلقاه في واقعه، فأحال رأسه إلى بيت ليسكن عبلة فيه، فهو مسكون بحبها لا تفارقه، يقرأ ويكتب من خلالها:

ملقى
وعبلة لا تفارقني
لكأن رأسي خدرها
ويدي أصابعها
تزيل الليل عن عينين واسعتين
اقرأ في سوادهما وأكتب - حين أكتب - دمعتين
خدرها وطن
وعيناها يدان[٣٢].

لقد تفاعل الحربى مع شخصية عنترة ؛ لما تكتنزه هذه الشخصية من قيم، فعنترة البطل رغم تنكر القبيلة له يحتل مساحة من أقاليم الذاكرة، وبلغة الشاعر إن القيم الموجودة في هذه الشخصية تحاصر الذاكرة بما تحويه من انتصارات، وبما تحويه من قمع أيضا، ولهذا فإن هذا عنوان القصيدة «العبسي يحاصر الذاكرة» هو البؤرة التي تتمحور حولها القصيدة، حيث يعد مفتاحا لشعرية الانتصار، كما يعد مفتاحا لشعرية الهزيمة في الواقع المعاصر. لذا فإن الزمكان يعد مسرحا تلعب عليه منظومة القيم التي تجمع بين الشيء وضده كالعبودية والحرية، الإخفاقات والانتصارات، البغض والحب، الفرقة والاتحاد... دون أن يكتمل الموقف الإنساني وينمو الحدث في الواقع المعاش، وهذا ما جعل الشاعر يعود إلى التاريخ يستلهمه رؤياه المستقبلية العاجزة:

يا عبل بي جوع وطر في لم ينم
لا السيف سيفي في الغبار
ولا القدم[٣٣].

208 19-11-2009.indd فى اطلا قناع عنترة 1/4/2010 7:38:34 PM

ولهذا فإنه في حاجة إلى روح تدب في جسده الهامد، والروح في قصيدته هي المياه التي يظل يبحث عن مصدرها بوصفها أصلَ الحياة، والحياة ليست فقط في الانتصار على الأعداء، وإنما هي في الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي. والرؤيا المستقبلية للشاعر هي أن يتحرر الإنسان من الذل والعبودية، والفقر والجهل، بحيث يكون له دوره الفاعل في الحياة:

قطعان قلبي
لم تجد مرعى يليق بجائع
وطيور عيني دون ماء
...
قطعان قلبي دون ماء[٣٤].

وإذا كانت حياة الإنسان تنطوي على بطل منقذ مزود بقيمه حتى وإن آلت به هذه القيم إلى الحرمان، فإنه لن يخشى المخاطر التي تحاصره من جراء احتجاجه المستمر، وهو ذلك الأسود النافر الذي لم يتحرر من عبوديته رغم حاجة القبيلة الماسة لخدماته خاصة عند النوازل:

فعلام يحتاطون من لوني
ويرعبهم لساني
وأنا السنين تمر لم أبرح مكاني
وأنا القصيدة لم تنم[٣٥].

لهذا فإن هذا الشاعر القديم أو المعاصر- لا فرق-، يظل مُلقَى على قارعة الطريق دون أن تفارقه قيمه وأحلامه مجسدة في عبلة الرمز:

ملقى
وعبلة لا تفارقني[٣٦].

فعبلة ذلك الحضن الدافئ، هي الوطن الذي يرتاح الشاعر على زنده، وهو في هذه الحالة عينان ساهرتان على حماية هذا الوطن على الرغم من جدل العلاقة بينهما، إذ رغم الجوع، وشح الماء فإن هذا الوطن لا يكف عن هدهدة هذا الشاعر القديم أو المعاصر في أرض الحجاز، وبالتحديد في الطائف الذي تنعم جباله بالمطر الدائم، ومع ذلك فقد شحت المياه وغاب المطر عنه:

مدن تعلمك الكتابة والحديث
مدن تعلمك الرهان وكيف تخسر في الرهان
تركض من طفولتك الفقيرة

209 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:34 PM

وارتعاشك في الحجاز: «الطائف» الجبلي
والماء الرضي
إلى ارتعاشك في سوادهما..
زمان غامض
والجوع وديان من الحزن الحثيث
لكن عبلة لا تفرط بالحديث[٣٧].

ولعل هذا الحديث - الذي يتضمن الأسرار والهموم التي تجمع بين الشاعر والوطن- هو ما يدفع الفكرة لتخرج إلى حيز الوجود فتصير كتابة، حتى وإن كانت هذه الكتابة تنطوي على المغامرة وخسارة الرهان فإن الحالة التي بات عليها الشاعر من الفقر الذي نشأ معه في طفولته أو الذي رافقه في بواكير التاريخ العربي، لم يقو على قهره وإجباره على الخضوع والاستسلام.

إن هذا الشاعر الممثل للإنسان في الحياة العربية مستعد للتضحية من أجل وطنه والدفاع عنه فليس لديه ما يخسره ولديه القدرة على مواصلة الحياة بالشيء القليل فهو يتوسد الحذاء ويلتحف السماء:

حذائي تحت رأسي
والسماء خفيضة
ولصيقة بفمي
ودمي تعطل عن مجاراة الهواء
فمن يكفن أنجمي السقطت
ومن ذا شافع لخطيئة الأعراب[٣٨].

في هذه اللحظة يتحول الرفض وعدم قبول الضيم إلى تمرد، فتحضر شخصية الخارجي قطري بن الفجاءة في هذا السياق:

من يؤوي الفجاءة
في نهار طلق التاريخ دورته
وتقاسم الأحزاب ثورته
فما من جذوة لخطاي
ما من رقية لخطى الصباح المظلم[٣٩].

فمن خلال الجمع بين شخصيتي عنترة وقطري بن الفجاءة يحاول الشاعر أن يصنع تاريخا جديدا حتى وإن كان في هذا التاريخ غموض لا يبدده هذا الصباح الآتي، لأن الشاعر يرى - من

210 19-11-2009.indd فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:34 PM

وجهة نظره - أن هذا الصباح مظلم أيضا، وإن قل إظلامه عن ليل التاريخ في الدرجة، والغموض الذي يكمن في حركة هذا الشاعر المتمردة مجسد في سطرين من التنقيط يعبران عن معنى هذا الصوت الغائب، على الرغم من القطع الزمني بين تاريخ وتاريخ وحالة وحالة، فالظلام يخيم على كل الحالات كما يوضح بيت عنترة:

إن كنت أزمعت الفراق فإنما زمت ركابكـــــم بليل مظلـــم

فحالة الإظلام عند عنترة هي نفسها عند الحربى، حيث الصباح المظلم الذي يحمل يأس الشاعر من نجاح المحاولة رغم أنه يحشد لها من تاريخ الفوارس والخوارج ما يجعل دمه معطلا عن مجاراة الهواء السائد، ولكن هذا اليأس لا يدوم أمام الأمل الذي جعل الشاعر متلهفا إلى طاقة ترفع خطاه أو رقية تزيح عنه هذا الإظلام، ولعل هذا المسكوت عنه في التنقيط، والذي لا يقدر على البوح به، هو الذي جعله يطالب دار عبلة بالبوح به:

يا دار عبلة بالجوار تكلمي[٤٠].

ولعل ما يتضمنه كلام عبلة هو نفسه ما تنطوي عليه الذاكرة التي يحاصرها العبسي ويجسده خروج قطري بن الفجاءة.

وهكذا يتماهى الشاعران في الغاية وإن اختلفت الوسيلة فإذا كان عنترة قد ناضل من أجل انتصار الوطن رغم تنكر القبيلة له، فإن الشاعر المعاصر قد استلهم الصباح الذي يأمل أن يخيم على وطنه رغم ما يتبدى له من معوقات.

القناع التسجيلي:

مَن يطالع التاريخ العربي يجده يعج بالصراعات والفرقة في معظم فتراته، سواء أكان ذلك في الجاهلية أو بعد مجيء الإسلام ؛ لذا فإن الاستغراق في التأسي على الماضي يشكل بعض أوجه هذا القناع، وبمعنى آخر فإن الحالة العربية بحاجة إلى فارس شمولي يصحح أوضاعها ؛ وهذا ما جعل عبدالله الحميد يوقظ عنترة من كهفه ليسرد حكايته كما وردت في الأساطير، ويرسم صورة تسجيلية لجانبي البطولة والحب في هذه الشخصية، يقول:

من كهفه

قام الهمام عنترة[٤١].

فالقصيدة تبشر بقيام عنترة من كهفه، وكأني به يستثمر قصة أصحاب الكهف الواردة في محكم التنزيل، وما انتظم حياتهم من تقوى وصلاح ؛ ليضفي على هذا الفارس منظومة من القيم الأصيلة، قيمٍ تبين عن معادن الرجال والفخر والوفاء والسلام:

211 .indd 19-11-2009 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:34 PM

عن فارس نامت عيون الأرض
وهو لا ينام
يبحث عن ملامح الفخر
والوفاء.. والسلام[٤٢].

هذا الفارس يحمل على عاتقه مهام جسيمة بعد أن أسرج الخيل ؛ لتوحيد الصفوف واسترداد ما ضاع من الأوطان سواء أكانت هذه الأوطان لعبس أم كانت لكليب:

ويسأل الناس عن الديار
والأطلال
..
يبحث عن مضارب بلاحدود
...
يسأل عن آثار عبس أو كليب[٤٣].

لكن هذا الفارس لا يظفر في النهاية إلا بخيبة الأمل ؛ لما يلاقيه من المقاومة التي يواجه بها من الكلاب والأسود:

فتنبح الكلاب في طريقه
وتزأر الأسود
وتنسج الأشواك ألف حد فاصل[٤٤].

ولم يكن أمام الشاعر والحال هذه إلا أن يلجأ إلى قصة أهل الكهف مرة أخرى ؛ ليستثمر ما آل إليه حالهم، ويعيد عنترة إلى كهفه:

وحائرا يعود
وحائرا يعود[٤٥].

أما غازي القصيبى فهو يرشح «عنترة» بجانب عدد من عظماء التاريخ أمثال: مصعب بن الزبير، وطارق بن زياد، ويوليوس قيصر، ونابليون بونابرت، ودون كيشوت بحثا عن فارس الفرسان الذي تفوق على غيره في احتلاله مكانة متميزة من صفحات التاريخ:

يا سيدي التاريخ
فارسك المفضل
يصمت التاريخ[٤٦].

لكن القصيبى يسجل تاريخ عنترة على عكس ما روته التواريخ عن فروسيته، فهو في السبعين

19-11-2009.indd 212 فىراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:34 PM

من عمره، أعمى، يركب ناقة وليس فرسا، فيصيبه سهم الموت كسائر الكائنات دون أن يظهر أية مقاومة، وذلك ليكشف ما آلت إليه أحوال الأمة من شيخوخة في ركب الحضارة الإنسانية حين استكانت للماضي وتخلت عن مفاتيح النصر والقوة، وامتطت الناقة بديلا عن الفرس:

يا عبل! يا حبي الذي لم يهزم

..

حاربت حتى خر سيفي من يدي

وهوى حصاني في كمين من دمي

ولقد ذكرتك والحبال تحزني

«فوددت تقبيل السيوف» لأنها

أحنى وأرحم من شماتة أرقم[٤٧].

فالسخرية الجميلة - هنا - هي عنصر المفارقة التي تجعل عنترة العبسي على يد غازي القصيبى شهيدا في فروسيته وحبه العميق لعبلة، ولقبيلته على الرغم من قسوة أهله وقد شنقوه في عبوديته ولونه معا.

وفي مداخلة الشاعر القصيبى الخاصة إلى كل امرأة من الجمهور يقرن الفروسية في النزال بالفروسية في الحب، إذ كلتاهما تؤدي إلى هوان:

أرأيت فرسان الزمان

يتأرجحون على ثرى التاريخ

ما بين الكرامة والهوان[٤٨].

إضافة أبعاد جديدة للقناع:

حفظ الرواة من شعر عنترة ما انتظم في عقد الحب والفروسية والتسامح وسمو الأخلاق، إلا أن هناك أشعارا أخرى أسقطوها ؛ إما عمدا حفاظا على صورة البطل الزاهية، أو سهوا حسب رواية الشاعر إبراهيم الوافي الذي توفر على رواية هذه الأشعار في قصيدة أسماها «ما لم يحفظه الرواة من شعر عنترة العبسي».

تدور القصيدة على حالة الضياع والانكسار التي تعيشها الأمة عبر تاريخها الممتد، وانبنت على ثلاث حركات:

الحركة الأولى: سرد لمشاهد سوداوية من الواقع.

الحركة الثانية: حلم.

الحركة الثالثة: تفسير الحلم.

213 19-11-2009.indd فى اطل اقع اح 1/4/2010 7:38:34 PM

في مفتتح القصيدة يلثم الشاعر الوافي الفجوة الزمنية بينه وبين شخصية عنترة فيتحدث عن الليل على نسق الشعراء القدماء، فالزمن العربي واحد، والليل واحد بدءا من ليل امرئ القيس: «وليل كموج البحر» ومرورا بليل تأبط شرا: «وليل كجوف العير» ووصولا إلى ليله هو «وليل كلون الجلد»

هذا الليل ظلامه دامس لا يسلم إلى صباح، فقد غابت عيونه، وأفل نجمه، واغترب قنديله، وهو ليل واسع قادر على الاحتواء والابتلاع:

ليل..
كلون الجلد
يبتلع العيون الحالمات
تخثرت في الأفق
تنتشق الغياب..!
النجم فوق جبينه
ألق شتائي
وقنديل اغتراب[٤٩].

وتستمر القصيدة في تنمية الأحداث بشكل سوداوي تجسيدا لحالة الضياع التي تحياها الأمة بعد أن أحاط بها الأعداء وأحكموا قبضتهم عليها.

والنار حول خيامنا
نشرت نواجذها
..
الباب موصود
..
أم هل لعين
تسبر الأحلام
خانعة
لعرف الاغتصاب
من موطن حر
إذا ساخت خطا الفرسان

214 19-11-2009.indd فيراطلا قعماح 1/4/2010 7:38:34 PM

كانت

فوق هامات السحاب[٥٠].

هذه الأحداث المأساوية والمشاهد السوداوية أسهمت في تغييب العقل الواعي، وأسلمته إلى لحظة حلمية أنتجت شريطا ممتدا من الكوابيس والنبوءات والظلام، وهو شريط تحققت فيه شرائط الحلم بالجمع بين أفكار متناثرة لا رابط بينها، يقول:

هل للعبيد
ذؤابة أخرى
وهل للضأن ثدي آخر
أم هل لهذي النوق
من راع جليل؟!
أين الغزاة[٥١].

لكن الشريط في بعض أجزائه يبشر بزوال الليل وشروق الشمس، وهي شمس غريبة لا ترى إلا في الأحلام، فهي شمس محمرة تستولي على الكثبان وتصهل للمقيل.

في الحركة الأخيرة من القصيدة يفيق الشاعر من غفوته فيتقمص دور مفسر الأحلام، فيقول:

يا أنت يا عبلَ القبيله
يا طعنة العم التي
تنمو على قلبي
كنوار القفار[٥٢].

عبلة هي الشمس، لكن عبلة هذه ليست عبلة التي لاكتها ألسنة الرواة واستغرقها عنترة في الحب، لذلك فهو لا يناديها بابنة العم على طريقة عنترة، بل بطعنة العم، فيضيفها للقبيلة ويصفها بالفتيلة، وهي: نوار القفار، والنوء الذي هرعت له الرمال السمر، والنوء الذي استضوى رجالات القبيلة، والسراج الذي يضيء الليل، وهي الأمل والخلاص:

يا أنت يا عبلُ الفتيله
يا ذلك النوء الذي
هرعت له
كل الرمال السمر
واستضوى رجالات القبيلة[٥٣].

215 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:35 PM

لقد استمدت القصيدة نسيجها من مسكوت عنه لا نعلمه، وشعرٍ لعنترة لا نحفظه، حتى عبلة تم تهميش العلاقة التي كانت بينها وبين عنترة، وبهذا تحقق القصيدة شرط عنوانها وتتحدث عن المسكوت عنه بمصارحة ومكاشفة، إذ إن الوضع لا يحتمل المجاملة والتغني بالبطولات والأمجاد لا يجدي نفعا، وهذا لا يقوم به إلا رجال تلوح أعناقهم في الأفق ويرقصون على شفاه الموت:

أين الراقصون على شفاه الموت
بل أين الدليله
إني أرى في الأفق
أعناق الرجال
وأبصر الأنواء في شفتيك
تمطرني
بإعصار الوسيلة[٥٤].

وهكذا يروي الشاعر إبراهيم الوافي ما سقط سهوا من شعر عنترة، ويكمل الفراغات التي أحاطت بالنص القديم والتي لم يحفظها الرواة فهم لم يحتفلوا إلا بالجانب المشرق من حياة هذه الشخصية أما الجانب الآخر المرتبط بالهزيمة فقد أغفلوه وأسقطوه.

قناع عنترة في الشعر السعودي المعاصر_19-11-2009.indd 216 1/4/2010 7:38:35 PM

-٣-

أدوات تشكيل القناع

حاور قناع عنترة تاريخا عربيا ممتدا من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر، ونبش الهزائم والانكسارات التي أحاطت بالأمة، وهو بهذا الشكل يقف في مواجهةٍ مع الأنساق الثقافية المتوارثة التي تحكمت بالذاكرة والتي تعودت على التغني بالأمجاد والبطولات الماضية، فكان لا بد أن يتوسل القناع بآليات وأدوات تقربه من المتلقي وتشعره بحياديته، ويمكن أن أوجزها فيما يلي:

السردية:

يلجأ الشعراء وهم يتقنعون بالشخصية التراثية إلى سرد وقائع معروفة في حياة هذه الشخصية لإعادة تمثلها، بتجسيدها وإعادة حكي وحداتها الصغرى بوصفها وحدات دالة على مساحات من البياض، أو متواليات غائبة، أو تنقيط يحتاج إلى لغة في خطاب الراوي، وهم بذلك يخلقون لغة فنية يكون فيها النص الشعري قادرا على هضم الكثير من خصائص النصوص السردية(٥٥).

ففي «صدى الصهيل» يستثمر عبدالله الحميد ما عرف عن بطولة عنترة فيخرجه من كهفه، ثم يمتطي فرسه، ويمتشق حسامه، بعد أن تدرع، وسبح في عالم الخيال، وبهذا يكون الشاعر قد أحال هذه الشخصية التاريخية إلى بطل أسطوري سواء كان في الوعي أو في الخيال، وليس في هذه الوسيلة تشويه لواقع الشخصية إنما هو توسيع لها وإثراء(٥٦). ثم ينتقل الشاعر إلى وجهة أخرى تظهر فيها هذه الشخصية الباطنية باحثة عن المستحيل الذي يقف الواقع حائلا دون بلوغه، أما في الوحدة الثالثة من القصيدة فإن هذا الفارس الباطني «عنترة» لا يرى إلا كما يرى سائر الناس، في الديار والأطلال، فعنترة في هذه القصيدة هو الحلم الإنساني الذي يجسد ملامح السلام والوفاء، وإن كان الواقع الخرب في السردية لا يعادله إلا ضياع عبس أو كليب، وهذه هي الرؤية في القصيدة باعتبارها خلقا فنيا موازيا للعجز في الواقع.

كما استثمر عدد كبير من الشعراء قصة الحب بين عنترة وعبلة لكون هذه القصة تحتضن جزءا ضخما من تاريخ عنترة وسيرته وشعره:

ولقد ذكرتك والرماح نواهـــل مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيـــوف لأنها لمعت كبـارق ثغـرك المتبســـمِ

19-11-2009.indd 217 فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:35 PM

وحضورها يثير مشاعر ودلالات لدى المتلقي، تسهم في حفظ القصيدة من السقوط في السردية الباهتة وتحول دون سيطرة النبرة الخطابية عليها[٥٧].

ففي قصيدة أحمد الصالح «عندما يسقط العراف» تساند شخصية عبلة شخصية عنترة في حمل إحدى دلالات القصيدة بجوار سائر الرموز التاريخية المحتشدة داخل هذا النص:

لا تحب الخيل عبلة
تعشق الفارس عنتر
تعرف الرمح
وأشعار أبي الطيب
والأرض لها طعم البكارة[٥٨].

أما محمد الثبيتى فهو يتلذذ بتقليب اسم عبلة بأشكال مختلفة في قصيدته «أيا دار عبلة عمت صباحا» فتارة ينادي دارها، وتارة يناديها بابنة العم، وأخرى بـ واعبلتاه، ويتكرر ذلك بشكل لافت في أكثر من تسع مرات في القصيدة.

لقد تصدرت عبلة عنوان القصيدة كما تصدرت أغلب مقاطع القصيدة، ولم يكن تصدرها مجرد إشارات عابرة بل كان حضورها جوهريا لا يمكن قراءة القصيدة بدونه. فقد استغل الثبيتى حالة التماهي بينه وبين عنترة فأقام وشائج القربى بينه وبين عبلة من خلال مناداتها بابنة العم مما جعلها تحتل جانبا واسعا من قصيدته مقاسمة القناع حمل أعباء القصيدة.

وعبلة لا تفارق الحربى في قصيدته «العبسي يحاصر الذاكرة»:

ملقى
وعبلة لا تفارقني[٥٩].

وهي المفتاح الذي يحول كل السياقات والمفردات إلى دوال رمزية تشير إلى شخصية عنترة وصورته التاريخية، وهي أيضا المفتاح لذاكرته ولا يتحقق وجوده إلا بسماع صوتها وكلامها[٦٠]:

لكأن رأسي خدرها
ويدي أصابعها
تزيل الليل عن عينين واسعتين
أقرأ في سوادهما
وأكتب - حين أكتب - دمعتين
خدرها وطن
وعيناها يدان[٦١].

218 19-11-2009.indd فى اطلا قناع 1/4/2010 7:38:35 PM

لذا فهو يلجأ إليها في ختام القصيدة لتكمل المشوار، ولتقول ما لم يستطع قوله: يا دار عبلة بالجوار تكلمي[٦٢].

لقد أسهمت عبلة في تشكيل قناع عنترة في الشعر المعاصر على نحو لم يتحقق لأي شخصية أخرى، ومكنت الشعراء المعاصرين من إثراء هذا القناع وتوسيعه فحلقوا به بجناحين أحدهما عنترة والآخر عبلة.

الدرامية الذاتية:

تنطوي قصيدة القناع على درامية ذاتية بمعنى أن السياق الثقافي للشخصية المستدعاة يفرض نفسه على الشاعر، ولأن الشاعر يسعى إلى إدخال هذه الشخصية في نسق جديد فإن التاريخي يتحول إلى إنساني عام، وتحل الموضوعية بديلا للذاتية في فهم العقل الإنساني في صراعاته الداخلية والخارجية[٦٣].

وتقارب قصيدة القناع الدراما من خلال المونولوج الداخلي، وهو حديث مفرد يقوم به شخص واحد لتقديم الحالات والعمليات النفسية بالتداعي الحر عن طريق الفيضان التلقائي أو مناجاة النفس وينقسم إلى مباشر يقدم فيه الكلام بضمير الغائب وغير مباشر يقدم فيه الكلام بضميري المتكلم والمخاطب[٦٤].

ففي «أيا دار عبلة» يستخدم الثبيتى المونولوج الداخلي بنوعيه، إذ يسرد الشاعر بضمير المتكلم: سيفي غريق، ورمحي جريح، مهري يلوك العنان، وملامح عشقي يفترسها الجدري، يمسخ لوني، كأن حصاني، ألبست أرصفة الوطن ثوبا قشيبا.. وهكذا[٦٥]، وهي كلها حالات وصفية لحالات شخصية في الشعور واللاشعور، ثم يظهر ضمير الغائب في بعض مفاصل النص مثل: داحس ماذا دهاه، أما زال.....، ثم ينتقل إلى ضمير المخاطب: أيا دار عبلة عمت صباحا، من غال في صدرك الصبوات، من ذر على شعرك الذهبي الرمال[٦٦]... الخ ولعل سبب هذا التنوع في الضمير يعود إلى أن عنترة «يتحدث من خلال ظروف عصرنا نحن وليس عصره هو»[٦٧].

وفي قصيدة محمد الحربى «العبسي يحاصر الذاكرة» يطغى ضمير المتكلم على ما عداه كما يتضح في: ملقى، لا تفارقني، رأسي، يدي، حذائي تحت رأسي،، دمي، قطعان قلبي[٦٨]... فالذاكرة هي ذاكرة الشاعر ومفردات شخصية البطل هي مرتكزات الموقف عند هذا الشاعر، ولأن الشاعر راوٍ عامٌ فإن المفهوم الإنساني يتسع ليستوعب هذه الذاكرة الفردية لتصبح ذاكرة أمة، وليس أية أمة، بل أمة لها موقف ورأي يتأسسان على قاعدة الاحتفال بالماضي والوقوف عند حدوده الزمانية في عجز عن اختراق الحاضر بمفردات هذا الماضي وتخطيه.

219 19-11-2009.indd فى اطل اقع اح 1/4/2010 7:38:35 PM

الخاتمة:

القناع أحد الأدوات الفنية التي عني بها الشعراء السعوديون بوصفه وجها من وجوه النظر إلى التراث، وقد استنطقت هذه الدراسة عددا من النصوص التي اتخذت من شخصية عنترة قناعا، ويمكن تدوين مجموعة من النتائج في خاتمة هذه الدراسة على النحو التالي:

حظيت شخصية عنترة باهتمام كبير من الشعراء السعوديون فحملوها همومهم المعاصرة واستثمروا مواقفها بأشكال مختلفة، وهو أمر لا تجده عند غيرهم من الشعراء العرب؛ حيث كان حضور هذه الشخصية لديهم محدودا ومشوها.

التزم عدد من الشعراء السعوديون بتشكيل القناع بشكل متواصل، فتداخلت أصواتهم مع صوت عنترة،ويتمثل هذا الأمر في عدد من النصوص مثل "آيا يا دار عبلة عمت صباحا" للثبيتي و"العبسي يحاصر الذاكرة" للحربي، "ما لم يحفظه الرواة من شعر عنترة العبسي" للوافي.

ما زال بعض الشعراء أسيرا للغنائية،فخاطب القناع بصوته المباشر مما أدى إلى تمزيق القشرة الدرامية التي تغلف القناع،ويتجلي هذا الأمر بوضوح في قصيدة "عنترة" لأسامة عبدالرحمن.

حملت شخصية عنترة دلالات لا تنسجم مع تجربتها مثل الخيانة والاستبداد،وهذا ما يتجلي في قصيدة "عنترة" لأسامة عبدالرحمن،وقصيدة "ما لهذا الأمر" لأحمد الصالح.

جاءت صورة عنترة عند جاسم الصحيح في قصيدته "عنترة في الأسر" بنفس المدلول الذي جاءت عليه عند الثبيتي في قصيدته "آيا دار عبلة عمت صباحا" بل قصرت عنها في بعض التفاصيل، مما أوقع قصيدة الجاسم في النمطية والتكرار.

220 19-11-2009.indd فيراطلا قعمراح 1/4/2010 7:38:35 PM

الهوامش والمراجع:

١- راجع: خلدون الشمعة: الشمس والعنقاء: دراسة نقدية في المنهج والنظرية والتطبيق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٧١، ص٢٠٠.

٢- عبدالوهاب البياتى، تجربتي الشعرية، منشورات نزار قباني، بيروت، ١٩٦٨، ص٣٤، ٣٥.

٣- صلاح عبدالصبور، حياتي في الشعر، دار العودة، بيروت، ١٩٦٩، ص١٠٢.

٤- نشرت الدراسة في مجلة الآداب ع(٣)، ١٩٦٦، ثم احتواها كتابه "من الذي سرق النار"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

٥- د.إحسان عباس: من الذي سرق النار، مرجع سابق، ص١٥٧.

٦- للإطلاع والاستزادة راجع:

- خلدون الشمعة: مرجع سابق، ص١٩٩ ومابعدها.

- جابر عصفور "أقنعة الشعر المعاصر - مهيار الدمشقي" مجلة فصول مج١، ع٤، ١٩٨١، ص١٢٤ومابعدها.

- محيي الدين صبحي: الرؤيا في شعر البياتى، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٦، ص١٥٩ و١٦٠.

- سامح الرواشدة: القناع في الشعر العربي الحديث، دراسة في النظرية والتطبيق، جامعة مؤتة، مطبعة كنعان، إربد، ١٩٩٥، ص٢١و٢٢.

- عبدالرحمن بسيسو: قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر، تحليل الظاهرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٩، ص٨٩ و٩٠.

- عبدالله أبوهيف: قناع المتنبي في الشعر العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٤، ص١٣ و١٤.

٧- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣، مجلد(٨)، ص٢٣٥ و٢٣٦.

٨- انظر: طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف بمصر، ط١٢، ١/١٤٥.

٩- انظر: عبده بدوي، الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص٣٢.

١٠- راجع: عبدالرحمن بسيسو، مرجع سابق، ص٢٤١ و٢٤٢.

١١- نزار قباني، الأعمال السياسية ١٦١/٤.

١٢- حبيب الصانع، هنا بار بني عبس، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٠، ص٥٨.

١٣- أمل دنقل، الأعمال الكاملة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٥، ص١٠٨.

١٤- محمد الثبيتى، تهجيت حلما تهجيت وهما، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٠٤، ص٦٨.

١٥- جاسم الصحيح، رقصة عرفانية، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٣، ص٦١.

١٦- سعد الحميدين، الأعمال الشعرية، مكتبة دار المدى، دمشق، بيروت، ط١، ٢٠٠٣، ص١٩١.

١٧- علي عمر عسيري، رماد الوجه الحنطي، الدار السعودية للنشر والتوزيع جدة، ط١، ١٤٠٥، ص٤٧.

١٨- أحمد الصالح، عندما يسقط العراف، دار المريخ، القاهرة، ط١، ١٣٩٨، ص١٤٣.

١٩- محمد جبر الحربى، خديجة، دار الكنوز الأدبية بيروت، ط٢، ٢٠٠٤، ص١١٣.

٢٠- نفس المصدر، ص١١٤.

٢١- احمد الوالي، رائحة الزمن الآتي، مطبوعات نادي المدينة المنورة ط١، ١٤١٧ ص ١٨.

٢٢- أسامة عبدالرحمن، دفاتر الشجن، دار الجديد، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص١٤٩.

٢٣- أحمد الصالح، انتفضي أيتها المليحة، دار العلوم للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٣، ص٩٦.

221 19-11-2009.indd فىراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:35 PM

٢٤- عبدالله سالم الحميد، صوت الحجارة وأصداء الصهيل، دار طويق، الرياض، ط١، ١٤١٨، ص٤٧.
٢٥- أشجان هندي، للحلم رائحة المطر، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ١٩٩٨، ص٢٧، ٢٨.
٢٦- نفس المصدر، ص٢٨.
٢٧- سعد البازعي، ثقافة الصحراء، دراسات في أدب الجزيرة العربية المعاصر،شركة العبيكان للطباعة والنشر الرياض، ط١، ١٤١٢، ص٢٤.
٢٨- محمد الثبيتى، مصدر سابق، ص٦٩.
٢٩- نفس المصدر، ص٧١.
٣٠- نفس المصدر، ص٧٠، ٧١.
٣١- نفس المصدر ص٧٢، ٧٣.
٣٢- محمد جبر الحربى، مصدر سابق، ص١١٣.
٣٣- نفس المصدر، ص١١٤.
٣٤- نفس المصدر، ص١١٥، ١١٦.
٣٥- نفس المصدر، ص١١٤.
٣٦- نفس المصدر، ص١١٣.
٣٧- نفس المصدر، ص١١٣، ١١٤.
٣٨- نفس المصدر، ص١١٥.
٣٩- نفس المصدر، ص ١١٥.
٤٠- نفس المصدر،، ص١١٦.
٤١- عبدالله سالم الحميد، انتفاضة القصائد، مطبوعات النادي الأدبي بالرياض، ١٤٢٣، ص٢٥.
٤٢- نفس المصدر، ص٢٧.
٤٣- نفس المصدر، ص٢٦، ٢٧.
٤٤- نفس المصدر، ص٢٦.
٤٥- نفس المصدر، ص٢٧.
٤٦- غازي القصيبى، ورود على ضفائر سناء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢، ص٥٠.
٤٧- نفس المصدر، ص٤٦.
٤٨- نفس المصدر، ص٤٥.
٤٩- إبراهيم الوافي، سقط سهوا، جدة، ط١، ٢٠٠٠، ص١٥٢.
٥٠- نفس المصدر، ص١٥٢، ١٥٣.
٥١- نفس المصدر، ص١٥٤.
٥٢- نفس المصدر، ص١٥٥.
٥٣- نفس المصدر، ص١٥٦.
٥٤- نفس المصدر، ص١٥٦، ١٥٧.
٥٥- انظر: د.علي جعفر العلاق، الدلالة المرئية، قراءات في شعرية القصيدة الحديثة، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٢، ص١٥٥.
٥٦- انظر: ديفيد كان، الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكور، ترجمة وتقديم سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٢، ص٤١٦.
٥٧- انظر: عبدالله أبوهيف، مرجع سابق، ص٢٧.

222 19-11-2009.indd فىراطلا ةغماح 1/4/2010 7:38:35 PM

٥٨- أحمد الصالح، مصدر سابق ص١٤٣.

٥٩- محمد جبر الحربى، مصدر سابق ص١١٣.

٦٠- انظر: د.علوي الهاشمي، التعالق النصي في الشعر السعودي الحديث، كتاب الرياض، ١٤١٨، ص٣٥٣.

٦١- محمد جبر الحربى، مصدر سابق ص١١٣.

٦٢- نفس المصدر، ص١١٦.

٦٣- انظر: د.عبدالله أبوهيف، مرجع سابق، ص٢٧

٦٤- روبرت همفري، تيار الوعي في الرواية الحديثة، ترجمة وتقديم د.محمود الربيعى، دار المعارف مصر،ط ٢ ١٩٧٥ ص٥٩.

٦٥- محمد الثبيتى، مصدر سابق، ص٦٩- ٧١.

٦٦- نفس المصدر، ص٧٣، ٧٤.

٦٧- سعد البازعي، مرجع سابق، ص٢٤.

٦٨- محمد جبر الحربى، مصدر سابق، ص١١٦،

223 19-11-2009.indd فىاطلا فغمحاج 1/4/2010 7:38:35 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 224 1/4/2010 7:38:35 PM

الجناس والتجليات الأسلوبية في شعر أمل دنقل

د. محمد عبدالرحمن عطا الله

كلية الآداب – جامعة الطائف

فى اطل اقع م اح 19-11-2009.indd 225 1/4/2010 7:38:35 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 226 1/4/2010 7:38:35 PM

الملخص

يوضح البحث حقيقة مؤداها أن الجناس لا يعد زينة وتحسينا، بل هو نسق أسلوبي يعبر عن الشكل والمضمون معا٠

وتناول البحث أربعة محاور رئيسة، الأول يشمل الدراسة الإحصائية، والثاني: يدرس الجناس في حشو السطور، والثالث: يدور حول الجناس في منطقة القافية، والرابع: يحمل عنوان الجناس وتوظيف التراث٠

أما المحور الأول: فقد أسفر عن تفوق الجناس في منطقة القافية على الجناس في حشو السطور بنسبة ٤: ١ تقريبا٠

وفي المحور الثاني: اعتمدت حركية النظام الصوتي في تقنية الجناس عند أمل دنقل - في الغالب - على ما يسمى بالاستبدال، وهو استبدال صوت أو أكثر محل آخر، وتحول الجناس بنماذجه المتنوعة إلى وسيلة أسلوبية أسهمت إسهاما فاعلا في التحام الشكل بالمضمون ٠

أما الجناس في منطقة القافية فقد كثرت نماذجه بصورة واضحة باعتبار القافية انحرافا عن المعيارية، ومع كثرة الجناس في منطقة القافية، لم يكن وسيلة ضغط على المعنى، بل أفرزت دواله تماثلات دلالية ارتبطت بالسطر الشعري والسياق العام أشد ارتباط٠

وفي المحور الرابع: تجلى توظيف التراث في دوال الجناس من خلال الاعتماد على النص القرآني والنبوي وأقوال الصحابة والعلم التراثي و الأسطورة القديمة، وكان لهذا أثره في إثارة المتلقي وتحريك ذهنه من خلال المراوحة بين النص الغائب والنص الحاضر٠

227 19-11-2009.indd فيراطلا فغمراج 1/4/2010 7:38:35 PM

جامع الطائي 19-11-2009.indd 228 1/4/2010 7:38:35 PM

يُعد الجناس أحد فروع البديع، الذي لاقى تهوينا من النقاد بسبب بعض النماذج الرديئة في تراثنا العربي،لكن يجب علينا «أن نعيد النظر في فهمنا لظواهر البديع لنخرج بها من الدور الهامشي المنحصر في التحسين والتزيين، لنكسبها دورا إيجابيا قوامه الإسهام في الخلق والبناء والتشكيل»[١].

إن استخدام المبدع المحسنات لايُعد عيبا، إنما هو «نسق أسلوبي له تشكلا ته الجمالية، وله قيمه الأسلوبية، شريطة أن تكون (المحسنات) في غير نماذجها الرديئة المتكلفة، وتفي عن الإحساس بتلك القيم، ويستطيع البحث الأسلوبي أن يستكشف تلك الجماليات الأدائية، بإعادة استشراف لغوي دقيق، شريطة أن يهمل النظر المتوازن المكتفي برصد ما يسمى بالمحسنات، وتكرار إشارات سقيمة تتكرر كلما تتكرر صورها، شريطة إغفال المتوارث عن مفهومها المحاصر في كونها مجرد حلية أو زينة، والتي لا يشفع لها الزعم بأنها قد تكون معنوية، أو قد تكون لفظية»[٢].

والبديع نسق لغوي، لا يختلف عن الأنساق اللغوية الأخرى في العطاء الفني، فاللغة كما يرى سبيتزر « هي الشكل السطحي لعمق بعيد ضارب في القوة والحيوية، فاللغة بتجلياتها المختلفة ليست إلا الوجه الظاهري لشكل عميق باطن تربط بينهما وشائج لا تنقطع وعرى لا تنفصم»[٣].

ومن ثم لا يصبح البديع -بوصفه نسقا لغويا- زينة وتحسينا للكلام فحسب، بل لاينفصم الشكل عن المضمون في كل أنماطه معنوية كانت أم لفظية.

ومع الإيمان بتآزر الشكل و المضمون في أنماط البديع، لا ننفي عنها خاصة اللفظية منها - بروز الجوانب الموسيقية، ولذا «دأب الشاعر المعاصر في البحث عن وسائل موسيقية يثري بها النص الشعري لديه تعويضا عما فقدته قصيدته من النواحي الموسيقية الخليلية»[٤].

وكانت الأنماط البديعية إحدى الوسائل الموسيقية التي اعتمدها الشاعر المعاصر أداة فنية ينقل بها تجربته إلى المتلقي.

والجناس نسق بديعي له سماته الصوتية المتميزة، ولهذا أطلق الدكتور سعد مصلوح على الجناس الناقص شبه التكرار[٥].

ومن هنا كان الجناس حقلا من حقول الأسلوبية التي تهتم «بالتكرار المعبر لبعض النغمات والسمات الصوتية، والنبرات المميزة والتراكيب الإيقاعية»[٦].

ومهما يكن من أمر فإن «أيقونة الجناس ليست مجرد جمع بين لفظين متشابهين في الشكل مختلفين في المعنى، إذ إنها خاصة إذا وفق الشاعر في توظيفها تكون ذات أثر فعال في المتلقي، فهي تدفعه حثيثا صوب الكشف عن المختلف من خلال المؤتلف»[٧].

229 19-11-2009.indd فىاطلا قعماج 1/4/2010 7:38:35 PM

إذًا، في الجناس تتشابه الدوال وتختلف المدلولات، أو يتحد الشكل ويختلف المضمون وهذا ما قصده الدكتور رجاء عيد بقوله[٨]: «أن يكون (الجناس) ذا مسار فني يدفع المستمع إلى إقامة مقارنة تدفعها مفارقة، الأولى: ناتجة عن تشابه اللفظين، والأخرى: ناتجة عن اختلاف المعنيين»٠

ومن كل ما سبق يتضح أن الجناس التئام في الظاهر وتشظٍ في الباطن، ومن ثم كثرت نماذجه في شعر أمل دنقل، فهو تعبير عن ذاته التي تحاول الالتئام بينما هي في حقيقة الأمر ذات متشظية تنشد مجتمعا مثاليا، فيلوح أمامها الحلم سرابا٠

وليس هذا ضربا من المغالاة، فقد وضع سبيتزر «التطور النحوي والصرفي والصوتي في شبكة العلاقات الأخرى المتداخلة مع تاريخ الأدب ونفسية المتكلم، فطبيعة التراكيب وأشكالها هي انعكاس خاص لنفسية المتكلم»[٩]٠

كل الأسباب السابقة دفعتني لاختيار الجناس في شعر أمل دنقل موضوعا للبحث، وقد اعتمدت على الأعمال الكاملة لشعر أمل دنقل التي قامت بنشرها الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة٠

ويمكن تقسيم البحث إلى أربعة محاور، الأول: يشمل الدراسة الإحصائية، والثاني: يدرس الجناس في حشو السطور، والثالث يدور حول الجناس في منطقة القافية، والرابع: يحمل عنوان الجناس وتوظيف التراث٠ ويمكن دراسة هذه المحاور على النحو التالي:

أولا: الدراسة الإحصائية للجناس في شعر أمل دنقل

يلعب الجناس دورا كبيرا في شعر أمل دنقل، فهو يثري النص من خلال شحنه بقدر كبير من النغم الموسيقي، مع ملاحظة اختلاف المدلولات ٠

والمتصفح لديوان أمل دنقل يجد شيوع الجناس الناقص في منطقتيّ الحشو والقافية، وندرة الجناس التام فيكاد يختفي تماما من شعره، ومن ثم نرى بنية الجناس بنية فاعلة في مختلف النصوص، ويلعب الجناس أيضا دورا في توليد البنى المتوازية في نصوص كثيرة ،مع تنوع الدلالة، وسوف يظهر شيوع هذا النوع من الجناس من خلال الإحصاء إن شاء الله ٠

وفي هذه الدراسة الإحصائية يمكن قياس نسبة الجناس لعدد القصائد في الديوان البالغة ٧٩ قصيدة، وكذلك قياس نسبة الجناس لعدد صفحات الديوان الخالصة للطباعة البالغ عددها: ٣٧٧ صفحة٠

والإحصاء يشمل الجناس في حشو السطور ومنطقة القافية كلاً على حدة، ويتضح ذلك من خلال الجدولين الآتيين:

230 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:36 PM

أ- نسبة الجناس في حشو السطور:

الديوان	عدد القصائد	عدد صفحات الديوان	تردد الجناس في الحشو	النسبة مقاسة إلى عدد القصائد	النسبة مقاسة إلى عدد صفحات الديوان
١- مقتل القمر	١٦	٥٦	٢٥		
٢- البكاء بين يدي زرقاء اليمامة	١٨	٩٤	٢٢		
٣- تعليق على ما حدث	١٣	٦٩	٢٩		
٤-العهد الآتي	٩	٦٠	٢٦		
٥-أقوال جديدة عن حرب البسوس	٣	٢٨	٢٣		
٦-أوراق الغرفة (٨)	١٣	٥٠	٣٨		
٧- قصائد متفرقة	٧	٢٠	٤		
المجموع	**٧٩**	**٣٧٧**	**١٦٧**	**٢١١٪ تقريبا**	**٤٤٪ تقريبا**

ب- نسبة الجناس في منطقة القافية:

١- مقتل القمر	١٦	٥٦	٧٤		
٢- البكاء بين يدي زرقاء اليمامة	١٨	٩٤	١٣٨		
٣- تعليق على ماحدث	١٣	٦٩	١٠٤		
٤- العهد الآتي	٩	٦٠	٨٠		
٥- أقوال جديدة عن حرب البسوس	٣	٢٨	٣٦		
٦-أوراق الغرفة (٨)	١٣	٥٠	٤٠		
٧- قصائد متفرقة	٧	٢٠	٢٦		
المجموع	**٧٩**	**٣٧٧**	**٤٩٨**	**٦٣٠٪ تقريبا**	**١٣٢ تقريبا**

231 19-11-2009.indd فىاطلا قعماج 1/4/2010 7:38:36 PM

من الجدولين السابقين يتضح أن نسبة تردد الجناس في حشو السطور تكاد تكون متقاربة في الدواوين المختلفة، باستثناء قصائد متفرقة التي وردت في آخر ديوان لأمل دنقل، فقد قل الجناس فيها بنسبة ملحوظة٠

أما بالنسبة لتردد الجناس في منطقة القافية، فقد سجل ديوان "أقوال جديدة عن حرب البسوس" ٣٦ ترددا، وهذه نسبة تُعد مرتفعة إذا وضعنا في الحسبان أن الديوان يشتمل على ثلاث قصائد فقط، وهي " لاتصالح - أقوال اليمامة - مراثي اليمامة"٠

أما القصائد السبع المتفرقة، فقد سجلت ٢٦ ترددا في منطقة القافية، وهذا يعد أقل الترددات، يليها ديوان " أوراق الغرفة ٨"، الذي تردد فيه الجناس في منطقة القافية ٤٠ مرة في ١٣ قصيدة٠

ويأتي بعده في المرتبة الديوان الأول لأمل دنقل "مقتل القمر" حيث ورد الجناس في القافية ٧٤ مرة في ١٦ قصيدة٠ أما باقي الدواوين فتكاد تكون فيها النسب متقاربة٠

ويمكن تعليل انخفاض نسبة تردد الجناس في منطقة القافية في هذه الدواوين الثلاثة عن باقي الدواوين الأخرى علي النحو التالي:

يُعد ديوان "مقتل القمر" الديوان الأول لأمل دنقل، وفيه بعض القصائد العمودية، التي عمد الشاعر إلى كتابتها بطريقة السطر الشعري ٠ مثل قصائد: طفلتها - يا وجهها - شيء يحترق - قالت - استريحي - رسالة من الشمال٠ ومن ثم لم يكثر الشاعر من تلك التقنية المتمثلة في الجناس التي تعوض الخفوت الموسيقي في شعر التفعيلة ٠

وديوان "أوراق الغرفة ٨" " يضم القصائد الأخيرة التي كتبها أمل دنقل طوال فترة مرضه الذي صارعه قرابة أربع سنوات من أوائل سبتمبر ١٩٧٩ إلى أواخر مايو ١٩٨٣ ٠٠٠ فالديوان ينطوي على أوراق الغرفة رقم٨ وهي آخر الغرف التي قاوم فيها أمل مرضه، قرابة عام ونصف في الدور السابع من المعهد القومي للأورام، من فبراير ١٩٨٢ إلى يوم رحيله الساعة الرابعة من صباح الحادي والعشرين من مايو ١٩٨٣ "[١٠]٠

إذًا، قلة الجناس في منطقة القافية في هذا الديوان مقاسا بالدواوين الأخرى، ترجع إلى المعاناة الشديدة التي لاقاها أمل دنقل في أثناء مرضه، وهذه المعاناة لا يناسبها تزيين أوتحسين، فقد انخفضت نسبة الجناس في قصائد: الجنوبي - زهور - سبتمبر - الطيور٠ واختفى تماما من قصائد: ضد مَنْ - السرير - الموت٠

232 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:36 PM

أما انخفاض نسبة تردد الجناس في منطقة القافية في القصائد السبع المتفرقة، فيعود إلى قصر القصائد، واعتماد الشاعر في هذه القصائد على التوازي في معظم القوافي، مما يعوضه عن استخدام الجناس، وتضم هذه القصائد قصيدتين عموديتين، الأولى: قصيدة "لا أبكيه" فقد كُتبت بالشكل العمودي التراثي، والثانية: قصيدة "أيدوم النهر" التي كتبها الشاعر بالشكل السطري على نمط شعر التفعيلة٠

ثانيا: الجناس في حشو السطور

اعتمدت حركية النظام الصوتي في تقنية الجناس عند أمل دنقل - في الغالب - على ما يسمى بالاستبدال بمعنى «أن يحل صوت أو أكثر محل آخر٠٠٠ فيتغير بذلك المعنى إيجابا أو سلبا»[١١]٠

فنرى أمل دنقل يستبدل صوت الميم بصوت اللام، وهما صوتان مجهوران يندرجان تحت الأصوات البينية التي تمتاز بالوضوح السمعي[١٢]٠ حيث يقول في قصيدة «طفلتها» من ديوان «مقتل القمر»:

إنَّني أَعْرِفُهَا فَاقْتَرِبِي فَكِلانَا في طَرِيقٍ أَخْطَأَهْ
سَاقَتِي حُمْقِي وَفي حَلْقِي مَرَا رَةُ شَوْقٍ وأَمَانٍ صَدِئَةْ
فَابْسُمِي يَا طِفْلَتِي مُنْذُ مَضَتْ وابْتِسَامَاتُ الضُّحَى مُنْطَفِئَةْ [١٣]

إن الاستبدال في (حُمْقِي - حَلْقِي) أدى إلى تغاير المعنى، وبقي الإيقاع الموسيقي له حضوره، لاعتماده على التكرار الصوتي، والتوازي بين الكلمتين، وكذلك التجاور المكاني بينهما٠

ويستبدل الشاعر صوت الكاف المهموس بصوت الراء المجهور في بعض مقاطع القصيدة التي تحمل عنوان ديوان « البكاء بين يدي زرقاء اليمامة»، يقول:

قيلَ لي اخْرَسْ
فَخَرَسْتُ، وعَميتُ وَ ائْتَمَمْتُ بِالْخِصْيَانْ
ظَلَلْتُ في عَبِيدِ عَبْسٍ أَحْرُسُ الْقُطْعَانْ
.....
.....
وَ هَا أَنَا سَاعَةَ الطِّعَانْ
سَاعَةَ أَنْ تَخَاذَلَ الْكُمَاةُ ٠٠ الرُّمَاة ٠٠ وَالْفُرْسَانُ
دُعيتُ لِلْمَيْدَانْ
أَنَا الَّذي مَا ذُقْتُ لَحْمَ الضَّانْ
أَنَا الَّذي لا حَوْلَ لي أَوْ شَانْ

233 19-11-2009.indd فىاطلا ةغماج 1/4/2010 7:38:36 PM

أَنَا الَّذي أُقْصيتُ عَنْ مَجَالسِ الْفتْيَانْ
أُدْعَى إِلَى الْمَوْتِ، وَلَمْ أُدْعَ إِلَى الْمُجَالَسَةْ (١٤)

جانس الشاعر بين (الكماة- الرماة) في قصيدته التي كتبها إبان نكسة ١٩٦٧، واعتمد في نقل تجربته على رمزين تراثيين، الرمز الأول: زرقاء اليمامة، والرمز الثاني: عنترة بن شداد، ومثلت زرقاء اليمامة الفئة المثقفة من الشعب الذين حذروا الفئة الحاكمة من أخطار النكسة، ولم تعبأ برأيهم، ثم أثبتت الأحداث بعد ذلك صواب هذه الرؤية.

والرمز الثاني الذي بين أيدينا في هذه السطور: عنترة الذي يرمز إلى الجندي المصري والمواطن المصري، فكلاهما عاش مهمشا، وعندما حاق الخطر بالبلد زُجَّ بهما في ساحة النزال.

إن الكماة والرماة بوقعهما الموسيقي الجميل مثلتا منطقة الضد، أو بالأحرى المفارقة بين سادة عبس وعنترة العبد، أو بين السلطة وبين المواطن المصري على حد سواء. فالجناس هنا لم يكن وسيلة ضغط على المعنى، بل أضحى وسيلة ربط بين الماضي والحاضر، فهو ينبئ عن نوع من أنواع الظلم الذي لم تختلف صوره في أي عصر من العصور.

ويعتمد أمل دنقل على استبدال صوت مهموس بآخر مهموس، واستبدال صوت مجهور بآخر مجهور في قصيدة « الخيول» من ديوان «الغرفة ٨»، يقول :

ارْكُضي لِلْفرَارْ
ارْكُضي أَوْ قفي في طَرِيقِ الْفرَارْ
تَتَسَاوَى مُحَصِّلَةُ الرَّكْضِ وَالرَّفْضِ في الأَرْضِ ،
مَاذَا تَبَقَّى لَكِ الآنَ ،
مَاذَا
سِوَى عَرَقٍ يَتَصَبَّبُ مِنْ تَعَبْ
يَسْتَحيلُ دَنَانيرَ مِنْ ذَهَبْ
في جُيُوبِ هُوَاة سُلالَتِك الْعَرَبيَّةْ
في حَلَبَات الْمُرَاهَنَة الدَّائرِيَّةْ
في نُزْهَة الْمَرْكَبَات السِّيَاحِيَّة الْمُشْتَهَاة
وَفي الْمُتْعَة الْمُشْتَرَاة
وَفي الْمَرْأَة الأَجْنَبيَّةْ. تَعْلُوكِ تَحْتَ
ظِلالِ أَبِي الْهَوْلِ.

234 19-11-2009.indd فى اطل اقع م اح 1/4/2010 7:38:36 PM

هَذَا الَّذِي كَسَرَتْ أَنْفَهُ
لَعْنَةُ الانْتِظَارِ الطَّوِيلْ [١٥]

نلاحظ أن أمل دنقل هنا يستبدل الكاف المهموسة بالفاء المهموسة في (الركض - الرفض)، أما كلمة الأرض المجاورة لهما فقد أحدث الشاعر فيها نوعا من الخلخلة فَزحزح الراء عن مكانها، وتم الاستبدال في صوت الهمزة المجهور[١٦]، مما كان له أكبر الأثر في كسر حدة الإيقاع٠

والجناس هنا بين (الركض - الرفض) يتآزر مع السياق في إحداث المفارقة التي تتسم بها هذه السطور، أو بالأحرى التي تلف القصيدة بأسرها، وهناك تقابل بين (الركض والرفض)، والتقابل في حد ذاته مفارقة، لكن هذا التقابل الذي يقوم على تمايز الأشياء يفقد وظيفته، فلا يحدث تمايز بين الضدين، بل تتساوى محصلة (الركض والرفض)، وهذه مفارقة أعظم، سببها كسر المألوف أو المعتاد، فقد فقدت الخيل مهمتها ولم تعد رمزا للفتح أو النضال، بل تحولت إلى متعة تُباع وُتشترى، والأنكى من ذلك مارست المرأة الأجنبية الفعل الذكري وامتطت ظهرها تحت تغطية عربية، مثَّلَ أبو الهول المعادل الموضوعي لهذه التغطية٠

ولا يعتمد أمل دنقل الاستبدال الصوتي في كلمتين فحسب، لكن تتسع المساحة فتشمل مجموعة من الكلمات، وتكون هندسة الكتابة الشعرية لها أثرها، حيث قام بتقطيع بعض الكلمات إلى حروف هجائية محدثا تجانسا صوتيا ودلاليا بينها٠

يقول في قصيدة «سرحان لايتسلم مفاتيح القدس» من ديوان «العهد الآتي» :

الْبَسْمَةُ حُلْمْ
وَالشَّمْسُ هِيَ الدِّينَارُ الزَّائِفْ
فِي طَبَقِ الْيَوْمْ
(مَنْ يَمْسَحُ عَنِّي عَرَقِي فِي هَذَا الْيَوْمِ الصَّائِفْ)
والظِّلُّ الْحَائِفْ
يَتَمَدَّدُ مِنْ تَحْتِي ،
يَفْصِلُ بَيْنَ الأَرْضِ ٠٠ وَبَيْنِي
تَضَاءَلْتُ كَحَرْفٍ مَاتَ بِأَرْضِ الْخَوْفْ
(حَاءٌ٠٠ بَاءْ
حَاءٌ٠٠ رَاءٌ٠٠ يَاءٌ٠٠ هَاءْ)
الْحَرْفُ: السَّيْفْ

235 19-11-2009.indd فىاطلا ةغمجا 1/4/2010 7:38:36 PM

مَازِلْتُ أَرُودُ بِلادَ اللَّوْنِ الدَّاكِنْ
أَبْحَثُ بَيْنَ الأَحْيَاءِ الْمَوْتَى وَالْمَوْتَى الأَحْيَاءْ
حَتَّى يَرْتَدَّ النَّبْضُ إِلَى الْقَلْبِ السَّاكِنْ
لَكِنْ ..!![١٧]

الجناس هنا في منطقة الحشو تمتد مساحته لتشمل مجموعة من الكلمات : (حرف - الخوف) - (حاء - باء) - (حاء - راء - ياء - هاء) - (الحرف - السيف)، وهذه السطور التي تحتوي هذه الدوال المتجانسة تكررت بعينها في قصيدة العراف الأعمى[١٨].

والاستبدال في هذا المقطع تنوع بين المجهور والمهموس، ومع توالي دوال الجناس وكثرتها، بقيت الدلالة لها تميزها الخاص، فيفقد الحرف مهمته، ويموت القلم في زمن الخوف، عندما تمارس السلطة سياسة القهر والظلم، ولا حياة للقلم أو الكلمة إلا من خلال دالين :

حَاءٌ .. بَاءْ
حَاءٌ .. رَاءٌ .. يَاءٌ .. هَاءْ)

الدال الأول «حب « والدال الثاني «حرية».

لعل الشاعر عمد إلى تقطيع الدالين إلى حروف أو أصوات محدثا بينها بياضا أو فراغات، وهذه الفراغات لها دلالتها، فهي تعبر عن الغياب، غياب الحب والحرية، أو بالأحرى موتهما في أرض الخوف، وزمن القهر.

لا بد أن يحيا الحرف والسيف معا، فالحرف والسيف صنوان، والشاعر ما زال يبحث عن الحرف/ السيف بين الأحياء الموتى الذين يعيش بين ظهرانيهم - فهم موتى لأنهم رضوا بالهزيمة والانكسار - وبين الموتى الأحياء من الأجداد الذين فتحوا البلاد من أقصاها إلى أقصاها، ودانت لهم الدنيا. وتبقى لَكِنْ ..!! في نهاية المقطع مردوفة بفراغ وتعجب معبرة عن تفوق الأحياء الموتى ساكني الخيام، على الموتى الأحياء الذين يعيشون في القصور، لكنها أضرحة.

ويحدث الاستبدال بين صوتين، لكن تزيد حروف إحدى الكلمتين على الأخرى في قصيدة « سفر الخروج» من ديوان «العهد الآتي»، يقول الشاعر:

اذْكُرِيني
فَقَدْ لَوَّثَتْنِي الْعَنَاوِينُ فِي الصُّحُفِ الْخَائِنَةْ
لَوَّنَتْنِي .. لأَنِّي مُنْذُ الْهَزِيمَةِ لا لَوْنَ لِي
(غَيْرَ لَوْنِ الضَّيَاعْ)
قَبْلَهَا كُنْتُ أَقْرَأُ فِي صَفْحَةِ الرَّمْلِ

19-11-2009.indd 236 فى اطل اغم اح 1/4/2010 7:38:36 PM

وَالرَّمْلُ أَصْبَحَ كَالْعُمْلَةِ الصَّعْبَة،
والرَّمْلُ أَصْبَحَ أَبْسطَةً ٠٠ تَحْتَ أَقْدَام جَيْشِ الدِّفَاعْ
فَاذْكُرِينِي، كَمَا تَذْكُرِينَ الْمُهَرِّبَ ٠٠ وَالْمُطْرِبَ الْعَاطِفِيَّ
وَكَابَ الْعَقِيد٠٠ وَزِينَةَ رَأْسِ السَّنَةْ
اذْكُرِينِي إِذَا نَسِيَتْنِي شُهُودُ الْعِيَانِ
وَمَضْبَطَةُ الْبَرْلَمَان
وَقَاعَةُ التُّهَمِ الْمُعْلَنَةْ
وَالْوَدَاعَ!
الْوَدَاعْ![19]

الجناس هنا بين (لوثتني - لونتني) يسير على الطريقة السابقة في استبدال صوت بآخر مع التوازي ٠ أما الجناس بين (المهرِّب - المطرب) فيعتمد على الاستبدال بين صوتين مهموسين هما: الهاء والطاء، لكن تبقى كلمة المهرِّب بها صوت زائد عن كلمة المطرب حيث إن الراء مضعفة في كلمة المهرِّب، مما يكون له أثر في كسر رتابة الإيقاع٠

مهما يكن من أمر فالجناس بين (الْمُهَرِّب٠٠ وَالْمُطْرِب) يكشف عن انقلاب الأوضاع، والفراغات بين طرفي الجناس، وبين (كَاب الْعَقِيد٠٠ وَزِينَةَ رَأْسِ السَّنَةْ) يكشف عن المسكوت عنه، والمسكوت عنه أن هذه الأشياء معها مضبطة البرلمان، وقاعة التهم المعلنة هي أبواق السلطة آنذاك، وهذا يتساوق مع الصحف الخائنة في بداية المقطع ٠

أما الشاعر الممثل للمثقف المصري والمواطن المصري، فهو في دائرة النسيان، ومع آلام النسيان يتألم الشاعر مرة أخرى لأنه لم يعد يقرأ صفحة الرمل، لأن الرمل أصبح عملة صعبة، والرمل في المقطع يرمز إلى تاريخنا الإسلامي والعربي المفعم بالفتوحات والانتصارات٠

ويتفشى الجناس في القصيدة الأولى من ديوان «العهد الآتي»، ويلف معظم سطورها، وآية ذلك قول الشاعر :

أَبَانَا الَّذِي فِي الْمَبَاحِث ٠ نَحْنُ رَعَايَاكَ ٠ بَاقٍ
لَكَ الْجَبَرُوتُ٠٠ وَبَاقٍ لَنَا الْمَلَكُوتُ٠ و بَاقٍ
لِمَنْ تَحْرُسُ الرَّهَبُوتْ

تَفَرَّدْتَ وَحْدَكَ بِالْيُسْرِ ٠ إِنَّ الْيَمِينَ لَفِي الْخُسْرِ
أَمَّا الْيَسَارُ فَفِي الْعُسْرِ٠٠ إِلاَّ الَّذِينَ يُمَاشُونَ

237 19-11-2009.indd فى اطل اغم اح 1/4/2010 7:38:36 PM

إلاَّ الَّذينَ يَعيشُونَ يَحْشُونَ بالُّصحُف الْمُشْتَرَاة
الْعُيُونَ ٠ فَيَعْشُونَ ٠ إلاَّ الَّذين يَشُونَ٠ وَإلاَّ
الَّذينَ يُوَشُّونَ يَاقَاتِ قُمْصَانِهِمْ بِرِبَاطِ السُّكُوتْ٠

تَعَالَيْتَ مَاذَا يَهُمُّكَ مِمَّنْ يَذُمُّكَ ؟ الْيَوْمُ يَوْمُكَ
يَرْقَى السَّجِينُ إلَى سُدَّة الْعَرْش
وَالْعَرْشُ يُصْبِحُ سِجْنًا جَديدًا وَأَنْتَ مَكَانَكَ٠ قَدْ
يَتَبَدَّلُ رَسْمُكَ واسْمُكَ٠ لَكِنَّ جَوْهَرَكَ الْفَرْدَ
لاَ يَتَحَولُ٠ الصَّمْتُ وَشْمُكَ٠وَ الصَّمْتُ وسْمُكَ
وَ الصَّمْتُ بَيْنَ خُيُوطِ يَدَيْكَ الْمُشْتَبِكَتَيْنِ الْمُصْمَغَتَيْنِ يَلُفُّ
الْفَرَاشَةَ وَالْعَنْكَبُوتْ٠٠

أَبَانَا الَّذي في الْمَبَاحِث كَيْفَ تَمُوتُ ؟
وَأُغْنِيَّةُ الثَّوْرَة الأَبَدِيَّة
لَيْسَتْ تَمُوتْ !![٢٠]

القصيدة مكونة من أربعة سطور انتهت جميعها بقافية مقيدة بتاء ساكنة مردوفة بواو (الرهبوت – السكوت – العنكبوت – تموت) ٠ وفي السطرين الثاني والثالث طغى الجناس طغيانا ظاهرا، لكنه لم يؤثر في المعنى، ولم يفسد الدلالة٠

وعند معاودة النظر في هذه القصيدة مرة أخرى، نرى السطرين الأول والرابع قصيرين بالقياس إلى السطرين الثاني والثالث، فكان السطر الأول بمثابة المقدمة، والسطر الرابع يمثل خاتمة القصيدة، وبقي السطران الثاني والثالث يمثلان موضوع القصيدة، وقد طال كل سطر منهما طولا ظاهرا حتى أضحى كل سطر مقطعا شعريا كاملا، ومن ثم لجأ الشاعر إلى تقنية الجناس، لينجو المقطع من الخفوت الموسيقي٠

وعندما نعاين هذين المقطعين نلمح طغيان أربعة أصوات اثنين مهموسين هما: الكاف والتاء، واثنين مجهورين هما: الراء والنون، ولعل هذه الأصوات تحمل معنى المفارقة الأليمة بين حالتين إحداهما: خاصة بالسلطوي، والأخرى: خاصة بالمحكوم[٢١]٠

وظاهرة أخرى يمكن رصدها في هذين السطرين، هي تفوق الأصوات المجهورة على الأصوات المهموسة، فقد بلغ عدد المجهور ١٨٧ صوتا، والمهموس ٩٣ صوتا، أي بمعدل ٢: ١ ٠وتفوق المجهور

238 19-11-2009.indd فى اطلا قع م اح 1/4/2010 7:38:36 PM

على المهموس هنا يعني تفوق السلطوي على المحكوم، ويبقى السلطوي صاحب الجبروت و الرهبوت، والمحكوم صاحب الصمت والسكوت.

إذًا ، فالجناس في هذه القصيدة وسيلة أسلوبية أسهمت إسهاما فاعلا في التحام الشكل والمضمون، والصوت والدلالة، ومن خلال هذه الوسيلة نفذت القصيدة إلى المتلقي ،ونقلت تجربة الشاعر إلى المتلقي.

ولم تختفِ روح الشاعر خلف هذا الركام الهائل من الدوال المتجانسة، وهذا يتناسب مع أسلوبية سبيتزر التي» تبحث عن روح المؤلف في لغته، ومن هنا اتسمت أسلوبيته بالمزج بين ما هو نفسي، وما هو لساني»[٢٢].

ومهما يكن من أمر فالجناس في كل ما سبق من نماذج يعد نوعا من أنواع التكرار على حد قول جورج مولينيه[٢٣] «هناك الصورة التي تبنى على المادة الصوتية نفسها، ومن أهمها في هذه الفئة وأقواها من بين كل الصور التكرار - مع تنوعاته وعمله المعقد - يدخل في عداده ظواهر التبديل الصوتي والتقريب، دون الوقوع في تكرار المضمون . هناك تكرار الصدارة، والتكرار الختامي، والتكرار الاشتقاقي، والصور الاشتقاقية والجناس الدلالي والتورية».

وهذا التكرار لبُنى الجناس مع إسهامه في تنوع الدلالة فإنه أضفى على النص الشعري عند أمل دنقل نغمية عالية لأن «تكرار البُنى يُصعِّد من نغمية النص فالإيقاع لايتمحورحول التفعيلة والقوافي فحسب، بل انهمال التفعيلة والقوافي يتعضدان إيقاعيا بهذا التماثل التركيبي الذي يتمخض عن تكرار البُنى اللسانية في الأسطر الشعرية، ولكن ليس التكرار وحده هو الذي يوحي بهذا البعد النغمي الملحق أو التكميلي، بل الإلحاح على هذا التكرار وتنويع البُنى اللسانية المكررة، الأمر الذي يؤدي إلى تمخضها عن بُنى أسلوبية متميزة ترفد الإيقاع الكامن في التفعيلة والقافية لتضفي إيقاعا آخر منبعثا من طبيعة التركيب وتكراره»[٢٤].

وهذا الإلحاح على تكرار البُنى الجناسية، وتنويع تلك البنى ظهر بصورة واضحة في كل ماسبق من أمثلة، وسوف تتجلى صوره أيضا في منطقة القافية، إن شاء الله.

ثالثا: الجناس في منطقة القافية

مثلت القافية العمود الفقري في الشعر العمودي، وشعر التفعيلة في حاجة لها أيضا فهي «أنسب صوت أو كلمة ينتهي بها السطر الشعري، بحيث يمكن الوقوف عندها، والانتقال منها إلى السطر التالي . القافية، إذن، في الشعر الجديد تتيح للقارئ الوقوف والحركة في آن واحد»[٢٥].

239 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:36 PM

والقافية تقنية أسلوبية باعتبارها انحرافا عن المعيارية ٠ يقول الدكتور رجاء عيد [٢٦] :» أما الانحراف الثاني لأية رسالة ما عن النمط القاعدي فإنه يكون بإدخال محددات إضافية أبعد من محددات القاعدة نفسها، ويتضح هذا الشكل في القافية»٠

وإذا عاينا شعر أمل دنقل وجدنا معظم قصائد ديوانه الأول «مقتل القمر» تسيطر عليها القافية الموحدة، وخاصة أن كثيرا من قصائد هذا الديوان عمودية كتبها الشاعر بطريقة شعر التفعيلة – كما اتضح من قبل – أما باقي الدواوين فقد نحا الشاعر فيها منحى شعر التفعيلة إلا فيما ندر، ومع ذلك لم يتخلَّ الشاعر عن القافية، بل ظلت تاج قصائده تحفها وسائل جمالية ودلالية، وعبر أمل دنقل عن هذا بقوله: «إنني أعتقد أنه يجب على الشاعر أن يستولي على وجدان قارئه ٠ إن الأذن العربية لم تتخلَّ عن تقاليدها السماعية، والقافية تحقق عنصرا مهما من عناصر الموسيقى في القصيدة، وإن مهارة الشاعر الحديث لا تكمن في التخلي عن القافية، أو الوسائل الكلاسيكية الأخرى بقدر ما تكمن في إعادة توظيفها لصالح القصيدة «[٢٧]٠

ويفصح أمل دنقل في قوله السابق عن عدم التخلي عن القافية، وبعض الوسائل الكلاسيكية الأخرى، ومن الوسائل الكلاسيكية التي عني بها أمل دنقل: الجناس، وكان هدفه توفير الموسيقى للقصيدة، وهذا يتفق مع قول ليفين «فالأداتان الشعريتان: القافية والجناس٠٠٠ تتطلبان –كشرط ضروري – تماثلا صوتيا وحسب، ففي هذه الحالات يكون التماثل الدلالي زائدا»[٢٨]٠

ومع كثرة الجناس في منطقة القافية، ورغم اعتراف أمل دنقل بهدفه في توفير الموسيقى للقصيدة، لم يكن الجناس وسيلة ضغط على المعنى، بل أفرزت دواله تماثلات دلالية ارتبطت بالسطر الشعري، والسياق العام أشد ارتباط٠

ولكثرة النماذج الدالة على ذلك يمكن الوقوف على بعضها حتى لا يضيق بنا المجال يقول الشاعر في قصيدة «البكاء بين يدي زرقاء اليمامة» :

أَيَّتُهَا الْعَرَّافَةُ الْمُقَدَّسَهْ
جِئْتُ إِلَيْك مُثْخَنًا بِالطَّعَنَات والدِّمَاءْ
أَزْحَفُ فِي مَعَاطِف الْقَتْلَى وَفَوْقَ الْجُثَث الْمُكَدَّسَهْ
مُنْكَسِرَ السَّيْف مُغَبَّرَ الْجَبِينِ، وَ الأَعْضَاءْ
أَسْأَلُ يَا زَرْقَاءْ
عَنْ فَمِك الْيَاقُوت عَنْ نُبُوءَة الْعَذْرَاءْ
عَنْ سَاعِدِي الْمَقْطُوعِ ٠٠ وَهْوَ مَا يَزَالُ مُمْسِكًا بِالرَّايَةِ الْمُنَكَّسَهْ

فى اطلا ع م اح 19-11-2009.indd 240 1/4/2010 7:38:37 PM

عَنْ صُورَةِ الأَطْفَالِ فِي الْخُوذَاتِ ٠٠ مُلْقَاةً عَلَى الصَّحْرَاءْ
عَنْ جَارِي الَّذِي يَهِمُّ بِارْتِشَافِ الْمَاءْ
فَيَثْقُبُ الرَّصَاصُ رَأْسَهُ٠٠ فِي لَحْظَةِ الْمُلامَسَهْ !
عَنْ الْفَمِ الْمَحْشُوِّ بِالرِّمَالِ وَالْمَاءْ
أَسْأَلُ يَا زَرْقَاءْ
عَنْ وَقْفَتِي الْعَزْلاءِ بَيْنَ السَّيْفِ وَالْجِدَارْ ! عَنْ صَرْخَةِ الْمَرْأَةِ بَيْنَ السَّبِيِّ وَالْفِرَارْ !
كَيْفَ حَمَلْتُ الْعَارْ ؟
ثُمَّ مَشَيْتُ ؟ دُونَ أَنْ أَقْتُلَ نَفْسِي ؟ دُونَ أَنْ أَنْهَارْ ؟
دُونَ أَنْ يَسْقُطَ لَحْمِي ٠٠ مِنْ غُبَارِ التُّرْبَةِ الْمُدَنَّسَهْ [٢٩]

من الملاحظ هنا أن قافية الشاعر مقيدة تنتهي بروي الهمزة، وعندما تطول السطور ينأى بها الشاعر عن الخفوت الموسيقي فيعتمد قافية داخلية رويها صوت السين الموصول بهاء ٠ ويمكن اعتبار هذه القافية الداخلية قافية خارجية إذا اعتمدنا الوقفة الصوتية دون الوقفة المعنوية، وهنا يكون نظام التقفية قائما على التبادل بين صوتيّ السين والهمزة، بدلا من نظام التوالي القائم على الهمزة فقط٠

ومهما يكن من أمر فقد وفر الشاعر في هذا المقطع والقصيدة بأسرها درجة عالية من الموسيقى باعتماده على الجناس والتوازي في منطقة القافية، وآية ذلك :

الجناس في: (المقدسة - المكدسة - المنكسة - المدنسة) - (الدماء - الماء - الدماء) ٠ التوازي في: (الأعضاء - زرقاء - العذراء - الصحراء - زرقاء) - (الجدار - الفرار) ٠

والشاعر عندما أحدث نوعا من التبادل بين روي السين والهمزة كسر رتابة الإيقاع القائم على التوازي في منطقة القافية، وكذلك عندما انتقل أمل دنقل إلى روي الراء أردف دالَّيْ (الجدار - الفرار) بدالٍّ (أنهار) ليكسر حدة الإيقاع المعتمد على التوازي بين هذين الدالَّين٠

ومع هذه التقنية البديعية التي اتكأ عليها الشاعر في منطقة القافية بقيت الدلالة لها فرادتها معبرة عن مرارة النكسة، وذل الانكسار٠

وتكثر دوالُّ الجناس في منطقة القافية في قصيدة «الموت في الفراش» التي كتبها أمل دنقل سنة ١٩٧٠، ويمكن اختيار المقطع التالي من هذه القصيدة :

عَلَى مَحَطَّاتِ الْقُرَى
تَرْسُو قِطَارَاتُ السُّهَادْ

241 19-11-2009.indd فى اطل اقع م اح 1/4/2010 7:38:37 PM

فَتَتْطَوِي أَجْنِحَةُ الْغُبَارِ فِي اسْتِرْخَاءَةِ الدَّنُوْ
وَالنِّسْوَةُ الْمُتَّشِحَاتُ بِالسَّوَادْ
تَحْتَ الْمَصَابِيحِ عَلَى أَرْصِفَةِ الرُّسُوْ
ذَابَتْ عُيُونُهُنَّ فِي التَّحْدِيقِ وَ الرُّنُوْ
عَلَى وُجُوهِ الْغَائِبِينَ مُنْذُ أَعْوَامِ الْحِدَادْ
تُشْرِقُ مِنْ دَائِرَةِ الأَحْزَانِ وِ السُّلُوْ
....
يَنْظُرْنَ - حَتَّى تَتَآكَلَ الْعُيُونُ
تَتَآكَلُ اللَّيَالِي،
تَتَآكَلُ الْقِطَارَاتُ مِنَ الرَّوَاحِ وَالْغُدُوْ
وَالْغَائِبُونَ فِي تُرَابِ الْوَطَنِ - الْعَدُوْ
لا يَرْجِعُونَ لِلْبَلادْ
لا يَخْلَعُونَ مِعْطَفَ الْوَحْشَةِ عَنْ مَنَاكِبِ الأَعْيَادْ (٢٠)

القافية في هذا المقطع اعتمدت على التوازي والتجانس والتداخل، فالشاعر يراوح بين صوتين هما: الدال صوت صامت، والواو صوت صائت، ونلمح الجناس والتوازي على حد سواء في كل الدوال المنتهية بصوت الواو (الدنو - الرنو) - (الرسو - السلو) - (الغدو - العدو)٠

وشبه التكرار واضح في هذه الدوال، فقد اعتمدت على استبدال صوت مجهور بآخر مجهور بين كل دالين، واحتل الاستبدال مكانا ثابتا في(الدنو - الرنو) - (الغدو - العدو)، ثم أحدث الشاعر خلخلة في الاستبدال المكاني في داليّ (الرسو - السلو)، وهذا من شأنه إحداث تنوع في النغمة ٠ أما كلمات القافية القائمة على روي الدال المرد وف بمد، فقد استندت إلى التوازي - باستثناء الكلمة الأخيرة في المقطع (الأعياد) - (السهاد - السواد - الحداد - البلاد)، ولا يخفى علينا التجانس بين (السهاد - السواد) ٠

ومن كل ما سبق يتضح أن القافية في اعتمادها على تقنيتيّ الجناس والتوازي قد أدت دورا جماليا في القصيدة، وتتجلى مشاركتها مع باقي دوال القصيدة بالقيام بدور وظيفي في إثراء الدلالة وتنوعها، فقد رسم الشاعر في هذا المقطع صورة كلية للحزن الشديد المعتصر قلوب النساء المنتظرات الأزواج والإخوة والأبناء الذين غيبتهم الحرب، وكان قوام هذه اللوحة الشعرية: الصور التقليدية في البلاغة القديمة، والكلمات الدالة على الصوت واللون والحركة، وإيحاء الكلمات التي تفيض بالحزن والأسى٠

242 19-11-2009.indd فى اطل اقع م اح 1/4/2010 7:38:37 PM

وكانت القافية بجناسها وتوازيها إحدى الوسائل الفنية المعبرة في هذه اللوحة، فقد اندغمت جميع دوال القافية في السياق العام للمقطع، مما ساعد على نقل تجربة الشاعر، والتأثير في المتلقي.

إضافة إلى ما سبق نلمح اتكاء الشاعر على المد المتمثل في روي (الواو) والمد / الردف السابق لروي (الدال)، يرسم صورة لليأس والأمل والحزن والرجاء داخل هؤلاء النسوة المنتظرات الأحباب.

واعتماد الشاعر على القافية المقيدة يعني سكون النفَس الحزين، والنفْس المكلومة عند نهاية كل سطر شعري، « والسكون يعني الوقفة، وتأتي الوقفة الكاملة مصاحبة بنغمة هابطة» [٢١]، وهبوط النغمة عند كل سطر دليل على هبوط النفَس الحزين، ثم يعاود النفس الصعود مرة أخرى مع بداية السطر الجديد، وتستمر المراوحة بين الصعود والهبوط، معبرة عن حالة من الحزن والرجاء، واليأس والأمل.

ويمكن الوقوف على قصيدة «زهور» من ديوان أمل دنقل الأخير «أوراق الغرفة ٨» حيث يقول:

وَسِلالٌ مِنَ الْوَرْدِ ،
أَمْحُهَا بَيْنَ إِغْمَاءَةٍ وَإِفَاقَةْ
وَعَلَى كُلِّ بَاقَةْ
اسْمُ حَامِلِهَا فِي بِطَاقَةْ
...
تَتَحَدَّثُ لِيَ الزَّهْرَاتُ الْجَمِيلَةْ
أَنَّ أَعْيُنَهَا اتَّسَعَتْ – دَهْشَةً –
لَحْظَةَ الْقَطْفِ
لَحْظَةَ الْقَصْفِ،
لَحْظَةَ إِعْدَامِهَا فِي الْخَمِيلَةْ !
تَتَحَدَّثُ لِي ..
أَنَّهَا سَقَطَتْ مِنْ عَلَى عَرْشِهَا فِي الْبَسَاتِينِ
ثُمَّ أَفَاقَتْ عَلَى عَرْضِهَا فِي زُجَاجِ الدَّكَاكِينِ، أَوْ بَيْنَ أَيْدِي
الْمُنَادِينَ ،
حَتَّى اشْتَرَتْهَا الْيَدُ الْمُتَفَضِّلَةُ الْعَابِرَةْ
تَتَحَدَّثُ لِي ..

243 19-11-2009.indd فى اطل اغ م اح 1/4/2010 7:38:37 PM

كَيْفَ جَاءَتْ إِلَيَّ
(وَأَحْزانُهَا الْمَلَكِيَّةُ تَرْفَعُ أَعْنَاقَهَا الْخُضْرَ)
كَيْ تَتَمَنَّى لِيَ الْعُمْرَ
وَهْيَ تَجُودُ بِأَنْفَاسِهَا الآخِرَة !!

كُلُّ بَاقَةْ ..
بَيْنَ إِغْمَاءَة وَإِفَاقَةْ
تَتَنَفَّسُ مِثْلِي بِالْكَاد - ثَانِيَةً.. ثَانِيَةْ
وَعَلَى صَدْرِهَا حَمَلَتْ - رَاضِيَةْ
اسْمَ قَاتِلِهَا فِي بِطَاقَةْ [٣٢]

آثرت هنا أن أنقل القصيدة كاملة، لأنها تمثل لوحة فنية مترابطة، تآلفت عناصرها وأجزاؤها فنقلت تجربة الشاعر، وعبرت عن مشاعره وإحساساته أشد تعبير.

وإذا رحنا نبحث عن دوال الجناس في منطقة القافية وجدناها تتمثل في: (إفاقة - باقة- بطاقة) - (الجميلة - الخميلة)، وبينهما القافيتان الداخليتان (القصف - القطف) . أما القوافي التي خلت من الجناس فقد اتكأ الشاعر فيها على التوازي (البساتين - المنادين) - (العابرة - الآخرة)- (ثانية - راضية).

واعتماد الشاعر على هذه الحيل البديعية في منطقة القافية، لم يكن عنصر حجب للدلالة، بل تآزر الدال والمدلول، والشكل والمضمون في نقل تجربة الشاعر الفريدة في هذه القصيدة، فالشاعر مسجى على الفراش في معهد الأورام، في حالة وسطى بين الحياة والموت، والزهور في مثل حالته (بَيْنَ إِغْمَاءَة وَإِفَاقَةْ).

والشاعر في المقطعين الأول والثالث، اعتمد على اللغة المعيارية في وصف الزهور، واعتمد في المقطعين الثاني والأخير على اللغة الانزياحية أو العد ولية، فخلع على الزهور السمات الإنسانية.

والمراوحة بين المعيار والانحراف معادل للمراوحة بين الحياة والموت، تلك الحالة التي يعانيها الشاعر والزهور على حد سواء، فقد تداخل عالم الإنسان مع عالم الطبيعة، فالموت لا يفرق بين هذا وذاك فالكل أمام سطوته سواء.

وفي قصيدة «فقرات من كتاب الموتى» من ديوان «تعليق على ما حدث» نرى أمل دنقل يجمع بين الجناس التام والجناس الناقص في منطقة القافية . يقول:

244 19-11-2009.indd فى اطل اقع اح 1/4/2010 7:38:37 PM

أَعُودُ مَخْمورًا إِلَى بَيْتِيَ
فِي اللَّيْلِ الأَخِيرْ
يُوْقِفُنِي الشُّرْطِيُّ فِي الشَّارِعِ لِلشُّبْهَةْ
يُوْقِفُنِي بُرْهَةْ
وَبَعْدَ أَنْ أَرْشُوهُ٠٠ أُوَاصِلُ الْمَسِيرْ
تُوْقِفُنِي الْمَرْأَةُ
فِي اسْتِنَادِهَا الْمُثِيرْ
عَلَى عَمُودِ الضَّوْءِ
(كَانَتْ مُلْصَقَاتُ «الْفَتْحِ» و «الْجَبْهَةْ»)
تَمْلأُ خَلْفَ ظَهْرِهَا الْعَمُودا
سَأَلَتْنِي لَفَافَة
لَمْ يَتْرُكْ الشُّرْطِيُّ
وَاحِدَةً مِنْ تَبْغِهَا اللَّيْلِيِّ
تَسْأَلُنِي إِنْ كُنْتُ أَمْضِي لَيْلَتِي٠٠ وَحِيدَا
وَعِنْدَمَا أَرْفَعُ وَجْهِي نَحْوَهَا
سَعِيدًا
أُبْصِرُ خَلْفَ ظَهْرِهَا شَهِيدًا
مُعَلَّقًا عَلَى الْحَائِطِ نَاصِعَ الْجَبْهَةْ تَغُوصُ عَيْنَاهُ٠٠ كَنَصْلَيْنِ رُصَاصِيَّيْنِ
أَصْرُخُ مِنْ رَهَافَةِ الْحَدَّيْنِ
أَمْضِي بِلا وِجْهَةْ (٣٣)

الشاعر كتب هذه القصيدة سنة ١٩٦٩، ومرارة النكسة غصة في الحلوق، ومن ثم عبر هذا المقطع عن واقعين متناقضين يعيشهما الشعب المصري، أحدهما: واقع يسوده الفساد والانحراف، والآخر: واقع النضال والجهاد٠

يمثل واقع الفساد الشاعر المخمور الراشي، والشرطي المرتشي، والفتاة الساقطة، ويمثل واقع الجهاد: ملصقات الفتح معلقة علي عمود الكهرباء، وصورة الشهيد معلقة على الجدار خلف الفتاة الساقطة ٠ إذًا، فالمقطع كله يحمل عنصر المفارقة٠

وهناك تقنيات بلاغية استخدمها الشاعر، من هذه التقنيات اتكاؤه على الفصل في هذا المقطع، وكذلك اعتماده على الجناس في منطقة القافية مثل: (المسير - المثير) - (الجبهة - الجبهة-

245 19-11-2009.indd فى اطل اقع مراج 1/4/2010 7:38:37 PM

وجهة)، والجناس يمثل اتحادا في الشكل واختلافا في المعنى، وهذا في حد ذاته مفارقة، وأشدها يمثله الجناس التام بين (الجبهة) بمعنى ساحة القتال، و(الجبهة) المعبرة عن جبين الشهيد.

وتبقى دوال الجناس مصورة الحزن والأسى، ومعبرة عن المفارقة في قصيدة « من مذكرات المتنبي في مصر» من ديوان « البكاء بين يدي زرقاء اليمامة» فقد كتبها الشاعر بعد النكسة في يونيو ١٩٦٨، يقول في بعض مقاطعها :

«خَوْلَةُ» تِلْكَ الْبَدَوِيَّةُ الشَّمُوسْ
لَقَيْتُهَا بِالْقُرْبِ مِنْ أَرِيحَا
سُوَيْعَةً، ثُمَّ افْتَرَقْنَا دُونَ أَنْ نَبُوحَا
لَكِنَّهَا كُلَّ مَسَاءٍ فِي خَوَاطِرِي تَجُوسْ
يَفْتَرُّ بِالشَّوْقِ وَالْعِتَابِ ثَغْرُهَا الْعَبُوسْ
أَشُمُّ وَجْهَهَا الصَّبُوحَا
أَضُمُّ صَدْرَهَا الجَمُوحَا
... ...
سَأَلْتُ عَنْهَا الْقَادِمِينَ فِي الْقَوَافِلْ
فَأَخْبَرُونِي أَنَّهَا ظَلَّتْ بِسَيْفِهَا تُقَاتِلْ
فِي اللَّيْلِ تَجَّارَ الرَّقِيقِ عَنْ خِبَائِهَا
حِينَ أَغَارُوا، ثُمَّ غَادَرُوا شَقِيقَهَا ذَبِيحَا
وَالأَبَ عَاجِزًا كَسِيحَا
وَاخْتَطَفُوهَا، بَيْنَمَا الْجِيرَانُ يَرْنُونَ مِنَ الْمَنَازِلْ
يَرْتَعِدُونَ جَسَدًا وَرُوحَا
لا يَجْرُؤُونَ أَنْ يُغِيثُوا سَيْفَهَا الطَّرِيحَا
....
(سَأَلَنِي كَافُورُ عَنْ حُزْنِي
فَقُلْتُ إِنَّهَا تَعِيشُ الآنَ فِي بِيزَنْطَةْ
شَرِيدَةً كَالْقِطَّةْ
تَصِيحُ كَافُورَاه ٠٠ كَافُورَاه)
فَصَاحَ فِي غُلامَه أَنْ يَشْتَرِيَ جَارِيَةً رُومِيَّةْ
تُجْلَدُ كَيْ تَصِيحَ وَارُومَاه ٠٠ وَارُومَاه [٢٤]

فى اطلاع مع اح 19-11-2009.indd 246 1/4/2010 7:38:37 PM

يمثل هذا المقطع والقصيدة بأسرها حالة من حالات المفارقة، فالمتنبي المعادل للفئة المثقفة يُعد بوقا من أبواق السلطة المنهزمة والعاجزة في الوقت نفسه، وهذا ما قاله المتنبي في القصيدة:

وَصِرْتُ فِي الْقُصُورِ بَبْغَاءَا [٣٥]

بينما كافور المعادل للسلطة المصرية

سَيْفُهُ يَأْكُلُهُ الصَّدَأْ [٣٦]

وبقيت «خولة» في هذا المقطع رمزا للبداوة، أبية شموسا، لعل الشاعر رمز بها إلى فلسطين المنكوبة، وشقيقها الذبيح رمْز لمصر المنهزمة، والأب الكسيح السلطة الحاكمة، والجيران المرتعدون جسدا وروحا الدول العربية٠

وتزداد المفارقة أقصى مدى عندما يتناص الشاعر في نهاية المقطع مع نصرة المعتصم المرأة التي صاحت وامعتصماه، وعجز كافور/السلطة عن نصرة أمة بأسرها تصيح وكافوراه « وهدف الشاعر من هذا الأسلوب (المفارقة) هو خلق نص جديد يحمل طبيعة الرؤية المعاصرة، التي تعددت أبعادها، وتشابكت، وتداخلت في تعقيد شديد»[٣٧]٠

وظلت دوال الجناس معبرة عن هذه المفارقة من خلال مراوحتها بين الإطلاق والتقييد، وبين التجانس والتوازي، وكذلك صورت دوال الجناس في منطقة القافية أشد حالات الأسى والألم التي تعتصر قلب الشاعر، وتعتمل في وجدان الأمة ٠ (أريحا - نبوحا - ذبيحا - روحا) - (القوافل - تقاتل)، ومن هنا حققت القافية دورها الجمالي والوظيفي في آن واحد٠

ويخبو الدور الجمالي للجناس في منطقة القافية في قصيدة «لا تصالح» من ديوان أقوال جديدة عن حرب البسوس»، ويمكن اختيار المقطع الثاني من هذه القصيدة، يقول الشاعر:

لا تُصَالِحْ عَلَى الدَّم ٠٠ حَتَّى بِدَمْ
لا تُصَالِحْ ! وَلَوْ قِيلَ رَأْسٌ بِرَأْسْ ،
أَكُلُّ الرُّؤُوسِ سَوَاءْ؟
أَقَلْبُ الْغَرِيبِ كَقَلْبِ أَخِيكْ ؟
أَعَيْنَاهُ عَيْنَا أَخِيكْ ؟
وَهَلْ تَتَسَاوَى يَدٌ ٠٠ سَيْفُهَا كَانَ لَكْ
بِيَدٍ سَيْفُهَا أَتْكَلَكْ ؟
سَيَقُولُونَ :
جِئْنَاكَ كَيْ تَحْقِنَ الدَّمْ

247 19-11-2009.indd فىاطلا قعماج 1/4/2010 7:38:37 PM

جِئْنَاك كُنْ - يَا أَمِيرُ - الْحَكَمْ :
سَيَقُولُونَ :
هَا نَحْنُ أَبْنَاءُ عَمّْ
قُلْ لَهُمْ: إِنَّهُمْ لَمْ يُراعُوا الْعُمُومَةَ فِيمَنْ هَلَكْ
وَاغْرِسْ السَّيْفَ فِي جَبْهَةِ الصَّحَرَاءِ..
إِلَى أَنْ يُجِيبَ الْعَدَمْ
إِنَّنِي كُنْتُ لَكْ
فَارِسًا
وَأَخًا
وَأَبًا
وَمَلِكْ [٣٨]

هذه القصيدة كتبها الشاعر سنة ١٩٧٦، عندما عزم الرئيس السادات على زيارة القدس، وإبرام معاهدة السلام مع إسرائيل، والشاعر في قصيدته هذه غلبت عليه الواقعية، ولجأ إلى المنطقية والحجاج، محاولا بشتى الطرق الإقناع بعدم جدوى هذه المعاهدة، ومن ثم جاءت عباراته في كثير من الأحيان تقريرية، وتفوقت اللغة النفعية على اللغة الجمالية، ومن ثم لم يُعْنَ الشاعر بتحقيق أكبر قدر من النغمية في منطقة القافية عنايته بها في قصائده الأخرى، فيختفي التوازي بين الدوال المتجانسة إلا نادرا.

ونماذج الجناس في منطقة القافية كثيرة ومتنوعة في شعر أمل دنقل، وما عُرِض من شواهد يكفي لتوضيح الفكرة، فقد عبرت هذه النماذج أشد تعبير عن طريقة الشاعر في استخدامه هذه الوسيلة الفنية التي حققت في كثير من قصائده دورها الجمالي والوظيفي في نقل تجربة الشاعر إلى المتلقي، وبقيت هذه التجربة متجددة في وجدانه، لا تنطفئ ولا تخبو.

رابعا: الجناس وتوظيف التراث

من المعروف لدى الباحثين أن الشاعر لا ينفصم عن تراثه، فعلاقة « الشاعر بالتراث لا تتوقف لأنها علاقة جدل دائم مع موروثه الخاص من التراث ككل، تنميها قدرات وثقافة، ومهمة واضحة للنص الشعري، وتختلف هذه العناصر كلها - الأداة والماهية والمهمة والقدرات والموروث- من شاعر لآخر، ومن جيل إلى جيل، ومن عصر لآخر، ومن مذهب لآخر»[٣٩].

ويعد توظيف التراث من أكثر الظواهر الأسلوبية التي حفل بها شعر أمل دنقل، فالشاعر لابد أن يكون بينه وبين تراثه علاقة تبادلية قائمة على الأخذ والعطاء، يسترفد تراثه أدوات وعناصر

248 19-11-2009.indd فى اطل اقع اح 1/4/2010 7:38:37 PM

ومعطيات يوظفها لتجسيد رؤيته المعاصرة بحيث ترتد هذه العناصر أكثر غنى وحيوية وتجددا وقدرة على البقاء [٤٠].

وكان هدف الشاعر أن « يسقط الأبعاد المعاصرة مباشرة على الملامح التراثية التي برع في التقاطها، بحيث تتراسل تراسلا بارعا مع الأبعاد المعاصرة، وتلك ناحية برع فيها أمل دنقل براعة كبيرة في كل توظيفا ته التراثية، بحيث يقيم تكافؤا بارعا بين الدلالة التراثية والدلالة المعادلة للمعطيات التراثية بإيحاءات بالغة الغنى والرحابة»[٤١].

ويهمنا في هذا الصدد توظيف أمل دنقل التراث في دوال الجناس ٠ ومن ثم كان للنص القرآني حضور في شعره، فقد تناص مع الآية القرآنية « وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ» [٤٢] في قوله:

تَفَرَّدْتَ وَحْدَكَ بِالْيُسْرِ ٠ إِنَّ الْيَمِينَ لَفِي الْخُسْرِ
أَمَّا الْيَسَارُ فَفِي الْعُسْرِ٠٠ إِلاَّ الَّذِينَ يُمَاشُونَ إلخ

ومع توظيف الشاعر النص القرآني توظيفا عكسيا ليشيع جوا ساخرا من رجل المباحث، إلا أن النص الديني أضفى قدسية على النص الشعري٠

ويتشابك النص القرآني مع النص النبوي وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في إحداث تجانس في منطقة القافية٠ في قول الشاعر:

قُلْتُ: فَلْيَكُنْ الْعَدْلُ فِي الأَرْضِ، عَيْنٌ بِعَيْنٍ وسِنٌ بِسِنْ
قُلْتُ: هَلْ يَأْكُلُ الذئبُ ذئبًا، أَوْ الشَّاةُ شَاةً ؟
وَلا تضَعِ السَّيْفَ فِي عُنُقِ اثْنَيْنِ: طِفْلٍ٠٠ وَشَيْخٍ مُسِنْ
وَرَأَيْتُ ابْنَ آدَمَ يُرْدِي ابْنَ آدَمَ، يُشْعِلُ فِي
الْمُدُنِ النَّارَ، يَغْرِسُ خِنْجَرَهُ فِي بُطُونِ الْحَوَامِلِ ،
يُلْقِي أَصَابِعَ أَطْفَالِهِ عَلَفًا لِلْخُيُولِ، يَقُصُّ الشِّفَاهَ
وُرُودًا تُزَيِّنُ مَائِدَةَ النَّصْرِ٠٠ وَهْيَ تَئِنْ
وَأَصْبَحَ الْعَدْلُ مَوْتًا، وميزَانُهُ الْبُنْدُقِيَّةُ، أَبْنَاؤُهُ
صُلبُوا فِي الْمَيَادِينِ، أَوْ شُنِقُوا فِي زَوَايَا الْمُدُنْ
قُلْتُ: فَلْيَكُنْ الْعَدْلُ فِي الأَرْضِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ [٤٤]

الشاعر في السطر الأول يتناص مع الآية: «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ والأُذُنَ بِالأُذُنِ والسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ٠٠»[٤٥]، وفي السطر الثاني يوظف الشاعر الحديث النبوي «٠٠٠ اغْزُوا وَلا تَغُلُّوا وَلا تَغْدِرُوا وَلا تُمثِّلُوا وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا٠٠٠» [٤٦].

249 19-11-2009.indd فى اطلا ع م اح 1/4/2010 7:38:37 PM

ويوظف أيضا وصية أبي بكر رضي الله عنه لأسامة بن زيد وأصحابه « لا تَخُونُوا وَلا تَغْدِروا وَلا تَغْلُوا وَلا تُمثِّلُوا وَلا تَقْتلُوا طِفْلا وَلا شَيْخًا كَبِيرًا ولا امرأة ٠٠٠»[٤٧]، ويفصل الشاعر بين النصيين الدينيين باتكاء على نص شعري للإمام الشافعي في بداية السطر الثاني:

وَلَيْسَ الذئبُ يَأْكُلُ لَحْمَ ذِئبٍ وَيَأْكُلُ بَعْضُنَـا بَعْضًـا عَيَانَـا [٤٨]

وبنية الجناس واضحة في منطقة القافية في السطرين الأول والثاني (بسن - مسن)، ولا تخفى علينا النغمية التي أحدثها الجناس متآزرا معه التكرار في هذين السطرين ٠ أما من الناحية الدلالية فقد أدى توظيف الشاعر النص التراثي إلى مشاركة المتلقي، وإثارة انتباهه، فمساحة السطر الأول لا تحتمل كل الدوال الرامزة إلى العدل في الآية، ومن ثم اكتفي الشاعر بالعين والسن٠ وفي السطر الثاني يضع الشاعر بين (طِفْلٍ٠٠ وَشَيْخٍ مُسِنْ) فراغا، فقد أسقط المرأة، لكنه أشار إليها في السطور التالية بقوله :

يَغْرِسُ خِنْجَرَهُ فِي بُطُونِ الْحَوَامِلِ

ومن هنا أضحت وظيفة المتلقي سد الفراغات، أو بعبارة أخرى عليه أن يذكر المسكوت عنه، فقد أضحى «المعنى في بطن القارئ»٠

والمقطع الذي بين أيدينا عبَّر عن حالة من حالات المفارقة، فالشاعر ينشد العدل يؤيده النص الديني، وواقع الشاعر عكس ذلك تماما، فالنار تُشعل في المدن، والأطفال تُقتل، وبطون الحوامل تُبقر، والعدل لم يكن ٠

ومن كل ما سبق يتضح أن الشاعر أحدث مراوحة بين المتوقع وغير المتوقع، وهذا « تأكيد على جماليات الإيقاع بوصفها مراوحة بين إشباع التوقع وإحباطه»[٤٩]، وهذا الإيقاع الناتج عن المتوقع وإحباطه - بلا شك - يتساوق مع الجناس في إحداث أعلى درجة من النغمية في هذه السطور٠

ويتداخل الحدث التراثي مع الحدث المعاصر ويندغمان في بنية النص في قصيدة «لا وقت لبكاء» التي كتبها الشاعر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، حيث يقول:

وَهَذِهِ الْخَرَائِطُ الَّتِي صَارَتْ بِهَا سَيْنَاءْ
عِبْرِيَّةَ الأَسْمَاءْ
كَيْفَ نَرَاهَا٠٠ دُونَ أَنْ يُصِيبَنَا الْعَمَى ؟
وَالْعَارُ٠٠ مِنْ أُمَّتِنَا الْمُجَزَّأَةْ ؟
وَالطِّفْلَةُ الصَّغِيرَةُ الْعَذْبَةْ
تُطْلِقُ فَوْقَ الْبَيْتِ طَيَّارَتَهَا الْبَيْضَاءْ
كَيْفَ تُرَى تَكْتُبُ فِي كَرَاسَةِ الإِنْشَاءْ

250 19-11-2009.indd فى اطل اقع م اح 1/4/2010 7:38:37 PM

عَنْ بَيْتِهَا المَهْدُوم فَوْقَ الأَبِ واللُّعْبَةْ ؟
وَأُمِّيَ الَّتِي تَظَلُّ فِي فِنَاءِ الْبَيْتِ مُنْكَبَّةْ
مَقْرُوحَةَ الْعَيْنَيْنِ، مُسْتَرْسَلَةَ الرِّثَاءْ
تَنْكُثُ بِالْعُودِ عَلَى التُّرْبَةْ
رَأَيْتُهَا: الْخَنْسَاءْ
تَرْثِي شَبَابَهَا الْمُسْتشهِدِينَ فِي الصَّحْرَاءْ
رَأَيْتُهَا: أَسْمَاءْ
تَبْكِي ابْنَهَا الْمَقْتُولَ فِي الْكَعْبَةْ [٥٠]

في هذا النص المعاصر نرى الأب الشهيد معادلا لأبناء الخنساء، وعبدالله بن الزبير المقتول ويجانس الشاعر في هذا المقطع بين (اللعبة والكعبة) واللعبة إحدى دوال الحدث المعاصر، والكعبة إحدى دوال الحدث التراثي، وقد نجح الجناس/ القافية في الربط بين الحدثين٠ وقد يثير استخدام الشاعر «اللعبة» بجوار الأب الشهيد بعض الاعتراضات، لكن هذه الكلمة ليست مجلوبة للقافية، فاللعبة أساس في حياة الطفل، وقتل اللعبة قتل للبراءة، وقتل للطفولة التي فقدت أباها٠ أما المسكوت عنه في النص فهم الجناة: إسرائيل - الفرس - الحجاج الثقفي قاتل ابن الزبير [٥١] ٠

وفي القصيدة السابقة يوظف الشاعر العلَم والمكان التراثيين في بنية الجناس في قوله :

لَقَدْ رَأَيْتُ لَيْلَةَ الثَّامِنَ والْعِشْرِينْ
مَنْ سِبْتَمْبِرِ الْحَزِينْ
رَأَيْتُ هتَافَ شَعْبِيَ الْجَرِيحْ
رَأَيْتُ خَلْفَ الصُّورَةْ
وَجْهَكِ يَا مَنْصُورَةْ
وَجْهَ لويسَ التَّاسِعِ الْمَأْسُورِ فِي يَدَيْ صَبِيحْ
رَأَيْتُ صَبِيحَةَ الأَوَلِ مِنْ تِشْرِينْ
جُنْدَكِ ٠٠ يَا حِطِّينْ
يَبْكُونَ
لا يَدْرُونَ ،
أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَاشِينْ
فِيهِ ٠٠ صَلاحُ الدِّينْ [٥٢]

251 19-11-2009.indd فى اطفال قع م اح 1/4/2010 7:38:37 PM

وفي هذا المقطع يجانس الشاعر بين (الصورة - المنصورة) وبين (صبيح - صبيحة)، وعنوان القصيدة « لا وقت لبكاء» يشير إلى بكاء الجماهير الغفيرة من الشعب المصري لموت جمال عبد الناصر، والشاعر في قصيدة أخرى لا تحمل تاريخا - ربما كتبها الشاعر في ذكرى وفاة عبد الناصر- وتحمل عنوان «خطاب غير تاريخي على قبر صلاح الدين» [٥٣]، يوظف الشاعر فيها شخصية صلاح الدين توظيفا عكسيا «ويبدو واضحا للقارئ ٠٠٠ أن الشخص المقصود في هذه القصيدة هو عبد الناصر، الذي يرى الشاعر أنه رفع راية استرداد المدن العربية المرتهنة، وقدم جواده المسكين «عبد الحكيم عامر» ضحية لهزيمة ٦٧، واحتلال سيناء، وظل يستثمر القضية في تحقيق زعامة شخصية شغلته عن الدفاع الفعلي عن الوطن، وجعلته يكتفي بالخطب التاريخية في ساحة مجلس الأمن»[٥٤]٠

وإن كانت الشخصية التراثية في قصيدة «خطاب غير تاريخي على قبر صلاح الدين» تحمل تناص التخالف، فإن شخصيتيّ صبيح وصلاح الدين تحملان تناص التآلف، فالشاعر يولد من موت عبد الناصر الأمل، فيلوح أمامه هزيمة الصليبيين في المنصورة، وأسر لويس التاسع في دار ابن لقمان تحت حراسة الطواشي صبيح [٥٥]٠

وتتحول شخصية صلاح الدين الانهزامية هناك إلى شخصيته الحقيقية في هذا النص، حيث يرى الشاعر أن الجموع الباكية سوف تكفكف دموعها، وتفيق من سباتها وتحمل راية الجهاد في حطين الجديدة، وكل واحد فيهم هو صلاح الدين، وقد كان انتصار ١٩٧٣ ٠

إذن، فالعلم أدى دوره الصوتي في بنية الجناس، وكان له أيضا وظيفته الدلالية، فتوظيف العلم « فنيا لا يعبر عن ذوات جامدة، بل يصبح شفرة حرة متفاعلة مع أجزاء السياق، ومتعددة الدلالة وفقا لعدد السياقات وتنوعها» [٥٦]٠

ويكون للقب حضوره الواضح في بنية الجناس القافوي في قصيدة « أيلول» ٠ وقد يكون اللقب مصاحبا للدور الذي يمكن للشاعر أن يشير إليه عن طريق استخدام منبه سردي دلالي، أو منبه نحوي تركيبي٠

وتتمثل الإشارة إلى الدور المصاحب للقب عن طريق المنبه السردي الدلالي[٥٧]٠ في قول أمل دنقل:

صوت	جوقة خلفية
فِي سُورِيَّةْ	الأُمَرَاءُ الصُّمّْ
كَانَتْ تَتَهَاوَى رَايَاتُ أُمَيَّةْ	مَاتُوا عَلَى الْمَدَاخِلْ
فَرَفَعْنَاهَا عَلَمًا عَلَمًا ٠٠ وَوَقَعْنَا فِي أَسْرِ الرُّومْ	لَمْ يَبْقَ إلا «الدَّاخِلْ»

252 19-11-2009.indd فىاطلا ةغماح 1/4/2010 7:38:38 PM

لَكنَّا فِي طَابُورِ الأَسْرَى الْمَهْزُومْ يَعْبُرُ نَهْرَ الدَّمْ
كُنَّا نَنْتَظِرُ زِيَادَ بْنَ أَبِيهْ
لِيَعُودَ، فَيُنْقِذَنَا مِمَّا نَتَسَرْبَلُ فِيهْ لَمْ يَبْقَ إلا «الدَّاخِلْ»
كَمَا نُبْصِرُ وَرْدَتَنَا الصَّابِحَةَ الْحَمْرَاءْ يَعْبُرُ نَهْرَ الدَّمْ
تَنْمُو فِي شُرْفَةِ بَيْتٍ فِي حَلَبِ الشَّهْبَاءْ وَالأُمَرَاءُ الصُّمّْ
وَظَلَلْنَا نَنْتَظِرُ.. تَطُولُ الأَظْفَارُ .. وَيَبِيضُ
السَّالِفْ مَاتُوا عَلَى الْمَدَاخِلْ
.. ذَاتَ صَبَاحٍ عَاصِفْ
كُنَّا نَشْرَبُ حِينَ أَتَتْنَا الأَنْبَاءْ مَاتُوا عَلَى الْمَدَاخِلْ
.. فَتَعَكَّرَ لَوْنُ الْمَاءْ لَمْ يَبْقَ إلا «الدَّاخِلْ»[٥٨]

لعلنا نلاحظ دالي الجناس (المداخل - الداخل)، وتكرار كل منهما ثلاث مرات، يتآزر معهما تكرار عبارتي (الأمراء الصم) - (يعبر نهر الدم) ،وكيف علت هذه التقنيات بالإيقاع والنغمية إلى أعلى معدل ؟ وهذا يتناسب تناسبا شديدا مع الجوقة الخلفية .

ومع استخدام الشاعر هذه التقنيات البديعية لم تطغَ على الدلالة، بل بقيت لها تميزها وحضورها، فالشاعر استخدم أحد ألقاب الخليفة الأموي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بالداخل ؛ لأنه أول من دخل الأندلس من ملوك الأمويين [٥٩].

«وعلى الرغم من شهرة هذا اللقب وذيوعه، فإن الشاعر قد ارتاب من التشاكل الصوتي القائم بين «المداخل» و «الداخل» وما ينتجه في ذهن المتلقي من تشاكل دلالي، يتمثل في فعل الدخول الذي يربط بين اسم المكان واسم الفاعل، حيث خشي الشاعر من طغيان هذه الدلالة القاموسية، على صيغة اللقب التي أوردها داخل النص، لتثير في ذهن المتلقي صورة الشخصية المستدعاة، مما دفعه إلى تأكيد الاستدعاء باللقب، من خلال آلية الدور المتمثلة في بعض عناصر الدور التاريخي، الذي لعبته الشخصية، مثل: «الإمارة» و «عبور نهر الدم»، بالإضافة إلى كلمة «الداخل» بين علامتيْ تنصيص، حتى يوحي للقارئ بوجود كيان شبه مستقل لهذه الكلمة داخل السياق»[٦٠]. ومنح الشاعر لهذا الكيان تلك الاستقلالية، لأنه هو المخلص، والمنقذ من الضياع وذل الانكسار.

وقد قام أمل دنقل باستدعاء شخصية خالد بن الوليد- رضي الله عنه- من خلال آلية القول في قصيدة «الموت في الفراش»، التي يتناص عنوانها مع عبارته الشهيرة «وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير»[٦١].

253 19-11-2009.indd فىاطلا ةغماج 1/4/2010 7:38:38 PM

وظهر قصد الشاعر إلى استدعاء شخصية خالد من خلال قوله واضحا جليا في الحركة الأخيرة من القصيدة [٦٢]، حيث يقول في المقطع الأخير:

أَمُوتُ فِي الْفِرَاشِ.. مِثْلَمَا تَمُوتُ الْعِيرْ
أَمُوتُ، والنَّفِيرْ..
يَدُقُّ فِي دِمَشْقْ
أَمُوتُ فِي الشَّارِعِ فِي الْعُطُورِ وَالأَزْيَاءْ
أَمُوتُ، والأَعْدَاءْ
تَدُوسُ وَجهَهَ الْحَقّ
«وَمَا بِجِسْمِي مَوْضِعٌ إِلا وَفِيهِ طَعْنَةٌ بِرمْحْ
.. وَإِلا فِيهِ جُرْحْ،
إِذَنْ
فَلا نَامَتْ عُيُونُ الْجُبَنَاءْ» [٦٣]

في هذا المقطع تناص تراثي مع قول خالد بن الوليد عندما حضرته الوفاة «لقد لقيت كذا وكذا زحفا، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء»[٦٤].

الشاعر هنا يحول البنية التراثية لصالح البنية الشعرية فيقدم عبارة

أَمُوتُ فِي الْفِرَاشِ.. مِثْلَمَا تَمُوتُ الْعِيرْ

ليحدث التماثل الصوتي في منطقة القافية، ويستبدل بقول خالد « وفيه ضربة بسيف» بـ «.. وَإِلا فِيهِ جُرْحْ» ليحقق القافية، ويماثل بين (رمح - جرح) من خلال بنية الجناس الناقص.

وتبقى دلالة الجناس رامزة لسرحان بشارة، المعادل لخالد بن الوليد في النص، ليضع سرحان في مصاف الشخصيات العالمية، فخالد رمز للجهاد الإسلامي، وسرحان رمز للنضال الفلسطيني، وقد ظل يتقلب في غياهب السجون الأمريكية بعد اغتياله السيناتور الأمريكي روبرت كيندي[٦٥]، الذي أدلى بتصريحات معادية للفلسطينيين [٦٦].

وإن كان النص التراثي وحَّد الشخصيتين عن طريق الجهاد والنضال، فقد أحدث النص المعاصر مفارقة بين الشخصيتين. مات ابن الوليد والحق منتصر، وسُجن سرحان

والأَعْدَاءْ تَدُوسُ وَجهَهَ الْحَقّ

خالد بن الوليد التفت حوله الجنود، لكن سرحان بقي وحده رمزا للصمود الفردي، ومن ثم ناداه أمل دنقل في القصيدة نفسها:

254 19-11-2009.indd فى اطل اقع م اح 1/4/2010 7:38:38 PM

سَرْحَانُ يَا سَرْحَانْ
وَالصَّمْتُ قَدْ هَدَّكْ
حَتَّى مَتَى وَحْدَكْ
يَخْفِرُكَ السَّجَانْ (٦٧)

ويوظف أمل دنقل الأسطورة في إحدى دوال الجناس في قصيدة «خطاب غير تاريخي على قبر صلاح الدين»، يقول :

فَوَدَاعًا
يَا صَلاحَ الدِّينْ
يَا أَيُّهَا الطَّبْلُ الْبَدَائِيّ الّذِي تَرَاقَصَ الْمَوْتَى
عَلَى إيقَاعِه الْمَجْنُونْ
يَا قَارَبَ الْفُلْكِ
لِلْعَرَبِ الْغَرْقَى الَّذِينَ شَتَتْهُمْ سُفُنُ الْقَرَاصِنَةْ
وَأَدْرَكَتْهُمْ لَعْنَةُ الْفَرَاعِنَةْ (٦٨)

في هذا المقطع يجانس الشاعر بين (القراصنة - الفراعنة) من خلال الاتكاء على أسطورة «لعنة الفراعنة»(٦٩)، ويستخدم تقنية القناع، فصلاح الدين - كما اتضح من قبل - قناع لجمال عبد الناصر، لكن شخصية صلاح الدين تحولت في النص إلى قناع التخالف، أو تناص السلب، ومن ثم سلب الشاعر منه دوره الحقيقي، حتى يناسب القناعُ صلاحَ الدين الجديد/ عبد الناصر، ولهذا غرق العرب، وشتتهم سفن القراصنة، وأدركتهم لعنة الفراعنة٠

من كل ما سبق اتضح أن أمل دنقل عُني بشعره عناية فائقة، وأخلص في شعره للقضية التي آمن بها، ولذا ظل شعره معطاء مع طول الزمن، ومعينا لا ينضب مع كثرة الأقلام التي تناولته، وكلما فتش الباحث في خباياه أعطاه جديدا، وهذه سمة العمل الجيد في كل العصور٠

وكان الجناس وسيلة أسلوبية مهمة شاركت الوسائل الأخرى في نقل تجربة الشاعر إلى المتلقي والتفاعل معها، بقدر عنايته بشعره ،وإخلاصه له٠

255 19-11-2009.indd فىاطلا قعماح 1/4/2010 7:38:38 PM

أهم نتائج البحث

١- البديع لم يعد زينة وتحسينا، بل هو تصوير للشكل والمضمون معا٠

٢- الجناس تعبير عن ذات أمل دنقل التي تحاول الالتئام، بينما هي في حقيقة الأمر ذات متشظية٠

٣- تفوَّق الجناس في منطقة القافية على الجناس في الحشو بنسبة ٤: ١ تقريبا٠

٤- كثرة الجناس في منطقة القافية دليل على عناية الشاعر بها٠

٥- كثرة الجناس الناقص في شعر أمل دنقل وندرة الجناس التام٠

٦- كان للتراث نصيب في بعض دوال التجانس في شعر أمل دنقل٠

256 19-11-2009.indd فى اطل اقع م اح 1/4/2010 7:38:38 PM

الهوامش:

١- رمضان صادق: شعر عمر بن الفارض دراسة أسلوبية، ٢٠٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨ ٠

٢- د٠ رجاء عيد: البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، ٢٣٧، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٣ ٠

٣- د٠ شوقي الزهرة: جذور الأسلوبية من الزوايا إلى الدوائر دراسة فيلولوجية، ٦٢، مكتبة الآداب، د ت ٠

٤- د٠ مصطفي السعد ني: البنيات الأسلوبية في لغة الشعر الحديث، ٣٠، منشأة المعارف، الإسكندرية ،٨٧ ١٩ ٠

٥- انظر: د٠ سعد مصلوح :نحو أجرومية للنص الشعري» دراسة في قصيدة جاهلية»، ١٥٨، مجلة فصول، مج١٠، ع١، القاهرة، ١٩٩٩١ ٠

٦- جورج مولينيه، الأسلوبية، ترجمة: د٠ بسام بركة، ١٠٠، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٠ - ١٩٩٩ ٠

٧- رمضان صادق: شعر عمر بن الفارض دراسة أسلوبية، ٨٥ ٠

٨- د٠ رجاء عيد: المذهب البديعي في النقد والشعر، ٤٢٣، ط١، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٨ ٠

٩- - د٠ شوقي الزهرة: جذور الأسلوبية، ٤٦

١٠- أمل دنقل: الأعمال الكاملة، ٤٢٦، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د ت ٠

١١- د٠ مصطفي السعد ني: البنيات الأسلوبية، ٢٢

١٢- راجع: د٠ كمال بشر: علم الأصوات، ٣٤٦، مكتبة غريب، القاهرة، ٢٠٠٠ ٠

١٣- أمل دنقل: الأعمال الكاملة، ٥٥، ٥٦ ٠ القصيدة مكتوبة في الديوان بنظام السطر الشعري ٠

١٤- السابق: ١٢٨، ١٢٩

١٥- نفسه: ٤٠٥، ٤٠٦

١٦ - الهمزة عند د٠ كمال بشر صوت ليس بالمجهور ولا بالمهموس٠ راجع: علم الأصوات: ٢٨٨

١٧- أمل دنقل: الأعمال الكاملة، ٣٠٠، ٣٠١

١٨ - راجع: السابق، ٤٧٧

١٩ - نفسه: ٢٩٥

٢٠ - نفسه: ٢٨٣

٢١ - راجع: د٠ مصطفي السعد ني: البنيات الأسلوبية: ٣٦

٢٢- د٠ حسن ناظم: البنى الأسلوبية «دراسة في أنشودة المطر للسياب»، ٣٤، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٢٠

٢٣ - جورج مولينيه، الأسلوبية: ٢١١

٢٤ - د٠ حسن ناظم: البنى الأسلوبية: ١٧٨

٢٥- د٠ عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر، ١١٤، دار الثقافة، بيروت، د ت ٠

٢٦- د٠ رجاء عيد: البحث الأسلوبي معاصرة وتراث :١٤٧

٢٧ - د٠ سيد البحراوي: في البحث عن لؤلؤة المستحيل ،٩٠، ٩١، ط٢، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦ ٠

٢٨- د٠ حسن ناظم: البنى الأسلوبية: ٩٩

٢٩- أمل دنقل: الأعمال الكاملة: ١٢٦، ١٢٧

٣٠ - السابق: ٢٦٦، ٢٦٧

٣١ - د٠ كمال بشر: علم الأصوات، ٥٤٤

٣٢ - أمل دنقل: الأعمال الكاملة: ٣٨٦، ٣٨٧

٣٣- السابق: ٢١٤، ٢١٥

257 19-11-2009.indd فىاطلا قعماج 1/4/2010 7:38:38 PM

٣٤- نفسه: ٢٠٣، ٢٠٤

٣٥ - نفسه: ٢٠١

٣٦- نفسه: ٢٠٢

٣٧- د٠ مصطفي السعد ني: البنيات الأسلوبية: ٢١٣

٣٨- أمل دنقل: الأعمال الكاملة: ٢٤٥، ٢٤٦

٣٩- د٠ مدحت الجيار: الشاعر والتراث « دراسة في علاقة الشاعر العربي بالتراث «، ١٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٦ ٠

٤٠- راجع: د٠ علي عشري زايد: توظيف التراث، مجلة فصول، مج١، ع١، ٢٤٠، القاهرة ،١٩٨٠ ٠

٤١- السابق: ٢٠٨

٤٢- العصر: آية١

٤٣- أمل دنقل: الأعمال الكاملة: ٢٨٢

٤٤- السابق: ٢٨٧

٤٥- المائدة: آية ٤٥

٤٦- مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدا لباقي ،٣/ ١٣٥٧، دار إحياء التراث، بيروت ،د ت٠

٤٧- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ٢ / ٢٠٠، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ ٠

٤٨- الإمام الشافعي: ديوانه، ضبطه وراجعه: أبو عبدالرحمن المكي، ١٢٢، ط ١، مكتبة دار مصطفى الباز، السعودية، ١٤٢٧ - ٢٠٠٦ ٠

٤٩- د٠ جابر عصفور: استعادة الماضي « دراسة في شعر النهضة «، ٤٢٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١ ٠

٥٠ - أمل دنقل: الأعمال الكاملة: ٢٧٤، ٢٧٥

٥١ - راجع: الحافظ المزي: تهذيب الكمال، تحقيق: رشاد عواد معروف، ١٤/ ٥١١، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠ - ١٩٨٠ ٠

٥٢ - أمل دنقل: الأعمال الكاملة: ٢٧٧

٥٣ - راجع نص القصيدة في: السابق: ٤١١ - ٤١٣

٥٤ - أحمد مجاهد: أشكال التناص الشعري « دراسة في توظيف الشخصيات التراثية «، ٣٣٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨ ٠

٥٥ - راجع: د٠ جوزيف نسيم يوسف: العدو الصليبي على مصر « هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور «، ٢٠٨، ٢٠٩، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ ٠

٥٦ - أحمد مجاهد: أشكال التناص الشعري: ١٩١

٥٧ - السابق: ٣٩

٥٨ - أمل دنقل: الأعمال الكاملة: ١٣٤، ١٣٥

٥٩ - راجع :خير الدين الزر كلي: الأعلام، ٣/ ٣٣٨، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠ ٠

٦٠ - أحمد مجاهد: أشكال التناص الشعري: ٣٩

٦١ - الحافظ المزي: تهذيب الكمال: ٨ / ١٨٩

٦٢ - راجع أحمد مجاهد: أشكال التناص الشعري: ١٦٢

٦٣ - أمل دنقل: الأعمال الكاملة: ٢٧٠، ٢٧١

19-11-2009.indd 258 فىراطلا ةغمراح 1/4/2010 7:38:38 PM

٦٤ – الحافظ المزي: تهذيب الكمال: ٨ / ١٨٩

٦٥ – روبرت كيندي (١٩٢٥ – ١٩٦٨)، سيناتور أمريكي، شقيق الرئيس الأمريكي السابق جون كيندي، قتله سرحان بشارة، بسبب تصريحاته المعادية للفلسطينيين ٠

– أحمد مجاهد: أشكال التناص الشعري: ٩٢

٦٦ – راجع السابق: الصفحة نفسها ٠

٦٧ – أمل دنقل: الأعمال الكاملة: ٢٦٨

٦٨ – السابق: ٤١١

٦٩ – لعنة الفراعنة نتجت بسبب المقابر الفرعونية المغلقة، التي توجد بها موميات ومواد تتعرض للتعفن، وهناك من أطلق على ما يصيب الإنسان من مصيبة بقوله حلت علية اللعنة، ويقصدون ما يصيبه بسبب البكتريا، ما تسببه له من الموت٠

د٠ زاهي حواس: حقيقة لعنة الفراعنة، الشرق الأوسط، العدد ١٠٦٨٢، ٢٨ / ٦ / ٢٠٠٧ ٠

والواضح أن هذه الكلمة اختراع أوربي صاحب الهجمة الأوربية الضخمة في نهب الآثار المصرية ٠٠٠ ومن الطبيعي أن تحدث في أثناء ذلك بعض الصعوبات والكوارث ٠ وقد فسروا ذلك بلعنة الفراعنة، أي غضب الفراعنة أصحاب تلك الآثار العجيبة التي تبعث على الرهبة، ومن الرهبة والانبهار تولد التأثر بالفراعنة والتصديق بأسطورة لعنة الفراعنة٠

د٠ أحمد صبحي منصور: لعنة الفراعنة بين الفكر الغربي والموروث العربي، ص ٢، شفاف الشرق الأوسط، ١٢ / ٥ / ٢٠٠٧

المراجع

١– د٠أحمد صبحي منصور: لعنة الفراعنة بين الفكر الغربي والموروث العربي، شفاف الشرق الأوسط، ١٢ / ٥ /٢٠٠٧

٢– أحمد مجاهد: أشكال التناص الشعري « دراسة في توظيف الشخصيات التراثية «، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨ ٠

٣– أمل دنقل: الأعمال الكاملة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د ت ٠

٤– د٠ جابر عصفور: استعادة الماضي « دراسة في شعر النهضة «، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١ ٠

٥– جورج مولينيه، الأسلوبية، ترجمة: د٠ بسام بركة، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٠ – ١٩٩٩ ٠

٦– د٠ جوزيف نسيم يوسف: العدو الصليبي على مصر « هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور «، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ ٠

٧– د٠ حسن ناظم: البنى الأسلوبية « دراسة في أنشودة المطر للسياب»، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٢

٨– خير الدين الزر كلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠ ٠

٩– د٠ رجاء عيد:

– البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٣ ٠

– المذهب البديعي في النقد والشعر، ط١، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٨ ٠

١٠– رمضان صادق: شعر عمر بن الفارض دراسة أسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨ ٠

١١– د٠ زاهي حواس :حقيقة لعنة الفراعنة، الشرق الأوسط، العدد ١٠٦٨٢، ٢٨ / ٦ / ٢٠٠٧

١٢– د٠ سعد مصلوح :نحو أجرومية للنص الشعري» دراسة في قصيدة جاهلية»، مجلة فصول، مج١٠، ع١، القاهرة، ١٩٩٩١ ٠

259 19-11-2009.indd فيراطلا ةعماج 1/4/2010 7:38:38 PM

١٣- د٠ سيد البحراوي: في البحث عن لؤلؤة المستحيل، ط٢، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦ ٠
١٤- د ٠ شوقي الزهرة: جذور الأسلوبية من الزوايا إلى الدوائر دراسة فيلولوجية، مكتبة الآداب، د ت ٠
١٥- د٠ عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر، دار الثقافة، بيروت، د ت ٠
١٦- د٠ علي عشري زايد: توظيف التراث، مجلة فصول، مج١، ع١، القاهرة ،١٩٨٠ ٠
١٧- د٠ كمال بشر: علم الأصوات، مكتبة غريب، القاهرة، ٢٠٠٠ ٠
١٨- محمد بن إدريس (الإمام الشافعي): ديوانه، ضبطه وراجعه: أبو عبدا لرحمن المكي، ١٢٢، ط ١، مكتبة دار مصطفى الباز، السعودية، ١٤٢٧ - ٢٠٠٦ ٠
١٩- محمد بن عبد الكريم (ابن الأثير الجزري): الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ٢ / ٢٠٠، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ ٠
٢٠- د٠ مدحت الجيار: الشاعر والتراث « دراسة في علاقة الشاعر العربي بالتراث «، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٦ ٠
٢١- مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث، بيروت، د ت٠
٢٢- د٠ مصطفي السعد ني: البنيات الأسلوبية في لغة الشعر الحديث، منشأة المعارف، الإسكندرية ،٨٧ ١٩ ٠
٢٣- يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج(الحافظ المزي): تهذيب الكمال، تحقيق: رشاد عواد معروف، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠ - ١٩٨٠ ٠

260 19-11-2009.indd فىاطلا ةغماح 1/4/2010 7:38:38 PM